جامع التواريخ

رشيد الدين فضل الله الهمذانى

تاريخ المغول

المجلد الثانى — الجزء الأول

الإيلخانيون

تاريخ هولاكو

مع مقدمة رشيد الدين

نقله إلى العربية

محمد صادق نشأت محمد موسى هنداوى فؤاد عبد المعطى الصياد

راجعه وقدم له

يحيى الخشاب

الجمهورية العربية المتحدة
وزارة الثقافة والإرشاد القومى
الإقليم الجنوبى
الإدارة العامة للثقافة

جامع التواريخ

رشيد الدين فضل الله الهمذاني

تاريخ المغول

المجلد الثانى — الجزء الأول

الإيلخانيون

تاريخ هولاكو

مع مقدمة رشيد الدين

نقله إلى العربية

محمد صادق نشأت　محمد موسى هنداوى　فؤاد عبد المعطى الصياد

راجعه وقدم له

يحيى الخشاب

وزارة الثقافة والإرشاد القومى

الإقليم الجنوبى

الإدارة العامة للثقافة

ترجمة عن الفارسية

لمقدمة رشيد الدين لجامع التواريخ

وتاريخ هولاكو

عن الطبعة التي نشرها « كاترمير »

ترجمة

محمد صادق نشأت : الأستاذ المنتدب بكلية الآداب ، جامعة القاهرة
محمد موسى هنداوى : الأستاذ المساعد بكلية دار العلوم ، جامعة القاهرة
فؤاد عبد المعطى الصياد : المدرس بكلية الآداب ، جامعة عين شمس

مراجعة

يحيى الخشاب : رئيس قسم الدراسات الشرقية بكلية الآداب
جامعة القاهرة . عميد كلية الآداب السابق

دار إحياء الكتب العربية
عيسى البابى الحلبى وشركاه

مقدمة

يحيي الخشاب

---

(١)

قدّم هذا الكتاب المستشرق الفرنسى كاترمير بمقدمة قيمة جامعة ، تحدث فيها عن المؤلف رشيد الدين فضل الله ، حياته واشتغاله بالطب ثم بالوزارة ثم كتابته « لجامع التواريخ » ثم كتبه الأخرى . كما تحدث طويلا عن موضوعات أخرى من الحضارة الإسلامية تجعل من مقدمته سفرا جديراً بأن يطبع على حدة .

وهى هنا من صفحة ١ إلى ١٧٩ .

ولكن كاترمير نشر كتابه عام ١٨٣٦ ، فحديثه عن « جامع التواريخ » قديم ، وقد جد الكثير عنه سواء من ناحية اكتشاف أجزاء منه لم تكن قد عثر عليها أيام كاترمير أو من ناحية النشر ، فكثير من أجزاء الكتاب قد أصبح متداولًا بين الناس منشوراً . وكذلك ينبغى التحدث عن الطريقة التى تتبع فى نشر ترجمة مانُشر من هذا الكتاب الضخم أو فى نشر القسم المخطوط منه .

(٢)

وفى الصفحات ٢٠٣ إلى ٢٠٨ من كتابنا هذا يجد القارئ بيانا كتبه

رشيد الدين عن كتابه الذى يقع فى ثلاثة مجلدات وقد بيّن فيه موضوعات كل واحد منها .

وحين فكر كاترمير فى كتاب رشيد الدين لم يكن أمامه منه سوى المجلد الأول ، المسمى تاريخ غازان ، والذى يشتمل على :

قواعد وديباجة وفصول فى شرح أحوال الأوغوز والمغول وأقوام الأتراك ، ثم بيان تاريخ آباء جنكيز خان وأجداده ، وهم عشرة أمراء (صفحة ٢٠٤ ـ ٢٠٥) ، ثم تاريخ جنكيز خان وأبنائه وأحفاده المشهورين ، مع ذكر مجمل لتاريخ ملوك العالم الذين كانوا يعاصرونهم حتى ذلك الوقت .

وفى آخر هذه المخطوطة ذيل كتبه حافظ آبرو عن السلطانين أولجايتو وأبى سعيد ومن خلفوهما من الإيلخانيين .

وقد فكر كاترمير فى أن ينشر من هذا المجلد موضوعين رآهما جديرين بأن يعرف بهما وهما تاريخ جنكيز خان وتاريخ غازان خان . فهو يرى أن الموضوع الأول متفق تماماً مع روايات مؤرخى الصين [1] . ولما كان هدفه هو التعريف بكتاب رشيد الدين عن طريق نشر فصول مطولة منه فقد عزم على

---

(١) أول من حاول الترجمة عن رشيد الدين هو هامر پورجشتال Hammer Purgastahl الذى ترجم الجزء الخاص بالصين . ولكن كلا پروث Klaproth وجد فى هذه الترجمة أخطاء كثيرة فنشر ترجمة أخرى عام ١٨٣٣ فى .JA (مجلد ١١ ، ١٨٣٣) .
انظر مقدمة الزميل الدكتور أحمد السعيد للترجمة العربية التى نشرها لكتاب « تاريخ الترك فى آسيا الوسطى » لبارتولد .

نشر حياة چنكيز خان كلها كما وردت فى جامع التواريخ مع مقارنتها بما جاء عن هذا الأمير فى الروايات الأخرى . أما عن الموضوع الثانى تاريخ غازان خان فإن رشيد الدين ذيله بفصل طويل عن أعماله ومنشآته وهو فصل طويل وهام عزم كاترمير على نشره . وقد نقل هذا الذيل إلى الإنجليزية فى كلكتا مستركيرك پاتريك Kirck Patrick تحت عنوان : Institutes of Ghazan-Khan وذلك فى مجموعة للنصوص الآسيوية [1] . ولم يكن عمل پاتريك يحول دون مضى كاترمير فى عزمه لأن هذه المجموعة لم تذع فى فرنسا ولأن المترجم لم ينقل عن نص رشيد الدين بل نقل عن رواية مختصرة جاءت فى « حبيب السير » ، فى حين أن ما اعتزمه هو نشر نص جامع التواريخ كاملا .

كانت هذه نية كاترمير ولكن عوامل أخرى جدت حالت دون الاستمرار فيها . ذلك أن موراد جا دوسون [2] أخرج عام ١٨٢٤ تاريخ المغول الذى تبع فيه بدقة رواية رشيد الدين ، الأمر الذى جعل ترجمة حياة چنكيزخان غير لازمة فقد حلّت رواية دوسون المحققة محل الروايات المحرفة فى پيتى دى لاكروا [3] ـ الذى كان قد ترجم إلى الفرنسية عن النسخة الثانية لرشيد الدين وهى على جانب كبير من النقص (١٤٢ هنا) ـ وفى التصنيفات الأخرى .

---

(١) New Asiatic Miscellany

(٢) Mouradgea d' Ohsson

(٣) Pètis de le Croix

وفى الوقت نفسه كانت المطبعة الملكية فى باريس تزمع القيام بنشر نصوص لكتاب شرقيين على أن تكون النصوص مشفوعة بترجمة فرنسية وتعليقات . فعزم كاترمير على أن ينشر المجلد الأول لرشيد الدين كله مع الترجمة الفرنسية . فلما شرع فى تحقيق ماعزم عليه أحس بثقل المهمة حين فكر فى الحياة القصيرة وفى الخطى البطيئة التى يسير فيها الطبع ، وأدرك أن المهمة أشق من أن تتحملها طاقته ، وعلى هذا حدد القسم الذى ينشره من كتاب رشيد الدين بالإيلخانيين أى مغول فارس فإذا ماتم له ذلك فإنه ينشر كذلك الذيل الملحق بهذا المجلد والمتعلق بالسلطانين أولجايتو وأبى سعيد وخلفائهما . .

ولكن كاترمير لم يحقق سوى نشر القسم الخاص بهولاكو مع المقدمة التى وضعها رشيد الدين لكتابه ، فإن تصحيح النص الفارسى والتعليقات القيمة التى نجدها على الترجمة الفرنسية ثم هذه المقدمة النفيسة التى تعد بذاتها سفرا قيما كل هذا الجهد حال دون إتمام كل ما كان قد عزم عليه . وحسبه أنه كان أول من قام بمثل هذا النشر العلمى الرائع لكتاب رشيد الدين كما كان أول من نشر الألفاظ المغولية على هذا النحو الذى فاد منه ولايزال يفيد كل من يعنى من المؤرخين بتاريخ المغول .

بعد ظهور الطبعة الأنيقة القيمة التى أعدها كاترمير باثنتين وعشرين سنة ظهر الجزء الأول من طبعة برزين Berezine ، سنة ١٨٥٨ . وقد نشر برزين من المجلد الأول لرشيد الدين الأجزاء المتعلقة بالقبائل التركية وأجداد

جنكيز وتاريخ جنكيز نفسه . وقد أخرج برزين طبعته عن المخطوطة الفارسية في ثلاثة أجزاء مع كل جزء الترجمة الروسية لما ورد به . وكان إخراج الجزء الثالث سنة ١٨٨٨ .

(٣)

هذا ما كان في القرن التاسع عاشر . أما في القرن العشرين فقد بدأ النظر في رسم الخطة الواجبة لإخراج كتاب رشيد الدين ، سواء نشرا أونشرا وترجمة معا . كما بدأت الدراسات المغولية الفارسية تتخذ طابع العناية بالمصطلحات والنظم الإدارية والسياسية والاجتماعية والثقافية في البلاد التي حكمها المغول .

وفي عام ١٩٠٦ قررت لجنة أوصياء مجموعة جب التذكارية .GMS نشر المجلد الأول من جامع التواريخ ، تاريخ مبارك غازاني ، على أن يكون في ثلاثة أجزاء :

١ ــ الجزء الأول ، في القبائل التركية وجنكيزخان ، أجداده وسيرته .
٢ ــ الجزء الثاني في خلفاء جنكيزخان الذين حكموا في غير إيران .
٣ ــ الجزء الثالث في خلفاء جنكيزخان الذين حكموا في إيران، الإيلخانية . (مضافا إليه الذيل الذي كتبه حافظ آبرو)

وكان من الطبيعي أن يبدأ المستشرق الفرنسي ، بلوشيه Blochet ، الذي عهد إليه القيام بهذا النشر بالجزء الثاني : لأن الجزء الأول سبق أن

نشره مع الترجمة الروسية المستشرق الروسى برزين Berezine ، ولو ان طبعته هذه نادرة إلا أنها خرجت للناس على أية حال .

والجزء الثانى الذى نشره بلوشيه فى مجموعة جب يحتوى على تاريخ كل من : أوكتاى، جوجى ، چغتاى ، تولوى ، كويوك ، منكو ، قوبيلاى، تيمور . وقد تم النشر فى مجموعة جب عام ١٩١١ .

ولم يخرج بلوشيه غير هذا الجزء ، المجلد ١٨ (٢) من المجموعة .

ثم أخذ المؤرخون يعنون بنشر أقسام أخرى :

فى إيران نشر بيانى (خان بابا) سنة ١٩٣٧ الذيل الذى كتبه حافظ آبرو لجامع التواريخ مع ترجمة فرنسية وتعليقات .

وفى تشكسلوفاكيا عنى المستشرق كارل يان Karl Jahn بنشر قسم من الجزء الثالث من الخطة السابقة ،فنشر فى .GMS عام ١٩٤٠ تاريخ غازان خان. وفى العام التالى نشر من هذا الجزء القسم الخاص بتاريخ كل من : آباقاخان ، أحمد تكودار ، أرغون ، كيخاتون .

فإذا أضيف مانشره كل من بيانى وكارل يان إلى مانشره كاترمير فإن تاريخ مغول إيران يكون قد تم نشره ، بما فيه الذيل الذى وضعه حافظ آبرو الخاص بأولجايتو وأبى سعيد .

وإذا أضيف هذا كله إلى مانشره كل من برزين و بلوشيه فإن المجلد الأول من تاريخ رشيد الدين يكون قد نشر بتمامه .

(٤)

خطة برون Browne

وبرون ، كأحد الأوصياء على مجموعة جب التذكارية ، كان معنيا بالموضوع عناية خاصة . فكتب فى يناير من عام ١٩٠٨ مقالا فى :J R A S يقترح فيه خطة لنشر كتاب جامع التواريخ .

وخطة برون تقوم على الواقع التاريخى للمخطوط . فرشيد الدين كتب بتكليف من غازان خان مجلدا يشمل تاريخ القبائل التركية والمغولية وأجداد جنكيز خان ثم جنكيز خان نفسه ومن بعده خلفائه حتى غازان . وهذا هو المجلد الذى يخص المغول .

فإذا أضيف إليه ذيل حافظ آبرو المتعلق بأولجايتو وأبى سعيد فإن تاريخ المغول يكمل .

وهذا المجلد ، فى تاريخ المغول ، يمثل المجموعة الأولى من خطة برون . وقد رأينا أنه قد تم نشره .

أما المجموعة الثانية من خطة برون فتتعلق بالتاريخ العام وقد اقترح نشرها فى أربعة أجزاء :

١ ـ تاريخ ملوك الفرس قبل الإسلام ثم العصر النبوى .

٢ ـ تاريخ الخلفاء الراشدين ، ثم الأمويين والعباسيين إلى المستعصم .

٣ ـ الدويلات التى انقسم إليها العالم الإسلامى ، ومنها الغزنويون

والسلاجقة والخوارزمشاهيون والأتابكة والإسماعيلية .

٤ ـ تاريخ الأقوام الذين اتصل بهم المغول . الترك والصين واليهود والفرنج والهنود .

وقد نشر كارل يان بعض القسم المتعلق بالفرنج « كتاب تاريخ إفرنج » في ليدن سنة ١٩٥١ .

(٥)

وفى السنوات الأخيرة ، أى فى النصف الثانى من القرن العشرين ، نشطت المدرسة الروسية فى تكملة نشر كتاب رشيد الدين وظهر مجلد ضخم يحوى تاريخ مغول إيران من هولاكو إلى آخر غازان خان ، نشره عام ١٩٥٧ عبد الكريم على أوغلو على زاده بإشراف برتلس و روماسكويج ومع النص الفارسى ترجمة روسية قام بها ارندس . وتعاون فى نشر هذا المجلد المجمع العلمى الروسى فى آذر بيجان ، باكو .

و بهذا تكون المدرسة الروسية قد قامت بنشر جزء كبير من المجلد الأول لكتاب جامع التواريخ :

١ ـ القبائل التركية وأجداد جنكيز ثم تاريخ جنكيز وهو القسم الذى نشره فى القرن التاسع عشر برزين Berezine .

٢ ـ مغول إيران (الإيلخانيون) . وهو القسم الذى نشره فى القرن العشرين عبد الكريم على أوغلو على زاده .

(٦)

وفى تركيا تنشر الجمعية التاريخية بأنقره أقساما من جامع التواريخ وقد ظهر جزء منها فى السنوات الأخيرة ، ويقوم بهذا العمل الجليل أحمد آتش .

(٧)

كان من الطبيعى أن ينصرف اهتمام العلماء إلى المجلد الأول من تاريخ رشيد الدين ، لتعلقه بتاريخ أقوام المغول ، قبائلهم وملوكهم الذين حكموا فى إيران وفى غير إيران ، لأن هذا القسم من التاريخ يعد فيه رشيد الدين مؤرخاً جديرا بأن ينقل عنه . فقد عمل غازان خان على توفير موادالبحث لرشيد الدين، الذى استطاع ، لعلمه باللغة المغولية ، أن يفيد من قراءة هذه المواد وأن يستخلص منها مايهم التاريخ . وقد أخذ تاريخ المغول عن :

١ ـ حوليات المغول (آلتين دفتر) التى تروى الحوادث التاريخية الرئيسية ، وهذه الحوليات كان يحتفظ بها فى سجلات الإمبراطورية .

٢ ـ الوثائق التاريخية وقوائم الأنساب المتصلة التى تحتفظ بها الأسر المغولية الكبيرة .

٣ ـ الروايات التى يختلط بها التاريخ العام مع التاريخ الخاص لبعض الأسر أو الأفراد .

وقد تناول كاترمير كتب المؤرخين السابقين على رشيد الدين والذين تناولوا تاريخ المغول وخلص من نقده لكتبهم إلى أن « جامع التواريخ » يعد بحق المرجع الأفضل فى تاريخ المغول .

ثم إن رشيد الدين كتب المجلد الأول من تاريخه لغازان خان وهو يعرف مدى حرص هذا الخان على تدوين تاريخ أجداده ومدى حرص حاسديه على الإيقاع به لإسخاط الخان عليه ، فكان اجتهاده لإرضاء السلطان وسعيه لإفساد خطة حاسديه يدفعانه دائما إلى التدقيق فى كتابة تاريخ المغول .

(٨)

وأما المجلد الثانى فيمكن تقسيمه إلى قسمين : قسم يتناول تاريخ الفرس قبل الإسلام ، ثم التاريخ الإسلامى إلى سقوط بغداد ؛ وقسم يتناول الشعوب والأمم التى اتصل بها المغول فى تاريخهم وفى فتوحاتهم .

وقد كتب رشيد الدين هذا المجلد ، والمجلد الثالث المفقود، بأمر أوجايتو.

ويحدثنا رشيد الدين عن سبب تأليف التاريخ العام الذى يحتويه المجلد الثانى من كتابه . فإن أوجايتو حين اطلع على « تاريخ غازانى » وكله يدور حول تاريخ المغول ، رأى أن يكتب كتاب عن تاريخ الأمم والشعوب التى

اتصل بها المغول ـ وقد دخلت أقاليم الربع المسكون تحت سيطرتهم ـ و بناء على هذا التوجيه شرع رشيد الدين فى سطر ماأمر به الخان .

(٩)

أما طريقة التأليف أو بالأحرى التصنيف التى جرى عليها فى هـذا المجلد الثانى ، فإن رشيد الدين يحدثنا بأنه نقل عن العلماء وعن الـكتب .

أما العلماء فـكانوا كثيرين فى بلاط أولجايتو ، من الخطا والماچين والهند و كشمير والتبت والأو يغور وغيرهم من أقوام الترك والأعراب والإفرنج. ومن هؤلاء العلمــاء فلاسفة ومنجمون ومؤرخو أديان وغيرهم . فاتصل بهم رشيد الدين واستطلع آراءهم وأخذ عنهم .

وأما الـكتب ـ وكان كل واحد من العلماء فى بلاط الخان مزودا بكتب تشتمل على تواريخ أمته وحكاياتها ومعتقداتها ـ فقد أخذ عنها رشيد الدين مارآه يتفق مع خطته فى الـكتاب .

وهو يقرر أن المؤرخ لايشهد بعينه القضايا والحـكايات التى يـكتبها. و يقررها فى مؤلفه ، كما أنه لايستقى معلوماته من طريق المشافهة عن أفراد الطائفة التى كان التاريخ سجلا لسرد تاريخها . إنمـا يـكتب المؤرخ مايتناقله الرواة ومايذيعونه .

وكما ذهب أهل الحديث فى تقسيم النقل إلى متواتر وآحاد ، فـكذلك النقل فى روايات التاريخ ، عند رشيد الدين ، نوعان :

متواتر .

وغير متواتر .

وعنده أن المتواتر يؤدى إلى العلم وليست فيه شبهة . ومن هـذا نقل مايتعلق بالرسل والملوك والعظماء الذين عاشوا فى القرون الخالية . وكذلك منه تاريخ البلاد البعيدة مثل مكة ومصر .

وأما غير المتواتر فإنه يحتمل الصدق والـكذب . ويجب أن يجتهـد المؤرخ فى درسه حتى إذا اطمأن إلى صحة رواية ما أخذ بهـا ، وإذا شك فى رواية مّا اطرحها أو ذكر أنه يشك فى صحتها . ومن هذا النوع أكثر روايات التاريخ ، الأمر الذى يجعل من الصعب معرفة تاريخ بعض الأمم والأقوام فى مختلف العهود معرفة يقينية . ولا مفر من النظر فى هـذا النوع الثانى من الروايات لأنه الأكثر .

ولو ذهب المؤرخ إلى وجوب أن يكون كل ما يكتبه مقطوعاً بصحتـه فإنه قد لا يستطيع أن يكتب تاريخ أية أمة لأن أكثر ما ينقل إليه إنما يكون لغير المتواتر من الأخبار ، ويحذر رشـيد الدين من هذا التشدد فى اشتراط يقينية روايات التاريخ ، فإن هـذا يؤدى إلى حرمان النـاس من مزايا معرفة التاريخ .

ولهذا يرى أن وظيفة المؤرخ ، بالنسبة لغير المتواتر ، أن ينقل ويكتب أخبار كل قوم وكل طائفة على نحو ماوردت فى كتبهم وبالطريقة التى رويت

بها من الكتب المشهورة المتداولة بين هؤلاء القوم ، ومن أقوال مشاهيرهم والبارزين فيهم ، تاركا العهدة على الراوى .

(١٠)

ولا يريد رشيد الدين أن يوهم من يقرأ هذا المجلد من تاريخه (التاريخ العام) بأنه مؤرخ اتسع وقته وأتيح له الفراغ الكافى ليقوم بمهمته ، ولكنه يقرر ، بحق ، أنه وزير ألقى على عاتقه عبء ثقيل ، ثم هو فى آخر سن الكهولة ، فليس لديه الشروط الواجبة للمؤرخ ، ولكن كان عليه أن يمتثل لأمر مولاه وأن يكتب التاريخ الذى أمر بكتابته وأن يحاول أن يحسن فيه ببذل غاية الجهد .

ولهذا فهو يأمل من القارئ أمرين :

أولهما أن يتجاوز عما يجد من خطأ أو خلل أو سهو أو زلل .

والثانى أن يعذر المؤلف الضعيف الذى صدع بما أمر به .

وهو فى ثقة العالم بنفسه واعتزازه بمعنى العلم الرفيع يرجو العالم الذى يقرأ الكتاب فيرى فيه نقصاً أو عيباً أن يكمل النقص وأن يصلح العيب وأن يتم ما بدأ على خير وجه .

(١١)

بيّنا أن المجلد الثانى من جامع التواريخ ينقسم إلى قسمين : قسم خاص

بتاريخ الأنبياء والعظماء ثم تاريخ إيران قبل الإسلام ، ثم التاريخ الإسلامى حتى غزو المغول ، والقسم الثانى خاص بالشعوب التى عرفها المغول ، كالهنود والإفرنج . ونستطيع بعد أن ذكرنا فى البند السابق خطة رشيد الدين أن نقرر ، نقلا عن المؤرخين المختصين ، أن مبدأ النقل أو بعبارة أدق مبدأ التصنيف ينطبق على أجزاء كثيرة من القسم الأول ، من ذلك :

١ ـ حديثه عن الدولة الغزنوية مأخوذ عن كتاب تاريخ اليمينى .

٢ ـ حديثه عن السلاجقة مأخوذ عن كتاب « راحة الصدور » للراوندى . وحين قام محمد إقبال بنشر « راحة الصدور » اتخذ من نص رشيد الدين نسخة ثانية يصلح منها و يقارن بها . كما أنه نقل عن « تواريخ آل سلجوق » لأبى حامد محمد بن إبراهيم .

٣ ـ حديثه عن الدولة الخوارزمشاهية مأخوذ عن كتابى : « مشارب التجارب » لأبى الحسن بن أبى القاسم البيهقى المشهور بابن فندق وعن « تاريخ جهانگشاى » للجوينى . وقد ذكر العلامة القزوينى أن رشيد الدين استوعب « تاريخ جهانگشاى » كله فى كتابه نقلا وتلخيصاً . (مقدمة الجزء الثالث ص كا ، وانظر رسالة الدكتوراه التى قدمها الزميل الدكتور فؤاد الصياد عن رشيد الدين فضل الله مؤرخ المغول ص ٢٠١ ـ ٢٠٣) .

ومن هذا نتبين أن نقل تواريخ هذه الدول من مصادرها الأولى أولى من نشرها مترجمة عن تصنيف رشيد الدين لها .

ولذلك تعد العناية بنشر هذا القسم أو ترجمته فى المرتبة الثانية .

(١٢)

أما القسم الثانى من هذا المجلد وهو الخاص بالشعوب التى عرفها المغول فقد بذل فيه رشيد الدين جهداً كبيراً . فهو يحدثنا أنه حين أراد كتابة تاريخ الخطا استقدم عالمين صينيين هما : ليتاجى ويكسون وكانا عالمين بالطب والفلك والتاريخ وقد أخبرا رشيد الدين أن خير كتاب فى فى تاريخ الخطا كتبه ثلاثة لامات متخصصون هم :

فوهين من مدينة نان جان چيو

وفنجو من مدينة كن چيو

وشيخون من مدينة لأووكين

وأن علماء المملكة راجعوا هذا الكتاب وشهدوا بأصالته .

فأحضر رشيد الدين هذا الكتاب ونقل عنه .

ويذكر شمس الدين الكاشانى فى تاريخه المنظوم للمغول « تاريخ غازان خان » أن الأمير پولاد چينگ سنگ ، سفير قوبيلاى خان فى بلاط

(ع)

غازان ، كان يجلس مع رشيد الدين ، جلوس الشيخ مع المريد ، فكان الأمير يحكى ورشيد الدين يدون .

وهذا يعطى فكرة واضحة عن دقة المصدر الذى يأخذ عنه رشيدالدين.

ولم ينشر من هذا القسم إلاجزءان من تاريخ الفرنج هما :

الباب الثالث من القسم الثانى من تاريخ الفرنج : « فى معرفة ولاية الفرنج وبحارها وجزرها » ؛ والباب الرابع : « فى ولادة المسيح وقصته وذكر البابوات والقياصرة » . قام بهذا النشر كارل يان فى براغ عام ١٩٥١ .

(١٣)

أستاذنا الجليل عبد الوهاب عزام أول من دعا عندنا لنشر وترجمة « جامع التواريخ » . ألقى عام ١٩٤٧ محاضرة فى الجمعية الجغرافية عن رشيد الدين وتحدث فيها عن كتابه وضرورة القيام بنشر القسم العربى منه و بترجمة بقية الأجزاء إلى اللغة العربية لتسد الفراغ عن فترة المغول فى العالم الإسلامى . وأشار الأستاذ رحمه الله إلى مخطوطة دار الكتب (١٨٨٩ تاريخ ٤) التى تختص بتاريخ القبائل وچنگيز خان ، آبائه وسيرته . وهى مصورة عن مخطوطة مكتبة آياصوفيا باستنبول (تاريخ چنگيز) ومنها صورة بمعهد المخطوطات التابع للجامعة العربية . وكان مقصد الأستاذ أن نبدأ بنشر هذا

القسم العربى من تاريخ المغول ، فهو سهل نسبيًا لكونه عربيًا وهو من ناحية الترتيب الزمنى أول أقسام « جامع التواريخ » .

ثم إن تحقيقة يسير إذا ماقورن بالنص الفارسى المقابل له والذى توجد منه مخطوطة فى مكتبة روان كوشكى (طوپ قاپوسراى) .

وحينذاك لم يكن لدينـا من منشورات « جامع التواريخ » سوى القسمين اللذين نشرهما كاترمير وبلوشيه ، والذيل الذى كتبه حافظ آبرو للكتاب ، وكان من العسير وضع خطة شاملة لنقل الكتاب كله إلى اللغة العربية .

وفى عام ١٩٤٨ التقينا بالأستاذ مينورسكى بكلية الآداب ، وكان أستاذاً زائرا بها ، وتحدثنا فى شأن جامع التواريخ ، واتفقنا على أن ننشر أولا مخطوطة دار الكتب على أن نقارنهـا بالنص الفارسى لها الذى نشره بعد مقارنات بالمخطوطات الكثيرة برزين ، فإن المقارنة قد تثبت بعض التفاوت بين النصين العربى والفارسى كما أنها تفيد فى تصحيح بعض الألفاظ الغامضة فى كل من النصين .

وفى مايو من عام ١٩٤٩ التقيت بطهران بالعلّامة القزوينى وتحدثنا عن نشر جامع التواريخ ، وعن المخطوطة العربية التى لدينا وصلتها بنسخة برزين . وقد أرانى الأستاذ هذه النسخة وقال إنها نادرة وحدثنى عن كيفية اقتنائه لها .

ولاشك أن الاطلاع على نسخة برزين له أهمية فى نشرتاريخ چنگيزخان .

(١٤)

وكثرت الأقسام المنشورة من الكتاب ، وقد اقتنينا بعد الحرب العالمية الثانية ، الأجزاء التى نشرها كارل يان ، ثم المجلد الضخم الذى نشرته جامعة باكو للايلخانيين ، ورويدا رويدا تظهر الأجزاء التى تنشرها الجمعيةالتاريخية بأنقرة بتحقيق الأستاذ أحمد آتش . بعد هذا أصبح من اليسير أن نضع خطة كاملة لنشر تاريخ المغول .

ثم إن لجنة الترجمة والتبادل الثقافى بالمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية اقترحت ترجمة ونشر « تاريخ المغول » من كتاب « جامع التواريخ » . وقررت وزارة الثقافة والإرشاد القومى ، إدارة الثقافة ، أن تقوم بنشر هذا التاريخ الذى نرجو الله أن يعين على إتمامه .

وسيكون الكتاب مجلدين :

المجلد الأول ويخرج فى جزأين :

١ ـ الجزء الأول ـ تاريخ چنگيزخان . وهو نشر المخطوطة العربية التى لدينا بدار الكتب ، مع مقارنتها بنسخةطوپ قاپو سراى الفارسية ونسخة برزين إذا أمكن الحصول عليها .

٢ ـ الجزء الثانى ـ أبناء چنگيز من أوگتاى خان حتى تيمور خان .

عن طبعة بلوشيه .

والمجلد الثانى ويخرج فى ثلاثة أجزاء ، تحوى تاريخ الإيلخانيين حتى آخر عهد غازان خان :

١ ـ الجزء الأول : تاريخ هولاگو خان .

٢ ـ الجزء الثانى : تاريخ الخانات من آباقا خان إلى گيخاتو خان .

٣ ـ الجزء الثالث : تاريخ غازان خان .

ثم يأتى بعـد ذلك « الملحق » وهو ذيل جامع التواريخ لحافظ آبرو لتتم به سلسلة الإيلخانيين .

(١٥)

والجزء الذى ننشره اليوم يتعلق بتاريخ هولاگو ، وسيرى فيه المؤرخون رواية جديدة عن الملاحدة ؛ وسقوط بغداد ؛ ثم هزيمة جيش هولاگو على يد المصريين فى عين جالوت .

فحديث رشيد الدين عن الملاحدة وكيف أوعز قاضى القضاة شمس الدين القزوينى إلى منگوقا آن بهدم قلاعهم أكثر تفصيلا ووضوحا من الروايات العربية .

وأما حديثه عن سقوط بغـداد وزوال الخلافة العباسية بقتل المستعصم فيخالف فى كثير من النقاط ماورد فى كتب المؤرخين المسلمين من أهل السنة،

عربا كانوا أو تركا . فهو يتحدث عن الدور الذى قام به ابن العلقمى مبينا إلى أى حد كان هـذا الوزير مخلصا فى نصحه للخليفة وإلى أى حد تعرض لدسائس الدواتدار وابن الخليفة ، وكيف اتهم الوزير بأنه يحابى هولاكو وأنه يبغض العباسيين ويتمنى زوال خلافتهم لأنه شيعى وكيف نجح أعداؤه فى إذاعة هذا عنه . فالصورة التى نراها هنا لابن العلقمى غير هـذه الصورة التى نجدها فى كتاب عربى كالبداية والنهاية لابن كثير أو فى كتاب تركى كقصص أنبيا وتاريخ خلفا لجودت باشا .

وكذلك الحديث عن الخواجه نصير الدين الطوسى الذى لم يسلم بدوره من اتهام بعض المؤرخين نراه مصورا هنا صورة لا يرقى إليها الشك فهو يعمل بكل الوسائل لحث هولاكو على العناية بشئون المسلمين .

ولم يذكر رشيد الدين الطريقة التى قتل بها الخليفة ، وللمؤرخين الإسلاميين روايات كثيرة فى هذا . وذكر رشيد أن الخليفة بعث بالجاثاليق ليستدر عطف هولاكو الذى كان يميل للنصارى أرضاء لزوجه دوقوز .

وأما حديثه عن انتصار المصريين على جيش هولاكو فحديث المؤرخ المنصف فهو يثنى على خطة قطز ، وهو فى الوقت نفسه يصوّر قائد المغول ، كيتوبوقا ، قائدا شجاعا يؤثر القتال حتى الموت « فالموت مع العزة والشرف خير من الهرب مع الذل والهوان » ، ويهوّن على هولاكو فناء جيشه « وليتصور الملك أن نساء جنوده لم يحملن عاما واحدا » .

***

وسوف ننشر ماينجز من الـكتاب أولا بأول وفق الخطة التى ذكرناها .
ولا نشك فى أن العزم الصادق فى تحقيق الأهداف العليا للثقافة الذى تسير عليه وزارة الثقافة والإرشاد القومى خليق بأن يمكّن لنا ، أو لمن بعدنا ، تحقيق نشر تاريخ المغول عملا على استكمال حلقات التاريخ الإسلامى فى المكتبة العربية .

والله المستعان ؟

مايو ١٩٦٠ يحيى الخشاب

مقدمة كاترمير

ترجمة

محمد القصاص

أستاذ الدراسات السامية

كلية الآداب ، جامعة عين شمس

مراجعة

يحيى الخشاب

تقديم

عن حياة رشيد الدين ومؤلفاته

حرصت الأمم المتحضرة فى جميع العصور على أن يترك كل جيل منها للأجيال التى تعقبه صورة من حياة رجاله العظماء الذين امتازوا فى ميدان العلوم، أو الآداب ؛ إذ قد شعر الناس أن أبسط علامات الوفاء نحو عالم كرّس لياليه لتثقيف جيله والأجيال المقبلة أن يحيطوا اسمه بسياج يرد عنه غوائل النسيان ، ولكن إذا كان الرجل الذى جعلناه موضوعاً لبحثنا هذا لم يكتف بالكتابة والتأليف لسداد الدين الذى يدين به كل إنسان نحو المجتمع الذى هو عضو من أعضائه ، بل قام أيضا بوظائف هامة ، وحقق الثقة التى وضعها مليكه فى عنقه ، وإذا كان قد جمع إلى الثقافة والآداب مهامّ الإدارة الشاقة وتفاصيلها الشائكة ، وإذا كانت مؤلفاته الفائقة التى قد لا يشك القارئ فى أنها استغرقت منه كل حياته ، لم تكن إلا ثمرة لأوقات فراغه الحافلة ؛ فإنه يستحق أن يحيا حياة مضاعفة فى ذاكرة بنى الإنسان ، وأن يحصل على ذلك النوع من الشهرة الذى يؤهله له التاريخ الصادق النزيه لأعماله ومؤلفاته . فكل هذه النواحى من الفضل تجتمع فى شخص رشيد الدين .

عهد إليه برياسة الحكومة فى مملكة كبيرة ، وتولى الوزارة لثلاثة أمراء

متتابعين ، فعرف كيف يجمع بين الصفات التى تميز رجل السياسة ، و بين التبحر فى العلم والمعارف الذى يتميز به رجال الأدب . هذا إلى أنه قد أصابه حادث رفع من قدره فى نظرنا ؛ ففى اللحظة التى أوشك فيها على الوصول إلى خاتمة حياته العملية ، والتى كان يبدو فيها أن خدماته الطويلة ومؤلفاته العلمية قد ضمنت له شيخوخة كريمة ، واحتراماً من قبل الامبراطورية بأسرها ، حيكت حوله مؤامرة من مؤامرات القصور ؛ فهوت به من قمة عظمته ، وطاحت برأسه تحت آلة كان ينبغى ألا تصيب غير الجناة .

أليس إذن من العدل أن يغدق عليه من آيات التقدير مايعوضه بطريقة ما عن جحود معاصريه ؟ لذلك رأيت من واجبى أن أخصص بعض الصفحات لجمع الظروف الرئيسية التى أحاطت بحياته السياسية والأدبية ، وأردت أن أعبر بهذا القدر الضئيل من التقدير عن عرفانى بالجميل لذكرى كاتب لايعرفه إلا القليلون ؛ وقد اغترفت من كتبه معلومات كثيرة أفادتنى فى غالب الأحيان . ولما كان هذا الفصل على جانب من الطول فقد قسمته إلى قسمين ، سأعمل فى القسم الأول على رسم صورة لرشيد الدين باعتباره من رجال السياسة ، وعلى أن أتتبع أطوار حياته السياسية ، وسأتبع ذلك بملحق يحتوى على كل ما أمكننى جمعه عن حياة أولاده . أما القسم الثانى فينطوى على بعض التفاصيل المسهبة عن إنتاجه الأدبى .

القسم الأول

ولد فضل الله رشيد أو رشيد الدين بن عماد الدولة أبى الخير وحفيد موفق الدولة على فى مدينـة همدان التى كانت فى القديم تعرف باسم « إكباتان » . وأعرف أن حاجى خليفـة[1] ، وهو يستعرض مشاهير الرجال الذين كانت «تبريز» موطناً لهم قد جعل من بينهم رشيد الدين وابنه غياث الدين ، فلم يفطن الجغرافى التركى إلى هذه الحقيقة التى نقلها عن كاتب أقدم منه بكثير ، ولـكن تـكفى كلمـة واحدة لتفنيد هذه الدعوى ، وذلك أن مؤلفنا يذكر على رأس كل كتاب من كتبه نسبة « الهمدانى »[2] على أنها لقب له ، ولا ينسب لنفسه لقب التبريزى فى أى مكان . وأنا أعرف جيـداً أن هذه الحجـة قد لاتـكون وحدها دليلا قاطعاً ؛ إذ كثيراً مايحدث لدى الشرقيين ، ألاتدل الصفة المنتهية بياء النسبة والتى تضاف إلى اسم أحد الأشخاص ، على أنه من مواليد المدينة التى اشتقت هذه النسبة منها . ومن هذا القبيل أن المؤرخ الشهير عبد الرزاق يحمل لقب السمرقندى فى كل مكان ، مع أنه لم يولد فى سمرقند ، كما أخبرنا هو نفسه بذلك ، ولـكنه قضى فيها شطراً من حياته . غير أن هذه

---

(١) جهان نما ، طبع القسطنطينية ، ص ٣٨٢ .

(٢) ينص دولت شاه « تذكرة الشعراء » مخطوطة فارسية رقم ٢٥٠ ، ورقة ٨٢ وجه ، على أن أصل مؤلفنا من همدان « در أصل همدانست » ، ويضيف إلى ذلك قوله : إنه لا يوجد أى شىء يدل على أن هذا الـكاتب قد ولد فى مدينة أخرى من مدن فارس . (طبعت تذكرة الشعراء بعد ذلك) .

الحالة و بعض الحالات الأخرى التى نستطيع ذكر الكثير من أمثلتها لا يمكن فيما يبدو لى، أن تكون مقياساً للحالة الخاصة بكاتبنا. كما أننا لا نراه، يدّعى فى أى موضع من كتبه، أنه أقام فى همدان التى كانت من مدن الدرجة الثانية، والواقع أنه لو كان قد أقام فعلا فى تبريز لكان من العسير ألا يفخر بنسبته إليها، ولا سيما أنها كانت تعتبر فى عهد قازان خان عاصمة الامبراطورية المغولية فى فارس، وأن منصب الوزارة قد قضى عليه أن يعيش فيها سنين طويلة. فلو كانت هناك أسباب خاصة دفعته إلى الانتساب إلى همدان أصلا لكان فى وسعه — كما يفعل الكثير من كتاب الشرق — أن يضيف إلى اسمه لقبين يدل بأحدهما على المدينة التى ولد فيها و بالثانى على المدينة التى جعلها مقرّه المعتاد. هذا إلى أنه من السهل أن نستشف السبب الذى أدى إلى ذلك الخلط الذى نشير إليه: ذلك أنه لما كان رشيد الدين قد قضى جزءاً من حياته فى مدينة تبريز، وكان يبدى نحوها عطفاً ملحوظاً، كما زين أرجاءها بكثير من العمائر الفخمة، فقد جارى الجغرافى التركى ذلك المصدر القديم الذى اعتمد عليه دون تمحيص، واستنبط خطأ أن ذلك التفضيل لم يكن إلا نتيجة للتعلق الذى يشعر به كل إنسان نحو المكان الذى شهد ميلاده. ولكن إذا اعتبرنا أن تبريز كانت فى هذه الفترة، كما قلنا، عاصمة الامبراطورية المغولية فى فارس وأن قازان خان، ولى نعمة كاتبنا، كان شديد الحرص على تجميلها بالعمائر الفخمة والضواحى الرحبة، وأنه شيد فيها الضريح الذى أعده لاستقبال رفاته بعد مماته، فإننا ندرك بسهولة أن رشيد الدين المفعم بالإجلال لذكرى مليكه

اللامع الذى أغدق عليه كل آيات العطف والتقدير ، أراد أن يحتذى مثال سيده فى تجميل هذه العاصمة وأقام فيها ، هو الآخر ، ذلك الضريح الفخم الذى أعده ليكون مقرًّا لجثمانه بعد موته .

ويزعم أبو الغازى بهادر [1] أن رشيد الدين ولد فى قزوين ، ولكنه زعم لا يستحق المناقشة .

ويرد ذكر رشيد الدين [2] فى كتاب تاريخ « خطاى » المنسوب للبيضاوى ، والذى نشره أندريه ملر Anpré Muller ، حيث نرى مترجمه إلى اللاتينية يترجم إحدى الفقرات الفارسية [3] على نحو لو تناولناه بشىء من التصحيح الطفيف ، أمكننا ترجمتها هكذا : « يذكر رشيد الدين ، رواية عن بولاد تشنج سانج Poulap Tohing-sang وهذا الأخير ، كما سنرى فيما بعد ، كان شخصية عظيمة الأهمية ، وقد استقى منه مؤلفنا أقوم التفسيرات التى استغلها فى تأليف كتبه » .

لم أجد لدى أحد من المؤلفين الذين رجعت إليهم أية إشارة عن السنة التى ولد فيها رشيد الدين . ولكن يمكننا أن نحدد هذه الفترة بشىء من الدقة . فإن الصقاعى الذى أكمل « وفيات الأعيان لابن خلكان [4] »

---

(١) تاريخ التتار العام ص ٧٧

(٢) تاريخ « خطاى » Hist. Chataica ، النص الفارسى ، ص ٩

(٣) الترجمة اللاتينية ص ١٢

(٤) المخطوطة العربية رقم ٧٣٢ ، ورقة ٨٤ ظهر . (وهو فضل الله بن أبى الفخر الصقاعى النصرانى الكاتب المتوفى سنة ٧٢٦/١٣٢٥ - ٢٦ . والمخطوطة هى « تالى الوفيات » انظر : « المؤرخون الدمشقيون » للدكتور صلاح الدين المنجد ، القاهرة ١٩٥٦ .

يذكر أن رشيد الدين قدمات فى سن الثمانين . ونحن نعرف على وجه التحقيق أنه مات بسنة ٧١٨ هجرية (١٣١٨ ميلادية) . فإذا صح ماذكره الصقاعى ، استطعنا أن نجعل ميلاده فى سنة ٦٣٨ ﻫ (١٢٤٠ م) غير أن دعوى الصقاعى لا أساس لها من الدقة رغم استناده على أبى المحاسن [١] ؛ إذ أن رشيد الدين نفسه [٢] يحدثنا أنه كان سنة ٧٠٥ فى حوالى الستين من عمره . وهذه شهادة وثيقة ، إذ من العسير أن يتصدى شىء لتجريحها . وإذن فيمكننا أن نستنبط منها أنه ولد سنة ٦٤٥ ﻫ (١٢٤٧ م) .

يقرر الصقاعى [٣] أن رشيد الدين كان يهودى الأصل والدين . ولو لم يكن لهذه الدعوى من شاهد غير الصقاعى ، وهو جامع سطحى غير محقق . لما احتاجت منا إلى اهتمام يذكر ، ولكن رشيد الدين نفسه يصرح بأن أعداءه قد وجهوا إليه هذه التهمة بقصد تسوىء سمعته فى نظر المسلمين [٤] ، وأنهم راحوا ينشرونها ويحيطونها بكل ضروب الزخرف التى من شأنها أن تبهر الجماهير . ولو لم يكن من العبث التمادى فى البحث عن الأسباب التى أدت إلى هذه الوشاية ، لرجحنا أن من بين الحجج التى انتحلها حاسدو رشيد الدين ، دراسته الخاصة لعادات اليهود وتقاليدهم التى تدل على معرفته التامة بها . هذا إلى أنه يبدو لى من المستحيل القول بأن

(١) المنهل الصافى ، مجلد ٤ ورقة ٨٤ ظهر ، مخطوطة عربية رقم ٧٥٠

(٢) مجموعة رشيد ، مخطوطة عربية رقم ٣٥٦ ، ورقة ١٦٢ وجه .

(٣) مخطوطة عربية رقم ٧٣٢ ، ورقة ٨٣ وجه .

(٤) مخطوطة رقم ٣٥٦ ، ورقة ١٢٠ .

رشيد الدين كان يدين باليهودية أو حتى بأنه كان يهوديا اعتنق دين الإسلام . ويمكننا أن نقول نفس الشيء عن أبيه وعن جده ، لأنه يحرص على إعطائهما ألقابا لا تليق إلا بأشخاص مسلمين [١] . كما أنه ، هو نفسه ، يشهد شهادة قاطعة على شدة تمسك أبيه بالدين ، حين يتكلم عنه فى هذه العبارات[٢] « من المحقق المعروف لجميع ذوى المقام الذين يعتبرون فى أيامنا هـذه من عمـد الدين والدولة أن شهرة أبى ترجع أولا وقبـل كل شىء إلى طهارة أخلاقه وشـدة تمسكه بإسلامه . فقـد ظل السنين الطوال يتردد على مجالس العلماء ويختلط بالشيوخ والنساك وأشـد الناس تمسكا بدينهم ، وقد استمد منهم كثيرا من المعارف المفيدة » .

كذلك لا يمكن لتهمة اليهودية أن تصدق بالنسبة لجد مؤرخنا ، تشهد بذلك هـذه الفقرة التى نجدها فى تاريخ ميرخوند[٣] حينما استولى هولاكو على قلعة الموت ، حصن الإسماعيلين الرئيسى ، ورأى هناك ثلاثة من عظماء الرجال ، وهم ناصر الدين محمـد الطوسى ورئيس الدولة وموفق الدولة الهمدانى الذين كانوا يقيمون فى هذا المـكان بطبيعة الحال ؛ ولما اقتنع الأمير أن هؤلاء الرجال الأجلاء لا ينفـكون عن إظهار نواياهم السلمية ، أمر بإخراجهم من القلعة هم وجميع الأشخاص المتصلين بهم ، ثم ألحقهم بخدمته » . وليس موفق

---

(١) مخطوطة عربية رقم ٣٥٦ ، ورقة ١ .

(٢) المرجع السابق ، ورقة ١١٩ وجه

(٣) مخطوطة أتر Otter رقم ١١٥ ، الجزء الرابع ، ورقة ٥٩ وجه .
(يشير الى كتاب روضة الصفا ، وهو مطبوع الآن) .

الدولة هـذا إلا جد مؤرخنا لأبيه . وأعتقد أننا لا نخطئ حين نستنبط أن صديق ناصر الدين الطوسى ، والشخص الذى شاطره ثقة هولا كو وتقديره ، لم يكن يهوديا ، بل كان مسلما صادقا فى إسلامه متحمسا له .

ولـكن هل كان أسلاف رشيد الدين من اليهود الذين اعتنقوا الإسلام ؟ هـذا مايبدو لنا من المستحيل أن نقطع فيه برأى : ولـكنه لا يبدو لنا بعيدا عن الاحتمال كل البعـد . هـذا إلى أن ذلك الأصل اليهودى قد يفسر لنا تفسيرا مقبولا عناية مؤلفنا البارزة بتقصى عادات اليهود ومعرفتها ؛ لأن هـذا النوع من الاستطلاع نادر الوجود لدى كتاب المسلمين الذين كانوا يظهرون دائما نحو الأجانب بوجه عام ، واليهود بوجه خاص ، نوعا من ازدراء المتعالى ، و يضنون بوقتهم الثمين على إنفاقه دراسة الأخلاق والطقوس الخاصة بشعوب يعتبرونها من أهل الـكفر [١] . ومهما يكن من شىء ، فإننا نعلم من رشيد الدين نفسه [٢] أنه كان شديد التأثر بفضائل أبيه ، فأظهر منذ طفولته تمسكا شديداً بالدين ، وعكف على التفـكير فى قواعـد الدين الإسلامى وتطبيق قوانينه فى حياته العملية . وكان شديد التطلع إلى كشف غوامض القرآن [٣]

(١) لا ينبغى أن يؤخذ هذا الذى أقوله على إطلاقه ، فقد كان بعض الـكتاب المسلمين كالمسعودى وابن خلدون على علم تام بكل مايتعلق باليهود » وهناك مؤلف مشهود له أيضا بالدقة والنزاهة ، وهو البيرونى الذى نراه يتـكلم عن اليهود فى مؤلفه المسمى » كتاب الآثار (مخطوطة عربية فى مكتبة الأرسنال رقم ١٧ ، ورقة ١٧ ظهر) ليس فقط باعتباره رجلا درس النظم العبرية ، بل كان كثيرا مايذكر بعض النصوص العبرية مرسومة بالأحرف العربية . (يقصد كتاب الآثار الباقية من القرون الخالية ، وهو مطبوع)

(٢) مخطوطة عربية رقم ٣٥٦ ، ورقة ١١٩ وجه

(٣) المرجع السابق ورقة ٥٤ وجه و ١١٩ ظهر .

والنفاذ إلى ماتكنه آياته من الأسرار والمعانى العميقة ، فراح يتردد على مجامع العلماء وينصت إلى تعاليمهم بشغف منقطع النظيرة ويضيف ما يغترفه من أنوارهم إلى مايصل إليه بتأملاته الشخصية . وفى ذلك يقول : على هذا النحو كنت أستغل أوقات فراغى ، وذلك لأنى ألحقت بقصر السلاطين منذ شبابى الغض وشغلت بدقائق الإدارة ، وما فتئت الأعمال والرحلات تجرفنى فى غمرتها ، فلم يتوفر لى من الوقت ما يسمح لى بقراءة الكتب التى كان من شأنها أن تزودنى بتعليم متين ، وتمدنى بمعارف شتى فى مختلف فروع العلوم والآداب . وهكذا كان على أن أقنع بالبقاء غارقا فى جهلى الأول » . وينبغى لنا ألا نفهم هذا اللوم الذى يوجهه مؤلفنا إلى نفسه فهما حرفيا ، لأننا سنرى فيما بعد أنه لم يكن جاهلا بأية حال ، بل وسنلاحظ أنه كان يتحلى بالكثير من المعارف العميقة المتنوعة على السواء . ولعل هذا الحكم القاسى الذى يصدره على نفسه ليس ، فى حقيقة الأمر ، إلا طريقة مستورة للإعلاء من قدر نفسه ، ومما يرجح صدق هذا الظن أن مؤرخنا كثيرا ما يكرر ، فى نوع من التظاهر ، أنه لما لم يستطع قراءة المؤلفات التى كتبها المؤلفون من قبله فى تفسير القرآن ، فإنه لم يأخذ منها شيئا ، وأن كل ما قاله فى هذا الموضوع من ثمرات تفكيره الشخصى [١] .

كان رشيد الدين يحترف الطب . ولعل مهارته فى هذا العلم هى التى مهدت له السبيل إلى قصر سلاطين فارس المغوليين ، وكسبت له ودهم . ونحن نعلم

---

(١) مخطوطة عربية رقم ٣٥٦ ، ورقة ١١٩ ، ١٦٧ الخ .

منه أنه قضى جزءاً من حياته فى خدمة خان أباقا وخلفائه ، وأنهم كانوا جميعا يعاملونه بإجلال [١] ملحوظ . ولكن لايبدو أنه شغل وظائف هامة قبل عهد غازان خان الذى جلس على العرش سنة ٦٩٤ من الهجرة (١٢٩٥ م). فهذا الأمير الذى كان يعرف كيف يقدر ذوى الكفاءة ويجمع إلى الصفات العالية التى تميز العاهل كثيرا من المعارف الواسعة فى العلوم والآداب ، لم يلبث أن قدر رشيد الدين ، فجعله موضع ثقته ، وكثيرا ما كان يتناقش معه ، وبوجه خاص حول الدين الإسلامى والتفسير الصوفى لآيات القرآن [٢] . وبعد قليل أراد أن يقدم له دليلا قاطعا على الثقة التى شرفه بها ، وأن يكافئه على خدماته بأجلى الصور ، فرفعه إلى المنصب الأول فى الامبراطورية ، واختاره وزيرا له . وقد ولى رشيد الدين هذا المنصب بعد نكبة الوزير صدر الدين الزنجانى المسمى صدرجهان . وتكفى هذه القصة التى سأقصها ، رواية عن مؤلفنا نفسه ، للدلالة على عظيم التقدير الذى كان يتمتع به لدى غازان [٣] .

ظل رشيد الدين زمنا طويلا ، على صداقة متينة بصدر الدين ، فعمل بعض أعضاء المجلس الذين أثارت هذه الصلة حسدهم ، على فصمها بكل جهدهم

---

(١) المرجع السابق ، ورقة ٢١٠ وجه .

(٢) المرجع السابق ، ورقة ٢٥ ظهر ، ومخطوطة فارسية رقم ١٦٨ ، ورقة ٢٨٥ ظهر ووجه .

(٣) جامع التواريخ ، مخطوطة فارسية رقم ١٦٨ ، ورقة ٣٦٩ ظهر ووجه ، ميرخوند ، الجزء الخامس ، ورقة ١٠٣ ظهر ، خوندمير (حبيب السير وهو مطبوع الآن) ، مجلد ٣ ورقة ٤٩ ظهر .

فبدءوا بالسعاية لدى رشيد الدين بكل أنواع النميمة ، لكى يوغروا صدره على صديقه . ولما تيقنوا أنهم لن ينجحوا فى مسعاهم ، حولوا جهودهم شطر صدر الدين ، واستطاعوا بفضل أكاذيبهم أن يوحوا إليه بما أرادوا . ويبدو أن رشيد الدين لم يلاحظ التغير الذى طرأ على صدر الدين بالنسبة إليه ، حتى كان شهر جمادى من سنة ٦٩٧ حيث ذهب الوزير إلى غازان وقدم إليه اتهاما رسميا عند رشيد الدين . وحاول هذا الأخير أن يتكلم مدافعا عن نفسه ، ولكن غازان بين لصدر الدين مبلغ الجرم الذى ارتكبه باتهام رجل لم يستعمل إزاءه مثل هذه الوسيلة قط ؛ ثم قال لرشيد الدين « لا تدنس لسانك بالرد على هذه المفتريات ، وداوم على اتباع نفس المسلك الذى سلكته حتى هذه الساعة » .

وحينئذ اعترف صدر الدين ببراءة صديقه القديم ، واشتد غضبه على أولئك الذين رموه بالأكاذيب . ولكن اتفق أن قام قطب الدين ومعين الدين وبعض الأمراء الآخرين باتهام صدر الدين لدى السلطان بالاختلاس . فاعتقد صدر الدين أن هؤلاء لم يقوموا باتهامه إلا بأمر رشيد الدين وإغرائه ، وتحين الفرصة للانتقام منه . وفى شهر رجب من السنة نفسها ، كان السلطان قد نقل قصره إلى المكان المسمى « دلان ناؤر » على الضفة الأخرى من نهر كور (قورش) . وحدث أن كان الأمير كتلكشاه عائدا من جرجستان (جورجيا) ، فاشتبك مع صدر الدين فى نقاش حاد حول دخل هذا الإقليم ؛ فأحنق الوزير من هذا التأنيب وسعى فى الإساءة إلى الأمير لدى السلطان ،

إذ أخبره بأن سوء سلوك الضباط الذين تحت إمرة كتلكشاه قد جر الخراب على جرجستان . فأثار هذا الأمر غضب السلطان إلى حد أنه لم يدع فرصة تمر دون أن يظهر فيها للأمير سخطه عليه ورأى كتلكشاه أن يقابل صدر الدين و يسأله عمن وشى به لدى السلطان ، وأوغر صدره عليه إلى هذا الحد وأجابه صدر الدين بأن الطبيب رشيد الدين هو الذى فعل ذلك . وكان كتلكشاه خارجا من لدى السلطان يوم النوروز (أى رأس السنة) ، والتقى برشيد الدين مصادفة ، فاستوقفه وقال له : « لقد عشنا دائما معا على أحسن حال من المودة ، ولم يحدث بيننا مايمكن أن يغضب أحدا منا ضد الآخر ؛ فلماذا ، إذن ، سعيت إلى هلاكى لدى السلطان ؟ » وأجابه رشيد الدين بأنه لم ير منه قط مايمكن أن يكون موضعا للشكوى ، وأنه لذلك لم يفكر مطلقا فى اتهامه أمام السلطان ؛ ثم أضاف قائلا : « لابد أن تقول لى من الذى أبلغك هذا الخبر . و إلا أبلغت السلطان » . ولما لم يرد كتلكشاه أن يعترف له بشىء ذهب إلى غازان خان وأبلغه بما حدث . فاستدعى السلطان الأمير ، وألزمه صراحة أن يكشف له عمن سمع منه ذلك النبأ . واعترف كتلكشاه بأنه لم يقل إلا ماسمعه من صدر الدين . وحينئذ احتدم غضب السلطان وصاح قائلا : « لقد عملت كل مافى وسعى لأعلم هذا الرجل التزام السكينة والكف عن السعاية ، ولكنه غير قابل للإصلاح . وكان من جراء هذا الحادث أن ثارت ثائرة السلطان على صدر الدين ، وكان غير مستريح له من قبل . فأحاله

إلى المحاكمة أمام مجلس قضى عليه بالإعدام. وقسمت أعمال الوزير بين رشيد الدين وسعد الدين[١] . وقد تم هذا الاختيار فى غضون سنة ٦٩٧ هـ (١٢٩٧ ـ ٩٨) كما ورد فى « تاريخ گزيده » (التاريخ المختار[٢]). ولكن يبدو أن « تاريخ وصاف[٣] » يجعل وقوع هذا الحادث فى سنة ٦٩٩، وتبع ميرخوند هذا الرأى ؛ ولكن سلسلة الحوادث التى يوردها المؤلف ، لاتدع مجالا للشك فى أن ذلك يرجع إلى خطأ فى النسخ ، وأنه يتحتم علينا قراءة ٦٩٧ بدلا من ٦٩٩ .

فى سنة ٦٩٩[٤] (١٢٩٩ ـ ١٣٠٠) سار غازان خان على رأس حملة حربية إلى الشام ، واستولى على دمشق ، مما أدى إلى انتشار المغول حولها ومهاجمتهم الأماكن المجاورة لها وارتكابهم شتى الفظائع، جريا على عادتهم. فحاول الشيخ تقى الدين بن تيمية أن يصل إلى السلطان ويتوسط لديه فى أن يأمر بالكف عن هذه الكبائر . ولما لم يستطع المثول أمام السلطان بسبب انحراف صحته فى ذلك الحين ، توجه بطلبه إلى الوزيرين سعد الدين ورشيد الدين اللذين صرفاه بالحسنى دون أن يعطياه جوابا شافيا . وكان بعض الأمراء الآخرين الذين بدأ بتوجيه طلبه إليهم قد أخبروه أنه إذا أحاط علم السلطان

(١) تاريخ الهون Histoire des Huns ، مجلد ٤ ، ص ٢٧١ .
(٢) مخطوطة بروى رقم ٩ ، ورقة ١٩٨ ظهر . (وهو مطبوع الآن ، مؤلفه حمد الله مستوفى القزوينى)
(٣) المخطوطة فارسية بالمكتبة ، ورقة ٢٦٠ ظهر .
(٤) تاريخ مصر Histoire d' Egypte ، مخطوطة الأستاذ مارسل ، ورقة ٧٣ وجه .

بالفظائع التى يرتكبها المغول ، عاقبهم السلطان بكل صرامة ، وأن هـذا العقاب لابد أن يجر على سكان دمشق أبشع أنواع الانتقام .

وفى السنة التالية[1] ٧٠٠هـ(١٣٠٠ ـ ١٣٠١) دبرت دسيسة من دسائس القصر ضد الوزيرين . وذلك أن بعض الأشخاص الذين كانوا يشغلون مناصب هامة ، زعموا أنه أسىء إليهم ، أوسولت لهم أوهامهم وغرورهم أن فى استطاعتهم الوصول إلى مناصب أسمى من مناصبهم فحشدوا أحقادهم وحيلهم للإيقاع بالشخصيتين اللامعتين اللتين رأوا فى وجودهما عقبة فى سبيل تحقيق آمالهم . واستطاع أحدهم ، واسمه قطب الدين ، أن ينجح فى المثول أمام السلطان ، وأبدى له من مظاهر الحماس والنزاهة أسماها وأشدها تأثيرا فى النفوس ، ثم عرض عليه أن يكشف له باسمه واسم زملائه عن اختلاسات الوزيرين وسوء استغلالهما لأموال الدولة . ولكن غازان خان ذا الذهن المستنير لم يكن لينخدع بسهولة بتلك الخطب المصطنعة ، فلم يلبث أن فطن إلى أن الحسد والطمع هما الباعثان الخبيثان اللذان أمليا هـذا الاتهام . وبدلا من أن يعير تلك الأكاذيب أذنا مصغية، أسلم أصحابها لانتقام القانون. فحكم على اثنين منهم بالإعدام ، ولم يستطع محمود الذى يشغل منصب شيخ المشايخ ، أن ينجو بحياته إلا بفضل شفاعة بولوجان زوجة غازان المفضلة ، وإن كان السلطان لم يستجب لهذه الشفاعة إلا بذلك الشرط الصريح ، وهو ألا يعود محمود إلى الظهور فى القصر بأية حال .

(١) تاريخ وصاف ، ورقة ٣٢٤ ظهر ووجه ، ورقة ٣٢٥ (مطبوع الآن) .

وفى سنة ٧٠٢/ ١٣٠٢ ـ ١٣٠٣[1] لما قدم قازان خان لحصار مدينة الرحبة الواقعة على شاطئ الفرات ، صحبه رشيد الدين فى هذه الحملة لكى يترجم أوامره ورسائله إلى اللغة العربية . ولم يكتف السلطان بأن يمده بجميع المال اللازم لنفقات رحلته من جيبه الخاص ، بل أيضاً منحه بغلة من بغال اصطبلاته . كما أنه لم يترك مناسبة من المناسبات إلا أبدى له فيها آيات تقديره وإجلاله على رءوس الأشهاد . هذا إلى أنه أمر رشيد الدين أن يكتب باسمه خطاباً بالعربية ينذر فيه المحاصرين بالتسليم ، وألا يعرضوا أمتهم للخطر بدفاع غير مجد . فأحدث الخطاب أثره ، واستولى غازان خان على المكان دون قتال .

وفى أثناء وجود القصر المغولى فى مدينة عانه ، على شاطئ الفرات ، سنحت لرشيد الدين الفرصة لكى يعرف ويقدر أحد منافسيه فى الميدان الأدبى . فقد ألف كاتب فارسى اسمه عبد الله بن فضل الله كتاباً فى تاريخ الامبراطورية المغولية أسماه « تاريخ وصاف » ويحظى هذا الكتاب فى الشرق بأسمى مكان لأن المؤلف حشاه بوهج براق من الاستعارات الجريئة والمتنافرة فى بعض الأحيان ، ومن ضروب الجناس الغريبة وجميع أنواع المحسنات اللفظية المميزة لذلك الأسلوب الطنان الذى يعتبر مثال البلاغة العليا

---

(١) مخطوطة فارسية رقم ١٦٨ ا ، ورقة ٣٧٨ ظهر ، وقد طبع فى بمباى .

(٢ ــ جامع)

فى نظر القراء الآسيويين[1] . ولما أتم المؤلف جزءاً من كتابه ، أراد أن يهديه إلى غازان خان . فاستقبله العاهل فى يوم الأحد الثالث عشر من شهر رجب سنة ٧٠٢ ، حيث قدم له كتابه . وقابله الوزيران رشيد الدين وسعد الدين بحفاوة بالغة ، وأغدقا عليه آيات الثناء ، وأكدا له أنه يحظى منهما بأسمى إجلال وتقدير . وأخذ السلطان ، بدوره ، يتصفح الكتاب ويوجه إلى المؤلف أسئلة عديدة عن شتى الحوادث التى انطوى عليها هذا التاريخ . وأمر أن يكسى بغطاء من نسيج الذهب .

ولما كان السلطان قد شيد فى مدينة تبريز بعض العمائر الفاخرة ، ووقف على صيانتها حبوساً عقارية هائلة ، فقد عهد إلى رشيد الدين فى حجة صحيحة بإدارة هذه المؤسسة الفخمة والتصرف فى غلاتها[2] .

وبعد موت غازان خان ، جلس أخوه ألجايتو على عرشه ، فأبقى رشيد الدين فى منصب الوزارة بالاشتراك مع سعد الدين[3] . واحتفظ رشيد الدين لدى السلطان الجديد بنفس المكانة التى كانت له لدى سالفه . وقد تلقى برهاناً قاطعاً على ذلك ، لأنه لما اتخذ ألجايتو[4] كتلكشاه زوجة له ، اختار رشيد الدين لحضور حفلة الزواج باعتباره وكيلا للأميرة .

---

(١) مخطوطة المكتبة الملكية ، ورقة ٣١١ ظهر .
(٢) تاريخ وصاف ، المخطوطة الفارسية بالمكتبة الملكية ، ورقة ٢٩٣ وجه .
(٣) ذيل جامع التواريخ مخطوطة فارسية رقم ١٦٨ أ ورقة ٤٥٢ ظهر . (يقصد ذيل جامع التواريخ لحافظ ابرو ، وهو مطبوع)
(٤) المرجع السابق ، وجه .

ويجدر بي هنا ألا أغفل ذكر حادثة خاصة أوردها مؤلفنا [١]. فقد كان السلطان ، حتى جلوسه على العرش ، يحمل اسم « خدا بنده » أى عبد الله . وحين تتويجه ، اقترح عليه الأمراء أن يتخذ لقب ألجايتو ، ومعناه فى اللغة المغولية « مبارك » . وكان رشيد الدين الذى كان قد انتهى من تحرير مديح للسلطان ، قد خطرت له نفس هذه الفكرة بخصوص اسم الجايتو دون أن يكون قد اتصل بالأمراء . فلم ير بأسا من إعلان هذه الملاحظة . ولكيلا يظن أنه قد ادعى لنفسه هذا الأمر بعد وقوعه ، أمر بإحضار مسودة المديح التى كانت تحت يدى أحد كتابه ، و بين بطريقة لا تقبل الجدل حقيقة هذه المصادفة الفريدة .

وكذلك كان قد عهد إلى مؤلفنا بتربية إحدى بنات السلطان ، ولكن هذه الطفلة ماتت فى سن مبكرة [٢] .

ولما أنشأ ألجايتو مدينة السلطانية [٣] ، أقام فيها رشيد الدين ضاحية تضم حوالى ألف بيت . وكان من بين عمائرها مسجد فخم ، تحليه منارتان عظيمتان ، و ينتهى بمقصورة تشرف عليه . وكان فيها أيضا مدرسة ومستشفى وزاوية . وقد خصصت مبالغ ضخمة لدفع رواتب المدرسين والتلاميذ والأطباء . ونرى المؤلف الذى أكمل تاريخ رشيد الدين والذى عاش فى عهد شاه رخ يذكر

---

(١) مخطوطة عربية رقم ٣٥٦ ، ورقة ٢٠٨ وجه .

(٢) مخطوطة فارسية رقم ١٦٨ ا ورقة ٤٥٠ ظهر .

(٣) المرجع السابق ، ورقة ٤٥٣ ا ظهر ، وانظر أيضا ميرخوند ، جزء ٥ ، مخطوطة أوتر الفارسية .

صراحة أن جزءا من هـذه العمائر كان لا يزال قائما فى الوقت الذى كتب فيه كتابه .

وفى شهر رمضان[١] من سنة ٧٠٥ / ١٣٠٦ رغب نجيب الدولة و بعض الأطباء اليهود فى اعتناق الدين الإسلامى . فاقترح رشيد الدين على السلطان وسيلة أكيدة للتحقق مما إذا كان هؤلاء اليهود الذين يطلبون اعتناق الدين الإسلامى يفعلون ذلك عن عقيدة أم نفاقا . وكان هذا الاختبار ينحصر فى أن يقدم لهم شىء من لحم الإبل المغلى فى لبن رائب . وعلل ذلك بأن القانون الموسوى يحرم طبخ اللبن مع اللحم ، وأن اليهود يعتبرون لحم الإبل نجسا يحرم عليهم استعماله تحريما باتا . فأمر السلطان بإجراء هذا الاختبار على اليهود .

وفى هذا العام نفسه[٢] وفد على ألجايتو عاهل جيلان ليلتمس منه الرحمة ، فتوسط رشيد الدين فى مصلحته بكل قوة ، وحازت وساطتـه النجاح المأمول منها .

وفى السنة التالية[٣] ، صمم ألجايتو على محاربة إقليم جيلان . و بعـد أن أصدر الأوامر الخاصة بمسير الجنود ، ذهب إلى المـكان المسمى قنقر أولنج[٤] حيث ترك زوجاته وحاشيته . واتفق أن كانت السلطانة المفضلة الدزمش

(١) مخطوطة فارسية ، رقم ٦٨ أ ورقة ٤٥٣ أ وجه .

(٢) مخطوطة فارسية رقم ٦٨ أ ورقة ٤٥٦ وجه .

(٣) المجموعة الرشيدية ، مخطوطة عربية ، رقم ٣٥٦ ، ورقة ٢١٠ وجه ، ومخطوطة فارسية رقم ٦٨ أ ، ورقة ٤٨٤ ظهر .

(٤) اسم «قنقر أولنـك» معناه لدى المغول الأرض التى بنيت عليها السلطانية، ميرخوند ، جزء ٥ ورقة ٦٨ ظهر و ٨٩ وجـه ، مخطوطة فارسية ٦٨ أ ، ورقة ٤٥٣ وجه

مريضة فى ذلك الحين ، فأصدر السلطان أمره إلى رشيد الدين أن يبقى بجانبها حتى يتم لها الشفاء ، وأن يعمل كل ما فى وسعه ، بعد ذلك ، لـكى يلحق بالجيش . وفى هذه الأثناء حدث حادث غـير متوقع أوشك أن يغمر الأسرة المالـكة فى الحزن ، وذلك أن طيفور بن الجايتو الذى كان لا يزال حدثا كاد يلقى حتفه بصورة أليمة . وهـذه هى قصة الحادثة كما رواها لألجايتو بعض الأشخاص الملحقين بخدمته فى حضور النويان الأكبر ، بولاد أغا ، ورشيد الدين وبعض الأمراء الآخرين : فى الليلة السابقة وضعت شمعة موقدة فى المـكان الذى كان يعسكر فيه طيفور بجانب خيمته . ومن الراجح أن يكون أحد النائمين فى هذا المـكان قد دفع الشعلة بقدمه فسقطت على الخيمة التى شبت فيها النار فورا . وحدث أن استيقظ أحد الحراس بطريق المصادفة ، ولمح النار ، فألقى بنفسه فى وسطها . ولـكن النار كانت قد سدت باب الخيمة ، وحالت شدة اللهب دون الوصول إلى داخلها لانتشال المهد الذى ينام فيه الأمير الصغير . ومن جهة أخرى لم يكن فى الوقت فسحة لاستدعاء أى أحـد . فاجتذب الحارس الخيمة المشتعلة نحوه وضغطها بين ذراعيه ضغطا أدى إلى احتراق جزء كبير من جسمه . وفى هذه الأثناء استيقظ أحد زملائه ، وهرع إلى مساعدته ، ونجحا بمجهودهما مجتمعين فى إطفاء الحريق . ولو كان الأمر قد تأخر لحظة واحـدة لأصبحت الخيمة كومة من الرماد بكل ما تحتوى عليه ، وبجميع الأشخاص الذين حبستهم فيها النار . وأسرع رشيد الدين والأمراء الآخرون إلى السلطانة الذزمش يبلغونها

الخبر فابتهجت لنجاة الأمير الصغير من خطر محقق ، وحمدت الله كثيرا وأمرت بتوزيع صدقات جزيلة على الفقراء .

وفى أثناء الحملة على جيلان حدث فى نفس الوزير رشيد الدين شىء من الأمير مظفر الدين سعيد ، ولكن مندوب الوزير توسط فى الأمر ونجح فى إصلاح مابينهما [١] .

وفى شهر جمادى الثانية من سنة ٧٠٧ [٢] / ١٣٠٧ – ١٣٠٨ وصل إلى بغداد رسول يحمل أمرا بأن يرسل إلى القصر كل من الشيخ شهاب الدين السهروردى وجمال الدين العاقولى الذى اشتهر فى المدينة كلها بفقهه ، كما كان أستاذا لفقه الشافعية فى مدرسة المستنصر . وكان كلا الرجلين قد وشى بهما لدى السلطان ، حيث اتهما بالتواطؤ مع المصريين وإخبارهم بكل مايحدث فى الإمبراطورية المغولية . فلما وصلا إلى القصر ، أعلن رشيد الدين أنه حاميهما ، وبذل كل مافى وسعه لإظهار براءتهما . وبفضله رجع المتهمان إلى موطنهما بعد أن قضى لهما بالبراءة . وليس من الغريب أن يكون رشيد الدين قد بذل أقصى مجهود للنجاح فى هذه القصة . فإنه فضلا عن رغبته فى منع حكم جائر، وانتشال مسلمين شهيرين من براثن أعدائهما ، كان مدفوعا إلى الدفاع عنهما بعامل خاص آخر: فقد رأينا أن أحد هذين المتهمين كان أستاذا لفقه الشافعية . وكان رشيد الدين من أنصار هذا المذهب [٣] ، فلم يكن فى وسعه إلا أن يظهر أشد

---

(١) تاريخ گزيده ، مخطوطة بروى Bruix ، رقم ٩ ، ورقة ٢٠٧ ظهر ، وقد طبع هذا الكتاب .

(٢) مخطوطة فارسية رقم ٦٨ ا ، ورقة ٦٧ ٤ وجه .

(٣) مخطوطة فارسية رقم ٦٨ ا ، ورقة ٤٦٨ وجه .

العطف على أولئك الذين يشاركونه فى طريقة تفكيره. ولذلك كان يبذل كل جهده فى حماية أئمة الشافعية ورؤسائهم ، ويسعى بكل قلبه لصحبتهم والحديث معهم . ولكنه بالرغم من استهجانه لمزاعم أنصار أبى حنيفة المسرفة ، وبعدهم عن التسامح ، لم يكن يجرؤ على التصريح بازوراره منهم ، إذ أن ألجايتو كان قد اعتنق هذا المذهب منذ اعتناقه الإسلام ، فلم يكن من المعقول أن ينظر بعين الرضا إلى من ينقد مذهبه فى العلانية .

كانت تبريز ، فى عهد ملوك المغول فى فارس ، من الأماكن التى تقيم فيها الحاشية أغلب الأحيان (١) . ولذلك كانت فى نماء مستمر ، فقد أحاطها غازان بسور عظيم ، و بنى خارجها مدينة صغيرة ، وأقام فيها عمارة فخمة خصصها لضريحه . وحذا رشيد الدين حذوه ، فاختار مكانا يسمى « وليان كوه » يقع شرق تبريز ، وشيد فيه ضاحية تشبه أن تكون مدينة صغيرة وسماها باسمه «الربع الرشيدى» . وكانت هذه المدينة تضم طائفة من العمائر التى تمتاز باتساق وجمال عجيبين حقا ، حتى أن كتاب الشرق لم يترددوا فى القول بأن العالم أجمع لا يحتوى على أفخم منها (٢) . ومهما يكن فى هذا القول من مبالغة ، فإنه ، على الأقل ، يدل بصورة قاطعة على أن رشيد الدين لم يدخر جهدا ولا مالا

---

(١) جهان نما ، ص ٣٨٠ ، ورشيد الدين ، مخطوطة فارسية رقم ٦٨ ا وورقة ٣٦٩ ظهر ، هفت إقليم مخطوطة بروى Bruix ، رقم ١٧ ، وورقة ٣٦٥ ظهر ، ونزهة القلوب ، مخطوطة فارسية رقم ١٢٨ ص ١٠٥ .

(٢) جهان نما ، وانظر أيضا ذيل تاريخ رشيد الدين ، مخطوطة فارسية رقم ٦٨ ا ورقة ٤٧٠ وجه ، ودولت شاه ، تذكرة الشعراء ، مخطوطة فارسية رقم ٢٤٩ ، ورقة ١٠٥ ظهر .

لـكى يترك للخلف أثرا يليق بمقامه . وقد نقشت على بابها هـذه العبارة « إن هدم مثل هـذا البناء أشق من إقامة بناء آخر أيا كان » . ولم يكتف رشيد الدين بهـذا العمل ذى النفقات الباهظة ، فحرص على توفير الراحـة لسكان الحى الجديد ، بأن أمده بالماء من نهر يسمى « بَرَدْرُود » كان قبل هذه الفترة يجرى بجوار تبريز دون جدوى[1] . ومن أجل هذا الغرض قام فى سنة ٧١٠/١٣١٠–١٣١١ بإنفاق الأموال الطائلة فى إنشاء قناة منقورة فى الصخر تجتاز جبل « سرخاب » ثم تعبر السفوح والوديان حتى تصل إلى الضاحية التى تـكلمنا عنها .

إن مثل هذه الأعمال التى لو صدرت عن ملك لـكانت من آيات فخره، لا يكاد يصدقها المرء حين يعرف أنها تمت بأمر فرد من الأفراد و بأمواله . ولـكن رشـيد الدين قضى خمسين عاماً فى حاشية سلاطين المغول ، واحتل المـكان الأول فى الامبراطورية لفترة طويلة ، وحاز رضاء سادته الذين راحوا يغدقون عليه النعم ، كما لو كانوا يتنافسون فى ذلك فيما بينهم ، ولذلك استطاع أن يكون ثروة شاسعة كان يحلو له أن ينفقها بلا حساب على مشروعات نافعة ومؤسسات دينية . و يكفى أن نذكر هذه الحادثة العابرة لـكى يدرك القارئ مقدار الجود الذى اتصف به الأمراء الذين عمل فى خدمتهم . يحـكى مؤلف مسالك الأبصار[2] رواية عن الشيخ محمود الإصفهانى أنه لما قدم رشيد الدين

---

(١) مخطوطة فارسية رقم ٦٨ ا ، ورقة ٤٧٠ ، ظهر ووجه .
(٢) مخطوطة عربية رقم ٥٨٣ ، ورقة ٩٣ وجه ، وقد طبع هذا الـكتاب .

أحد كتبه إلى خدابنده أو ألجايتو ، قال له : « لما قدم أرسطو كتاباً من تأليفه إلى الإسكندر ، تلقى منه عطية مقدارها ألف ألف قطعة من الذهب . وإن أميراً فى عظمتك ليرى أنه لايليق بمقامه ألا يضارع الإسكندر فى كرمه » .
وأراد السلطان أن يجيب على هذا النوع من التحدى ، وأن يكافئ الوزير بصورة تليق بكليهما ، فأقطعه ضياعاً تبلغ قيمتها ثلاثة أمثال المبلغ المشار إليه ، وكانت كل هذه الضياع فى الفترة التى كتب فيها المؤرخ المذكور كتابه ، أى حوالى سنة ٧٣٠/١٣٢٩ــ ١٣٣٠ لا تزال فى حوزة أولاد رشيد الدين .

هذا وإذا كنت قد ذكرت هنا تلك القصة التى تتعلق بأرسطو والإسكندر ، فإنى لم أرد بأية حال أن أدعى صدقها ، بل إنى أعتقد أنها مزيفة من أساسها ، ولكنى اضطررت إلى ترجمة النص الذى أمامى ترجمة صحيحة .

والذى لاشك فيه أن رشيد الدين تلقى من ألجايتو مبالغ لا تحصى ، بعضها أرض وبعضها عطايا أخرى ، ويشهد هو نفسه بأنه لم يحدث قط أن أظهر ملك نحو أحد رعاياه مثل هذا السخاء الشاسع[1] . وإذا كان رشيد الدين قد كرس مبالغ طائلة للعمائر التى تتسم بسمة الدين والإحسان ، فإنه لم يبد أى تقصير بالنسبة للأعمال الأخرى ذات المنفعة العامة أيضاً ، مادامت تضمن له مجداً خالداً . والواقع أن رشيد الدين قد أنفق ، كما يخبرنا مؤلف « تاريخ

---

(١) مخطوطة عربية رقم ٣٥٦ ، ورقة ٢١٣ ظهر .

وصاف » والمؤرخ[1] ميرخوند ستين ألف دينار على نسخ كتبه وتجليدها وتزويدها بالصور والخرائط .

وإذا كان مؤلفنا قد عرف كيف يستغل ثروته الطائلة فى أنبل الوجوه ، فإنه أيضاً كان شديد العناية بتحقيق الالتزامات التى يفرضها عليه منصبه ، ولم يحاول قط أن يسىء استغلال المكانة التى كان يتمتع بها لدى ملوكه . . وهو نفسه يشهد لنفسه بأنه دأب طوال الوقت الذى قضاه فى القصر على حماية ذوى الفضل ، ومنع الظلم ، والدفاع عن الضعفاء والمضطهدين[2] . لذلك نرى الكتاب الشرقيين الذين سنحت لهم فرصة الكلام عن رشيد الدين يكيلون له أطيب الثناء ، ويجمعون على أنه كان وزيراً كفؤاً يجمع بين معارف أرسطو وحكمة أفلاطون[3] . وقد أضفوا عليه كل صفات المديح والتفخيم التى لابد أن يكون مبعثها إما الملق وإما الرغبة فى إنصاف أسمى كفاءة رأوها . ولا شك أن هذه العبارات كانت تصبح ، بحق ، موضعاً للريبة لو لم توجد إلا فى « تاريخ وصاف» وغيره من كتب المؤلفين المعاصرين الذين قد تضطرهم حياتهم فى قصر ملوك المغول إلى تملق الوزير واجتذاب عطفه . ولكننا نجد مثل تلك العبارات أيضاً لدى مؤرخين آخرين ، أمثال ميرخوند وخوند مير ودولت شاه ، الذين

---

(١) مخطوطة أوتر الفارسية ، رقم ١١٥ ، ورقة ١١٣ .

(٢) مخطوطة عربية رقم ٣٥٦ ، ورقة ١١٩ وجه .

(٣) ميرخوند ، مخطوطة أوتر الفارسية رقم ١١٥ ، ورقة ١١٣ ، وخوندمير ، حبيب السير مجلد ٣ ورقة ٤٥ وجه ، ورقة ٦١ ظهر ، وقد طبع هذا الكتاب ، ودولت شاه ، وتاريخ وصاف ، مخطوطة بروويكس الفارسية ، ورقم ٩ ، ورقة ٢ ظهر .

عاشوا بعد رشيد الدين بقرنين من الزمان ؛ ولذلك لم يكن لهم مايدفعهم إلى تزييف الحقيقة وإغداق ضروب الثناء على شخص لا يستطيعون أن ينتظروا منه مصلحة شخصية ، فلابد ، إذن ، من افتراض أن كلامهم لم يكن إلا صورة صادقة للفكرة التى كونها المعاصرون عن مواهب مؤلفنا وكفاءته ؛ وأن ذكرى صفاته الجيدة استمرت تنتقل من جيل إلى جيل ، بالرغم من كل الجهود التى بذلها حساد هذا الوزير لتبغيضه إلى نفوس المسلمين .

ومع ذلك فإن رشيد الدين لم يكن يتمتع بسعادة صافية ، بالرغم من بلوغه قمة المجد والجاه والثروة ، وذلك أن بعض الأعداء المستترين المدفوعين بعامل الحسد الذى تثيره عادة الكفاءة النادرة إذا انضم إليها سمو المكانة ، دأبوا يعملون فى الخفاء على الإيقاع به ، وعبأوا ، لهذا الغرض ، قوى الكذب والنميمة، وقد تشكى هو نفسه فى كتبه من شخص مغولى اسمه «هركودالك»[1] ومن آخرين كانوا يعملون للإضرار به ، بالرغم من أنه لم يصبهم قط إلا بالخير[2] . وفى نفس الوقت أخذ شخص لم يذكر اسمه يهاجمه فى نقطة حساسة ، ويسعى إلى الغض منه فى أذهان المسلمين ، ويتهمه أمامهم بالإلحاد ؛ ولكن من الخير أن نؤجل الكلام فى هذه القصة ومايحيط بها من ظروف حتى تحتل مكانها فى الجزء الثانى من هذه المذكرة .

---

(١) لعب هذا الأمير دورا لامعا فى بلاط الأمراء المغول فى فارس ، وبعد ذلك أعدم بأمر السلطان ألجايتو (ميرخوند ، جـ ٥ ، ورقة ١٠٩ ظهر) .

(٢) مخطوطة عربية رقم ٣٥٦ ، ورقة ١٦٣ وجه .

وفى سنة ٧١١[1] / ١٣١١-١٣١٢ بدأ سعد الدين الساوجى ، نسبة إلى مدينة ساوه ، وكان يحتل منصب الوزير بالاشتراك مع رشيد الدين ، بدأ يفقد المركز الذى كان يتمتع به فى القصر . وكان أول خطأ له أنه أثار ضده منافساً موفقاً حاذقاً ، فلم يلبث أن استولى على مكانه وجنى ثمار سقوطه . وكان هذا الرجل الخاتل ، الذى أودت دسائسه برشيد الدين أيضاً فيما بعد ، يسمى على شاه جيلان . وقد كان فى شبابه يمتهن تجارة الأحجار الكريمة والنسيج و بعض السلع الأخرى ، مما ساعده على معرفة كثير من الشخصيات الهامة واكتساب مودتها . وقدم إلى السلطان ألجايتو الذى لم يلبث أن أعجب بنشاطه ومضاء روحه وكفاءته وشمائله الجذابة . فانزعج الوزير من ذلك النجم الصاعد ، وأراد أن يبعد هذا المنافس الخطير من القصر بأى ثمن ، فعمل على تعيينه مديراً للكارخانة[2] ، (دار الصناعة) ، التى كان مقرها مدينة بغداد. وانطلق على شاه إلى هذه المدينة ، حيث أظهر فى عمله الجديد ذكاء نادراً ، وأدخل فيه كثيراً من ضروب التحسين النافعة ، ونجح فى إنتاج أنواع من النسيج ذات جمال أخاذ . ولما وصل السلطان إلى العراق ، قدم له على شاه سفينة تلفت الأنظار بزخرفتها وضخامتها ، وعدداً من الثياب الفاخرة ، و بعض الأشياء الثمينة الأخرى ، فسر السلطان لهذه العناية ، ومنذ ذلك الحين زاد من

---

(١) مخطوطة فارسية رقم ٦٨ ا ، ورقة ٤٧١ ظهر ووجه .

(٢) نستطيع أن نرى بصدد هذه الكلمة رحلات بيترودلافاله Pietro della valle، مجلد ٣ ، ص ١٤٢ ؛ وكذلك رحلات فى الشرق الأوسط ، Voyages au Levant للرحالة تيفنو Thévenot .

عطفه على على شاه ؛ فلم يعد هذا الأخير يغادر القصر ، حيث أخذت مكانته في الارتفاع يوماً بعد يوم ، وصار كل مايعمله موضعاً لرضاء السلطان . ولم يكد على شاه يصل إلى السلطانية حتى أنشأ فيها عمائر أجمل وأمتن من كل ماشيد فيها حتى ذلك الحين ، ومنها سوق فخمة خصصت منذ هذه اللحظة لإقامة تجار النسيج . ولما كان ألجايتو هو الذى أنشأ مدينة السلطانية ، فإنه كان يهتم بتوسيعها وتجميلها ، ولذلك نظر بعين الرضاء التام إلى النفقات التى بذلها على شاه من أجل هذا الغرض ، وراح يظهر له هذا الرضا فى آيات بينات من التقدير والتكريم . ورأى سعد الدين أن نجمه يأفل بسرعة ، فلم يستطع إلا النظر إلى صعود النجم الجديد فى غل صامت . وأخذ يظهر لعلى شاه الاحتقار العميق ، ويمتنع عن القيام له عند دخوله ، ويتحين كل فرصة ليبدى له فيها أنه لا يكن له أى احترام أو اهتمام .

وعلى العكس من ذلك كان رشيد الدين ، فإنه لما رأى عطف السلطان على هذا الرجل ، أخذ يعامله بكل إجلال ويتحين جميع الفرص لإطرائه وكيل المدح له . وكان هذا المسلك يروق السلطان إلى أقصى حد ، ولكنه أدى إلى الفرقة بين الوزيرين اللذين صارا منذ هذه اللحظة ، عدوين لدودين . وحدث فى هذه الأثناء أن دعا على شاه ألجايتو لتناول العشاء ، وقدم له مأدبة لم يتأت لوزير من قبل أن يقدم مثلها لسلطان . وفيها تلقى السلطان والأمراء وأعضاء المجلس هدايا ، كل بما يتناسب مع مقامه . ووضعت أمام رشيد الدين

ثلاثة أثواب قيمة ، ومثلهـا أيام سعد الدين ، وكان هذا الأخير قد أفرط في الشراب ، فسأل بكثير من الحدة عن السبب الذي من أجله قدمت الهدية لرشيد الدين قبل أن تقدم إليه هديته ، مما أدى إلى نقاش طويل بين الوزيرين . وأخذ سعد الدين الذي منعه السكر من تملك نفسه يعلن عن غضبه بأحاديث فيها من الشتائم ما لم يتفوه بمثلها قبل هذه اللحظة . أما رشيد الدين فلم ينبس بكلمة واحدة . وقد حمد له السلطان هـذا الصمت ، وسخط على عبارات سعد الدين أشد السخط . ولم يكن سخط رشيد الدين على زميله بأقل من ذلك [1] ، فلم يلبث أن وشى به إلى السلطان ، مما جعله يدفع حياته ثمنـا لاختلاساته الحقيقية أو المزعومة . واختير على شاه ليحـل محل الوزير . وكان رشيد الدين هو الذي رجا السلطان في أن يجعل على شاه [2] زميلا له ، وسنرى مقدار الندم الذي لابد أن يكون قد حل به من جراء قصر نظره هذا .

بعد ذلك بزمن قصير [3] ، استطاع اليهودي نجيب الدولة الذي ورد ذكره فيما سبق ، وهو رجل شرير غادر ، أن يضم حوله يهوديا آخر ببـذل الوعود له ، ويحمله على أن يكتب خطابا بالحروف العبرية باسم رشيد الدين . وكان الخطاب موجها إلى تاجر جواهر يقوم مقام المندوب وموضع الثقة لأحد أمراء الدرجة الأولى . وفيه يلح رشيد الدين على هذا الرجل بأن يدس السم للسلطـان . وقد دبر الأمر بحيث وقعت هـذه الورقة في يد الأمير لؤلؤ الذي

---

(١) مخطوطة فارسية رقم ٦٨ ا ، وورقة ٤٧٢ ظهر .

(٢) تاريخ وصاف ، ورقة ٤٢٧ وجه و ٤٢٨ ظهر .

(٣) مخطوطة فارسية رقم ٦٨ ا ، وورقة ٤٧٢ .

سلمها لألجايتو . ولم يكد السلطان يقرؤها ، حتى استبد به الغضب ، وأمر باستدعاء رشيد الدين من فوره ، وقام باستجوابه . فطلب الوزير من السلطان أن يمهله ثلاثة أيام. وأخذ ينقب، و يجرى جميع التحقيقات الضرورية، للكشف عن مدبرى المؤامرة .وقام الأمير كتابغا باستدعاء الأمير محمود الذى كان يعمل دواتدار لسعد الدين ، وسأله أن يدلى إليه بمعلوماته عن الخطاب ، فأكد له محمود أن الذى كتبه هو اليهودى الفلانى بإيعاز من الوزير سعد الدين و بقصد الإيقاع برشيد الدين . وفى اليوم الثالث مثل رشيد الدين أمام السلطان،وأخبره بما علم ، وأحضر له الأمير محمود الذى عضد شهادة الوزير . وفى الحال استدعى اليهودى الذى اعترف فى حضرة السلطان بأنه هو الذى كتب الخطاب بإيعاز من سعد الدين الذى كان يقصد الإيقاع برشيد الدين . فاقتنع السلطان بصدق الواقعة وأمر بقتل اليهودى ، فنفذ فيه القتل فى الحال. و بعد ذلك بزمن وجيز طبق هذا الحكم نفسه على محمد زركر ، ابن أخت سعد الدين ، و بعض الأمراء الآخرين ، لشهادة اليهودى بأنهم جميعاً كانوا شركاء فى تلك المؤامره الشنيعة .

أدت هذه الحوادث المؤسفة إلى حادثة أخرى لم يكن لنا أن نسجلها فى هذا التقديم ، لو لم تتخذ ذريعة لاتهام آخر ، لو صح،لأدى إلى تشويه ذكرى رشيد الدين وجعل اسمه ، بحق ، من أشنع الأسماء . وذلك أنه كان فى بغداد « سيد » ، أى شخص من سلالة على ، اسمه تاج الدين أبو الفضل محمد . وقد

بدأ هذا الرجل بالقيام بوظيفة واعظ . واستطاع بهذه الصفة أن يكسب تقدير السلطان ألجايتو ، فرقاه إلى ذلك المنصب السامى ، منصب نقيب الأشراف ـ (سلالة على) ـ الذين كانوا منتشرين فى العراق والرى وخراسان ، أى فى جميع أنحاء الامبراطورية المغولية . وإذا صح ما يقوله أحد المؤرخين [١] ، فإن تاج الدين هذا كان قد أثار حفيظة الوزير رشيد الدين ، إذ يقول : « هنالك على مقربة من شواطىء الفرات ، بين الحلة والكوفة ، قرية تذكر الروايات أن النبى حزقيال مدفون بها . وقد أبدى اليهود دائماً تقديسهم الشديد لهذا الضريح ، فكانوا يحجون إليه ، ويحملون الصدقات الوافرة . فحرم النقيب عليهم الاقتراب من هذه القرية ، وشيد فى رحبة المشهد منبرا ، وجعل يقيم فيها صلاة الجمعة » . وتأثر رشيد الدين لهذا التعنت غير المتوقع . ويقول الكاتب نفسه إن الوزير كان يحسد تاج الدين على منزلته لدى السلطان ألجايتو ويتحين الفرص للإيقاع به باعتباره منافسا بغيضا له . ويذكر أيضاً أن السيد شمس الدين ابن تاج الدين كان يشغل وظيفة نقيب العلويين فى العراق . وكان هذا الرجل يسىء استغلال سلطته ويرتكب الكثير من أعمال العنف والطغيان ، مما بغض فيه سادة العراق . وأراد رشيد الدين أن يستغل هذا الظرف ، فاستمال إليه عددا ما من الأشراف ورفع إلى مسامع السلطان طائفة من الإشاعات البغيضة التى من شأنها أن تحط من قدر تاج الدين وأولاده . واهتز السلطان لهذه الإشاعات اليومية ، واستشار رشيد الدين الذى أشار عليه بترك محاكمة

(١) عمدة الطالب ، مخطوطة عربية رقم ٦٣٦ ، ورقة ٢١٠ ظهر ووجه .

تاج الدين « لأبناء على » أنفسهم ، حتى لايكون الحكم الذى يقضون به موضعاً للشكوى ولا مشكوكا فى تحيزه ضد المتهم . وفى الوقت نفسه استدعى الوزير طاهر جلال الدين الذى عرف عنه العنف وحب إراقة الدماء ، وأمره بأن يقتل تاج الدين وولديه ، على أن يكافئه على ذلك بأن يسند إليه مناصب نقيب العراق وقاضيها وصدرها . ولكن الرجل فزع من ارتكاب هذه الجريمة ، وأعلن فى صراحة حاسمة أن لايقبل مطلقا أن يغتال شخصا من سلالة على . ولم تمض الليلة نفسها ، حتى كان قد فر راجعا إلى الحلة . وتقدم الوزير بنفس العرض ونفس الجزاء إلى علوى آخر ، فلم ينجح أيضاً . وحينئذ اتجه إلى ثالث من ذرية على ، اسمه تاج الدين إبراهيم بن مختار ، وكان قد قربه إليه وغمره بنعمه ، فأصبح متفانيا فى خدمته . وبعد أن وعده بتوليته منصب نقيب العراق ، وضع بين يديه السيد تاج الدين وولديه شمس الدين حسين وشرف الدين على . فاقتادهم هذا الرجل إلى شاطىء دجلة ، وأمر أتباعه يذبحهم . وقد ذبح الولدان قبل أبيهما ، بناء على أمر الوزير، إمعانا فى القسوة .

وقعت هذه الحادثة فى شهر ذى القعدة من سنة ٧٠٠هـ (١٣٠٠/١٣٠١ م) وقد انتقم عوام بغداد والحنابلة من هذا السيد أشنع انتقام ، فقطعوا جسمه إربا ، والتهموا أشلاءه ، وانتزعوا شعره ، وكانت تباع الشعرة من لحيته بقطعة من الذهب . وثار السلطان لهذا الفعل الوحشى ، وحزن حزنا شديداً على مقتل تاج الدين وولديه . ولكن رشيد الدين أقنعه بأن هذا الموت كان برضاء جميع

أهل البيت فى العراق . وأراد السلطان تعليق قاضى الحنابلة فى حبل المشنقة ، ولكنه رضى أن يعفو عن حياته استجابة لرجاء بعض ذوى المقام ، غير أنه أمر بأن يركب حمارا أعمى ، ويجعل وجهه نحو ذيله ، ثم يطاف به فى شوارع المدينة وميادينها . وقرر ألا يكون للحنابلة قاض فى المستقبل .

هذه هى القصة التى يقدمها لنا مؤرخ آل على ، وقد أردنا أن نوردها بتمامها . ولكنها تنطوى على عدد من السمات التى تثير الريب فى صدقها . وأولها أن المؤلف لم يشهد الوقائع التى يرويها . فمن السهل ، إذن ، أن يكون قد خدع بروايات تنقصها الأمانة . كما أننا لم نر أحدا من الكتاب يصور رشيد الدين بصورة الرجل القاسى السفاك ، بل نراهم ، على العكس من ذلك ، يتفقون على أنه كان يجمع إلى ما لديه من الصفات الجليلة ؛ الاتصاف بالطيبة والعذوبة والسخاء . فمن البعيد عن الاحتمال ، إذن ، أن يكون قد بيّت هذا الاغتيال الشنيع ليشفى فى نفسه ذلك الحقد البسيط ، وللتخلص من منافس أظهر السلطان نحوه شيئاً من الكرم والاحترام ، ولاسيما أنه كان من الممكن أن تجر عليه هذه الجريمة نكال السلطان ، وأن تلطخ ذكراه بعار لا ينمحى . هذا إلى أن المؤرخ نفسه يذكر أن رشيد الدين كان قد تعهد أمام السلطان بأن يوكل كل محاكمة النقيب إلى آل على . فكيف يحنث فى وعده ، ويجرؤ على الاستعاضة عن الطرق القانونية باغتيال يرتكب دون قضية أو محاكمة ؟ فإذا كان قد بلغت به الوحشية إلى حد أن يلجأ فى شفاء أحقاده إلى سيوف القتلة الأجراء ، إذا كان قد أراد تنفيذ مثل هذا الفعل الذى يهدر كل قواعد

العدالة والإنسانية على أشنع صورة ، فإنه لم يكن لتبلغ به الجرأة إلى حد أن يفعل فعلته فى وضح النهار ، وتحت بصر سكان مدينة شاسعة بأسرهم .

ويحق لنا أن نتساءل : لماذا أصر الوزير الذى لابد أن يكون له أتباع متفانون فى الإخلاص له ، على أن يعهد بهذه الرسالة البغيضة إلى أحد العلويين ؟ لاشك أن من الإمعان الغريب فى الوحشية أن يصر رشيد الدين على إلزام عضو من أسرة رفيعة على أن يلوث يديه بدم أحد أقربائه . كما أنه مما يعرضه إلى أشد أنواع الخطر ، دون جدوى ، أن يبوح بسر من هذا القبيل إلى أشخاص قد يثيرهم هذا العرض ، وينتهزون فرصة بلوغهم مأمنهم ليكشفوا عن تلك المؤامرة الإجرامية . هذا إلى أنه إذا كان رشيد الدين يشغل منصب الوزير فى ذلك الوقت ، فقد كان إلى جانبه قضاة وفقهاء وشخصيات أخرى من ذوى المقامات العليا . وكان من المحتمل جدا ألا يرضى هؤلاء الرجال الأجلاء بالاشتراك فى جريمة اغتيال دنىء من هذا القبيل من أجل شفاء أحقاد الوزير . وكل الظروف التى يقال إنها أحاطت بموت تاج الدين تحمل فى نفسها طابع المجافاة التامة للواقع . فما لا يمكن تصديقه بأية حال ، أن يكون شعب بغداد قد شهد مقتل عضو بارز من آل محمد ، ثم تبلغ به الوحشية أن يقطع جسمه إربا ويلتهم لحمه ، وهو لا يزال ينبض بالحياة ؛ ثم يبتاع شعر لحيته بسعر الذهب . نعم ، إن تاريخ الشعوب كلها قد لا يخلو ، بكل أسف ، من ضروب الإسراف التى من هذا القبيل ، ومع ذلك فلابد أن يكون هناك من

الوقائع الممكنة الوقوع عقلا ، سواء أكانت صحيحة أم زائفة ، مايثير الغضب الشعبي إلى أقصى درجاته . ولكن القصة التى ذكرناها لا تنطوى على شىء يمكن أن يفسر هذه الوحشية التى لا يتصورها عقل . فإن البغض الذى يفرق بين الشيعيين والسنيين ، لا يكفى أن يكون سببا لهذه الأفعال البشعة . فالتاريخ يحدثنا عن مخاصمات عنيفة وقعت بين الفريقين ، ولكن دون أن تؤدى واحدة منها إلى أحداث تتسم بتلك الوحشية الدنيئة . وإذن ، فمن المحتمل جدا أن يكون النقيب تاج الدين قد جر على نفسه السخط الشديد بارتكابه أعمالا إجرامية ، وأن تكون العدالة هى التى قضت بموته ، وألا يكون رشيد الدين قد عجز عن تخليص المتهم من العقاب الذى حكم عليه به حتى لو أراد أن يخلصه منه . ومن السهل أن نعتقد بأن آل على قد ساءهم وجرح كبرياءهم أن رأوا رئيسهم يقع تحت طائلة القانون ، فأشاعوا أن موته لم يكن قصاصا للعدالة ، بل أثرا من آثار الطغيان ، ونتيجة لحسد رجل من ذوى السلطان وحقده . وأغلب الظن أن هذه الشائعات التى أطلقت فى حياة رشيد الدين بشىء من الحذر ، تمكنت من الانتشار دون عائق بعد أن حان حينه ، وراح ضحية لمؤامرة دنيئة دبرها له أعداؤه ؛ وأصبح من اليسير تصور هذا الموت الأليم على أنه عقاب من السماء التى لم ترد أن تترك ذلك العمل الوحشى الذى راح ضحيته أحد أقرباء الرسول دون انتقام .

ونعتقد أن لدينا شهادة لها قيمتها تعضد هذا الرأى الذى لا يتجافى مع

العقل ، فإن أحد الكتاب الصادقين المثقفين ، وهو مؤلف « تاريخ وصاف » الذى عاصر رشيد الدين ، وكان بين رجال الحاشية فى الوقت الذى مات فيه النقيب تاج الدين ، يروى لنا قصة ذلك الحادث المؤسف فى العبارات التالية [١] .

« فى يوم الاثنين غرة ذى الحجة من سنة ٧١١ (١٣١١ — ١٢) قام كبار الأمراء والوزراء فى حضرة قاضى القضاة وعدد كبير من الأئمة والسادة بتكوين محكمة لمحاكمة السيد تاج الدين ، لاتهامه بارتكاب عدد من الجرائم التى تكفى لحرمانه من الحقوق المخولة لأصله الكريم . إذ أخذ عليه أنه استخدم طرق العنف والاختلاس فى الاستيلاء على مبلغ يزيد على ثلثمائة ألف قطعة ذهبية مملوكة لآل البيت أو لأشخاص آخرين ، وأنه كان يعمل دائما على إغراء زوجات آل على ، وأنه ارتكب جرائم قتل عديدة ؛ وبالاختصار أخذ عليه ارتكاب جرائم مختلفة يطول بنا المقام لو ذكرناها هنا بالتفصيل . ولما ثبتت على تاج الدين تلك التهم ، أسلم بأمر من السلطان إلى آل بيت على ، الذين وكل إليهم أن ينفذوا فيه العقاب الذى يستحقه . فابتهج آل البيت لهذا القرار ، واقتادوه إلى شاطىء دجلة (بركنارهء شط) [٢] ، حيث انهالوا

(١) نسخة المكتبة الملكية ، ورقة ٤٢٦ ظهر ووجه . وانظر أيضاً ميرخوند جـ ٥ ورقة ١١٣ ظهر .

(٢) إن كلمة « شط » التى تعنى « نهر » على وجه العموم ، كثيراً ماترد على لسان الكتاب العرب والفرس ، إما وحدها وإما مضافة إلى كلمة أخرى مميزة ، للدلالة على « دجلة » فنقرأ فى كتاب ابن خلكان (المخطوطة العربية رقم ٧٣٠ ، ورقة ٣٢٦ ظهر) « تل توبة : تل يقع فى مواجهة الموصل ويفصل بينهما عرض الشط » . ويذكر مؤلف الكتاب الذى عنوانه « الانشاء » (المخطوطة العربية رقم ١٥٧٣ ، ورقة ٢٦١ =

عليــه ضربا بالسياط المزدوجة ، حتى فاضت روحه . أما ولداه فقد شاطراه

ظهر) ، حصنا واقعا جنوبي الموصل بين الفرات والشط . وفي تاريخ وصاف (المخطوطة ، ورقة ٢٨ ظهر) ، نقرأ هذه الكلمات « شط درميان بغـداد جاريست » أي دجلة يجرى وسط بغداد . « ونرى ظفر نامه (حياة تيمور ، في مخطوطة المؤلف ورقة ١٧٨ ظهر) « أن قائد مدينة الجزيرة كان يعتمد في الدفاع عنها على حصانة القلعة وسرعة الشط (أي دجـلة) » « برحصانة قلعـة وآب شط اعتماد كرد » . ونقرأ في مـكان آخر (ورقة ١٧٣ وجه) « اتجه من شواطىء الشط (أي دجلة) نحو واسط » . « أز كنار شط بواسط رفته » . و « أز آب شط كذشته بود ، أي وكان قد عـبر دجلة » . (ورقة ١٧٣ وجه) . وأخيرا نجد في الورقة ١٧٤ ظهر « أز شط العرب كذشته أي اجتاز دجلة » .. وفي تذكرة الشعراء لدولتشاه (المخطوطة الفارسية رقم ٢٥ ، ورقة ١١٦ ظهر) نقرأ أن هرون الرشيد « دركنار شط بغداد نشسته بود ، أي كان يوما يجلس على شاطىء الشط » (يعني دجلة) ويصف الشاعر خواجه كرماني تغير أحوال هذا العالم ، فيستعمل ذلك المجاز الغريب .

خاك بغداد بخون خلفا من كريد ورنه آن شط روان چست كه دربغدادست أي « بكت أرض بغداد حين رأت دم الخلفاء يراق . وإلا فمن أين جاء النهر الذي يجرى في هــذه المدينة ؟ » ويقول السائح شلتبرجر Schiltberger (Reise in den Orient) ص ٩٥) . « إن بابل الجديدة (أي بغداد) تقع على مسافة ما من بابل الـكبرى ، على نهر يسمى الشط » . ويصف سائح إيطالي قام برحلة في فارس في بداية القرن السادس عشر الطريق الذي اتبعه ، فيذكر نهرا كبيرا اسمــه « الشط » يجرى أمام بغـداد ويستمر في جريانه حتى يلتقي بالفرات Raumusio Relationt Viaggi (مجلد ٢ ، ورقة ٧٩ وجه ، وورقة ٨٠ ظهر) . ويقول مؤلف كتـاب تاريخ الـكرد مخطوطة ديـكوروا Ducaurray الفارسية (رقم ٨٨ ، ورقة ٤٠ وجه) « إن مدينة الجزيرة (التي تكلمنا عنها منذ هنيهة) تقع على نهر يسمى شط العرب (رود خانه شط العرب) . وبعد ذلك بقليل (ورقة ٨٦ ظهر) يطلق على نفس النهر اسم « شط دياربكر (آب شط دياربكر) » ويذكر عن رواية قديمة (ورقة ١٠٩ وجه) « أن الإسكندر الأكبر تبع شاطىء الشط (أي دجـلة) فيقول « رود خانه شط العرب » حتى وصل إلى المـكان الذي يلتقي فيــه هذا النهر بنهر « بدليس » . وقد ذكرت هذه الفقرات لأبين أنه من الخطإ أن يقصر اسم « شط العرب » على الجزء من دجلة الذي يمتد من حين التقائه بالفرات بالقرب من قرنة حتى مصبه في الخليج الفارسي . إذ يبدو أن هذه التسمية تطلق على النهر جميعه . (يشير إلى كتاب شرفنامه للبدليسي وهو مطبوع الآن ، ونقله إلى العربية محمد علي عوني الذي كان قد نشر النص الفارسي من قبل) .

هذا المصير . واشتد ازدحام الناس من أجل الاشتراك فى تنفيذ هـذا العقاب ، حتى أصيب اثنان منهم أو ثلاثة بجروح خطيرة . وكان جميع الحاضرين ، سواء أكانوا مسلمين ومسلمات أم يهودا أم مسيحيين ، ومن كل الطبقات ، يظهرون ابتهاجهم عاليـا و ينظرون إلى موت هـذا الرجل على أنه انتصار للاستقرار والدين والامبراطورية » .

ونحن لانستطيع الجزم ، بعد انقضاء خمسة قرون ، بأن التهم التى سببت هذا العقاب قد ثبتت كلها ثبوتا قاطعا ، ولـكن من الأكيد أن المحكمة التى شكلت لمحاكمة تاج الدين كانت تتـكون ، كما تقضى العدالة ، من أكبر رجال الدولة الذين ضموا إليهم رئيس القضاة و بعض الأشخاص المختارين من بين رجال الدين وآل على . فمن العسير أن نعتقد بأن مجمعا له هذا الوقار وهذه الأهمية يرضى بتلطيخ شرفه بالعار بقبوله أن يكون أداة طيعة لانتقام شخصى، وأن يحكم بهذا الإعدام المروع على شخص من آل البيت يتولى منصبا يجمع بين الأهمية والاحترام . فقد نفذ الإعـدام إذن بمقتضى حـكم رسمى ، مستوف لشروط الأحكام ، ومصدق عليه من السلطان . وبالتالى لم يـكن موت تاج الدين نتيجة لمؤامرة دبرها الوزير فى الخفاء ، ونفذها على غير علم من السلطان . هذا إلى أن الابتهاج الذى قابل به الناس من جميع الطبقات قرار الحكم على تاج الدين ، وتزاحم مواطنيه وأقاربه أنفسهم من أجل القيام بعمل الجلاد فى هذه الظروف ، كل ذلك يدل دلالة واضحة على أن هذا الشخص قد ارتـكب ، أثناء قيامه بمهام منصبه ، أعمالا إجرامية بغضته ، بحق ، فى أعين الجماهير .

ويبدو أن تاج الدين الذى كان صديق سعد الدين وموضع ثقته ، كان روح المؤامرات التى حيكت ضد مؤلفنا ، حيث كانت تحدوه الرغبة والأمل فى الاستيلاء على تركته . وقد يكون رشيد الدين الذى كان يعلم بما يحاك حوله ، قد نظر بعين الارتياح إلى النكبة التى حلت بعدوه اللدود ؛ ولكن ذلك لايعنى بأية حال أن يكون هو الذى أمر بإعدامه الرسمى هذا .

وفى هذا الوقت نفسه [١] ، لم يدخر رشيد الدين وسعا فى استعمال سلطانه لتخليص قاضى الحنابلة الذى اتهم لدى السلطان .

وفى هذه الأثناء عين جلال الدين بن رشيد الدين حاكما لمدينة أصفهان [٢] ، كما اختير الأمير عبد اللطيف ، ولده الآخر ، ليكون وزيرا لأبى سعيد الذى ولاه أبوه السلطان على خراسان [٣] .

وفى يوم الخميس الرابع والعشرين من شهر المحرم سنة ٧١٢ / ١٣١١ ، أغدق رشيد الدين عطاءه للمرة الثانية على عبد الله بن فضل الله ، مؤلف تاريخ وصاف [٤] . فقد قدمه الوزير للسلطان ألجايتو وأطرى أمامه الكتاب ومؤلفه بعبارات مستطابة ، وسمح السلطان للمؤلف بأن يقرأ له فصلا من كتابه . فعقدت لذلك جلسة رائعة حضرها الوزيران وكبار الأمراء وجميع الشخصيات

---

(١) مخطوطة فارسية رقم ٦٨ أ ، ورقة ٤٧٢ وجه .
(٢) المرجع السابق ، ورقة ٤٧٤ وجه .
(٣) المرجع السابق ، ورقة ٤٧٧ ظهر .
(٤) المخطوطة ، ورقة ٤٣١ ظهر ووجه .

البارزة فى الحاشية ، حيث لم يسمع الكاتب إلا آيات الرضا والتقدير التى غمره بها السلطان وجميع الحاضرين .

وهنا يجدر بى أن أشير إلى مقدار ما كان فى إدارة سلاطين المغول من عيوب : كان على رأس الإدارة رئيسا وزارة يحمل كل منهما لقب وزير أو صاحب ديوان . وكان عليهما أن يعملا مشتركين ، ويبدو أن اختصاصاتهما لم تكن منفصلة ومحددة تحديدا دقيقا . ومن مزايا هذا النظام أنه يمنع كل تواطؤ بين رجلين يعملان فى ميدان واحد ، إذ يضطرهما وضعهما إلى مراقبة كل منهما الآخر . ولكن ، من جهة أخرى ، يستطيع المرء أن يدرك دون عسر ، أن هذا التساوى فى السلطات لابد أن يؤدى إلى مخاصمات يومية ، وضروب من الحسد ، وتنازع الاختصاص بين الشريكين ؛ وإلى محاولة كل منهما أن يغض من قدر صاحبه فى غالب الأحيان ، وأن يثير أمامه العراقيل ، ويعوقه عن المسير ، ويحمله مسئولية إخفاق الأمور ؛ وبالاختصار أن يسعى بكل جهده إلى تشويه سمعته فى نظر السلطان ، والتخلص من منافس بغيض لتبقى له وحده السلطة ورعاية السلطان .

وفى سنة ٧١٥ [١] / ١٣١٥ – ١٦ أرسل أبو سعيد ابن السلطان ألجايتو عدة رسل لطلب الأموال اللازمة لدفع رواتب الجنود ، فطلب السلطان بدوره نقودا من الوزيرين . فأجاب رشيد الدين بقوله : « أنا لم أشترك قط بأى

---

(١) المخطوطة الفارسية رقم ٦٨ أ ، ورقة ٤٧٧ ظهر ووجه ، وميرخند ، ج ٥ ، ورقة ١٢٣ .

نصيب فى حكومة المملكة ، ولم أشرف على أى فزع من فروع الإدارة ، ولم أضع توقيعى على أى أمر صادر من السلطان ؛ ولذلك لا ينبغى أن تطلب النقود منى أنا » . وأجاب على شاه بدوره قائلا: « أما أنا فلا أمتلك غير الرداء الذى يغطى جسمى . ولا أستطيع أن أدفع فلسا واحدا . وإذا كنا ، أنا وزميلى ، نقتسم إدارة الإمبراطورية ، فلست أرى لماذا أنفرد أنا بدفع النقود » . ورد رشيد الدين قائلا : « ذلك لأنك الوزير الحقيقى وموضع الثقة ، وأنك أنت وحدك المستحوذ على الخاتم السامى والمكلف بتنفيذ أوامر السلطان » . ولما عرض عليه على شاه أن يشاطره حمل الخاتم السامى وأمور الديوان ، صاح فى وجهه بقوله : « كيف أستطيع الاشتراك مع رجل مثلك ؟ الواقع أنك إذا طلب منك شىء من المال ، أظهرت الفقر ؛ فى حين أن العملاء الأدنياء الذين تستخدمهم يجمعون المبالغ الطائلة ، ويمتلكون جميعا ثروات ضخمة » . ولما احتدم الجدل بينهما واحتد ، وأدى إلى تراشق متكرر ، أراد السلطان أن يضع له حدا ؛ فأمر أن تقسم فى المستقبل الأقاليم التى تتكون منها الإمبراطورية إلى قسمين متساويين : فيوضع العراق العجمى وخوزستان واللور الكبرى والصغرى وإقليم فارس وكرمان تحت إدارة رشيد الدين . ويجعل العراق العربى وديار بكر وإقليم أران وبلاد الروم (آسيا الصغرى) من اختصاص على شاه ، واقترح هذا الأخير أن يشترك معه رشيد الدين فى الإدارة ، وأن يضعا توقيعهما معا على الأوامر الصادرة من ديوان السلطان .

ولـكن رشيد الدين رد على ذلك بقوله : « أنا لا أريد أن أشترك معك فى شىء ، لأنه كلما طلبت منك نقودا ، احتججت بفقرك المزعوم ، وأنا الذى سأرغم على الدفع » . ووصلت هذه الأقوال إلى مسامع ألجايتو ، فعين علاء الدين لإدارة الشئون تحت أمر رشيـد الدين ، كما جعل عز الدين كوهدى مساعدا لعلاء الدين . ولـكن رشيـد الدين أصيب بالنقرس طوال هـذا الشتاء ، بحيث ظل أربعة شهور لا يغادر بيته ولا يظهر فى القصر . وفى هـذه الأثناء كان يتوالى وصول البريد من خراسان باستمرار لطلب النقود . وكان ألجايتو يخاطب فى هـذا الشأن على شاه الذى كان يجيبه بأن بيت المال لا يحوى قطعة واحدة من النقود . ولما سأله السلطان أين تذهب المبالغ التى تجبى من موارد الدولة ، أجابه بأنها جميعا لدى رشيـد الدين . فأمر السلطان بإجراء تحقيق قانونى ، وكلف به الأمير جوبان الذى ضم إليـه عز الدين كوهدى وعلاء الدين محمد . فاستدعى هؤلاء الثلاثة للمثول أمامهم كل وكلاء على شاه ، وهم ظاهر الدين الساوجى وفخر الدين أحمـد وعماد الدين الفلـكى ، وسألوهم عن دخل الإمبراطورية الذى كان فى يدهم تحصيله والتصرف فيـه خلال سنين ثلاث . وبعـد أن مر المتهمون بامتحان عسير أعلن ثبوت تهمة الاختلاس عليهم وحـكم عليهم بدفع مبلغ ثلاثمائة طومان ، أى ثلاثة ملايين قطعة من الذهب . وأصاب هـذا الحـكم كل رجال الديوان بالوجوم . فذهبوا إلى على شاه وقدموا له شكاياتهم ، وقالوا له : « إذا لم تجد وسيلة لإلغاء هـذا الحـكم ، أصيبت أعمالنا كلها بالشلل التام ، وأصابها داء لا علاج له . » وذهب على شاه

فى نفس الليـلة إلى قصر السلطان وقال له « هذه المبالغ المطلوبة من وكلائى لم يبددوها ، ولـكنهم كانوا قد سلموها لى » ورجاه بالتوسلات والدموع أن يلغى الحـكم الذى صدر عليهم . فتأثر ألجايتو لـكلامه أشد تأثر وقابله بعطف بالغ ، وأصـدر أمره بإيقاف جميع الإجراءات . ولما بدأ الأمير إيرنچين من صباح الغد فى تنفيذ الحـكم قال له ألجايتو : « على شاه هـذا المسكين الذى يجهل القراءة والـكتابة كان قد تسلم هـذه المبالغ فى حقيقة الأمر ، ولـكنه استغلها فى أغراض شتى لم يعد يتذكرها الآن ، كما قال لى ، ولذلك أود أن تـكون هـذه المسألة وكأن لم تـكن » . فدهش إيرنچين من حـديث السلطان ، وأبلغه إلى الأمير جوبان ، ثم أضاف قائلا : « كان إذا أراد أحـد الفرس أن يتقدم برجاء إلى السلطان فى عهـد هولاكو وأباقا ، لم يجرؤ على تقديمه إلا إذا كان قد كلم فيـه من قبل عددا من الأمراء ، أما اليوم فقد انقلب الأمر رأسا على عقب ، حتى أصبح فى وسع أحـد الفرس أن يذهب إلى السلطان فى منتصف الليل ويطلب منه مقابلة سرية ليهدم فى لحظة واحدة كل ما فعلناه أو قلناه » . فشعر جوبان بأشد الحرج مما سمع ، ولـكن على شاه علم بذلك فبـذل كل جهده فى استرضاء الأمير واستطاع بهداياه العديدة أن يقنعه بالتزام الصمت . وبذلك اعتبر الحـكم كأن لم يـكن . ولم يمض على ذلك زمن طويل حتى ذهب على شاه إلى السلطان وقال له : « إن رشيـد الدين يتـكلف المرض لـكى يستطيع البقاء فى بيته . ولـكنه فى نفس الوقت

يستخدم كل الحيل والدسائس الممكنة للإيقاع بى ، كما فعل مع سعد الدين . فإذا تنازلت بالسماح لى ، استدعيت رشيد الدين وأولاده واستجوبتهم لأرغمهم على تقديم الحساب » . ولم يكد السلطان يسمح له بتنفيذ مشروعه حتى هاجم جلال الدين بن رشيد الدين مدعيا أنه احتفظ بين يديه بعدد من الطومانات من دخل الأمير الشاب ألجاى كتلج ، ثم بددها. ولما احتج جلال الدين بأنه برىء ، اضطر على شاه إلى سحب اتهامه . ولكنه بعد ذلك بقليل أنهى إلى السلطان أن رشيد الدين كان يستولى كل عام على ريع دخل الإمبراطورية ، وهو قيمة المبالغ المخصصة لنفقات الأميرات والناتجة من غلة الأوقاف الخيرية . أثر هذا الاتهام وغيره من الاتهامات التى كان يصدرها على شاه من حين لحين مشفوعة بكل تأكيد على ألجايتو أشد تأثير . ومنذ هذه اللحظة تغير كل شىء ، وطغت سلطة على شاه لدى السلطان . ولما علم رشيد الدين ذلك ، لم يجد أمامه إلا أن يوثق صلاته بالأمير تاجمق ، ويكسبه لجانبه عن طريق الهدايا الثمينة . وبفضل وساطته أصدر السلطان أمره إلى الوزيرين بإصلاح ذات بينهما ، وأن يعيشا منذ الآن على أتم وفاق . فأطاع الوزيران ونفذا ماأراده السلطان ، من حيث المظهر على الأقل .

وفى هذه الأثناء مات الجايتو ، وجلس ابنه أبو سعيد على العرش . وحينما علم رشيد الدين بقدوم السلطان الشاب إلى عاصمة الإمبراطورية المغولية ، أرسل ابنه غياث الدين محمد لاستقباله [1] . وفى الوقت نفسه اتخذ

(٦٤) مخطوطة فارسية رقم ٦٨ أ ، ورقة ٤٩٠ ظهر .

جميع الاحتياطات التى رآها ضرورية لحماية نفسه من دسائس أعدائه ، ولاحتفاظه بالمركز الرفيع الذى قدم له جزاء خدماته [١] . ولما كان يعلم أنه على خلاف مع الأمير سونج ، وأن هـذا الأخير لا يزال يضمر له شيئا من البغض ، فقد حرص على أن يجعل على مقربة منه شخصا اسمه إبراهيم معروفا بالحيلة والدهاء خبيرا بمناورات القصور وطريقة الحصول على مودة الملوك والعظماء . هـذا إلى أنه تباحث مع على شاه وكبار الشخصيات فى الدولة ، ورأى الجميع أنه من الخير أن يلتفوا حول الأمير جوبان الذى كان عماد الإمبراطورية فى ذلك الحين ، وأن يعملوا على الاحتفاظ به فى مركز « أمير الأمراء » (قائد عام الجيش) . وكان يأمل بهذه الطريقة أن يجد له عضدا قويا يدافع عنه ضد كراهية سونج ، ويقوم بشىء من التوازن ضد المنزلة التى لاحد لها ، والتى استطاع هذا الأخير أن يصل إليها فى نفس السلطان الشاب . وقد أصابت هـذه الخطة فى بادئ الأمر نجاحا وتوفيقا ، إذ قرر أول مرسوم أصدره العهد الجديد الاحتفاظ برشيد الدين وعلى شاه فى منصب الوزارة [٢] . هذا إلى أنه لما كان قد ولى الأمير تيمور تاش بن جوبان حاكما على البلاد الروم (آسيا الصغرى) ، فقد طلب تعيين جلال الدين بن رشيد الدين رئيسا لإدارته المدنية ، وأجيب إلى طلبه [٣] .

---

(١) المرجع السابق ، ورقة ٤٩٠ وجه .

(٢) ميرخوند ، الجزء الخامس ، ورقة ١٢٤ .

(٣) المقريزى ، مخطوطة عربية رقم ٦٧٢ ، ص ٧٢٢ (مطبوع الآن) .

وفى هذه السنة نفسها ، أعنى سنة ١٣١٧/٧١٧ – ١٨ أرسل رشيد الدين هدية إلى محمد بن قلاوون سلطان مصر[١] .

ومع ذلك[٢] فإن الوزيرين لم يكونا أكثر اتفاقا مما كانا فى العهد السابق ، إذ أن التنافس الناشئ من تساويهما فى المرتبة كان لايفتأ يؤدى إلى خصومات مستمرة بينهما . فحرص رشيد الدين ، وكانت تربطه دائما بالأمير جوبان روابط صداقة ، على زيادة هذه الروابط وثوقا . ومازال يضاعف له مودته وهداياه حتى كسب جانبه نهائيا ، وارتبط به بصورة أقوى وأوثق مما فى أى وقت آخر . ولما علم على شاه بأمر هذه الرابطة ارتاع لها ارتياعا شديدا . فإنه أحس إحساسا تاما مقدار الضرر الذى يمكن أن يحيق به من ورائها ؛ لأن الأمير جوبان كان تام السيطرة على نفس السلطان ، أو بالأحرى كان هو الذى يحكم الإمبراطورية بسلطات مطلقة . فاشتغل على شاه ليلا ونهارا فى سبيل البحث عن تهمة يوجهها إلى رشيد الدين لكى تودى بمهابته ، ولكن جميع محاولاته ذهبت عبثا . غير أن البغض الذى فرق بين الزميلين لم تزده الأيام إلا حدة ، كما أخذت المهاترات بينهما تزداد بمرور الأيام عددا . وأصبح كل منهما يظهر سخطه على رجال الديوان إذا رآهم يحتفون بالآخر ، مما آثار الاضطراب بين أعضاء الديوان . وذات يوم ذهب ضياء الملك وعز الدين الكوهدى وعلاء الدين إلى رشيد الدين ، وقالوا له : « إذا أذنت لنا ، فإننا

(١) المخطوطة الفارسية رقم ٦٨ أ ، ورقة ٤٩٣ ظهر ووجه ، وورقة ٤٩٤ .
(٢) حبيب السير ، مجلد ٣ ، ورقة ٦١ وجه ، وورقة ٦٢ ظهر .

على استعداد لمهاجمة على شاه والكشف عن مناوراته وخداعه » . وبعد أن فكر رشيد الدين طويلا ، أجابهم بقوله : « إن على شاه شخصية هامة ، ولايليق أن تقدموا ضده شكوى رسمية . ولكننى سأحدثه وأحمله على إرضائكم فيما يتعلق بموضوع الشكوى التى حدثتمونى عنها الآن » ولم يكد الموظفون الثلاثة يخرجون من لدى رشيد الدين حتى عقدوا مجلسا فيما بينهم . وقالوا : « ليس لنا أن ننتظر شيئا من قبل هذا الرجل ، بل إنه ليخشى أن يذهب إلى على شاه ، بعد أن سمع اتهامنا له ، ويقص عليه كل ماقلنا ، فيصبح على شاه عدوا لدودا لنا » . ولكى يدرؤوا عن أنفسهم هذا الخطر ، انضموا إلى على شاه الذى استطاع من جهته أن يكسب ود نواب الأمراء بفضل الهدايا ، وأن يوحى إليهم بما يوغر صدورهم على رشيد الدين ، فصمم أبو بكر أغا ساعد[1] ، جوبان الأيمن ، على الإيقاع برشيد الدين ، ولم يفتأ يشى به

(١) كلمة « آقا » التى تكتب أحيانا « آغا » من كلمات اللغة المغولية ، ومعناها الأخ الأكبر ؛ وكلمة « آينى » معناها « أخ أصغر » . ومن هنا جاءت الصيغة المركبة « آقاوينى » التى سنتكلم عنها فى مكان آخر . وتوجد كلمة « آقا » كثيراً فى تاريخ المغول والنحو المغولى ، كما توجد فى ترجمة الأناجيل . وقد دخلت اللغة الفارسية واستقرت فيها حيث نعثر عليها بكثرة لدى الكتاب التالين لغزو جنكيزخان . ويتكون الجمع منها ، كما هى العادة فى العبارات التى من أصل أجنبى ، بطرق مختلفة فأحيانا يكتب « آقا ان » وأحيانا « آقاوان » وفى بعض الأحيان الأخرى « آقايان » ومن ثم نقرأ فى « تاريخ وصاف » (المخطوطة ، ورقة ٨ وجه) « أين باوجوذ آقا چوكونه خيال تفوق يندد » أى : كيف يجرؤ هذا الأمير على الطمع فى الملك ، وله أخ أكبر ؟ وفى تاريخ رشيد الدين (ورقة ١٦٢ وجه) نجد هذه الكلمات « اينيان بسخن آقايان التفات ينموده » أى لم يكن الإخوة الصغار يحترمون كلام إخوتهم الكبار . ثم نقرأ بعد ذلك بقليل (ورقة ١٦٤ظهر) « پدران وآقايان ما » أى آباؤنا واخوتنا الكبار . وفى =

به لدى الأمير ويحاول أن يصمه كل يوم بتهم جديدة . وقد نجحت هـذه

= نفس الورقة وجه : « آقا ان پدروجد من بودند » أى : كانوا الاخوة الـكبار لأبى وجدى . ونقرأ فى تاريخ ميرخوند (الجزء الخامس ، ورقة ٨٨ وجه) : « كه بقدر امكان آقاوانرا مشمول عواطف وعوارف دارد » أى: ليغمر ، بقدر ما يستطيع إخوته الـكبار بآيات الصداقة وبالهدايا . وفى « تاريخ گزيده » . (مخطوطة برويـكس ، رقم ٩ ورقة ٢٣٣ وجه) ، نقرأ : « آغا أم شاه شجاع » أى : أنا شاه شجاع الأخ الأكبر . ونجد لدى ذيل رشيـد الدين (مخطوطة رقم ٦٨ أ ، ورقة ٤٨٤ وجه) هذه الـكلمات : « درجاق آقايان نيـكو سلطان وزمان سلطان وزمان دوات أسلاف پادشاه » أى : فى زمن إخوة السلطان الـكبار الأمجاد ، وفى فترة حـكم أسلاف الملك . ولما كان للأخ الأكبر لدى المغول سلطة عظيمة على إخوته الصغار ، أصبحت كلمة « آقا » (أى : الأخ الأكبر) تدل بطريق المجاز على رئيس الأسرة كلها . ولذا نقرأ فى كتاب رشيد الدين (ورقة ٢٢٥ ظهر) « باتو كه آغا همه بود » . أى : باتو الذى كان كبير الأمراء جميعا . ونعثر فى ذلك التاريخ نفسه على هـذه العبارات (ورقة ٣٠٠ وجه) « توكه آقاعامت پسرانى » . أى : أنت الذى تعتبر الأخ الأكبر ، ورئيس الأبناء جميعا . ثم (نفس الورقة) « آقاى ما قوبيلاى قا آن است» . أى : قوبيلاى قاآن هوالأخ الأكبر لنا جميعا . ثم بعد ذلك(ورقة ٣٠٤ ظهر) « آقا من أبا قاخان » أى : أبا قاخان كبيرى (أخى الأكبر). وفى (الورقة ٣٢٠ وجه) « أحمد أغاست » أى : أحمـد رئيس الأسرة . وفى الورقة ٣٢٢ ظهر : چگونه در روى آقاى خود شمشير كـنندم » . أى : كيف أستطيع امتشاق الحسام ضد رئيس أسرتى ؟ وفى تاريخ ميرطوند (الجزء الخامس ، ورقة ٦٨ وجه) « هرچند بركه آقاست » أى بالرغم من أن بركه رئيس الأسرة . ونقرأ فى نفس الـكتاب (الورقة ٧٠ ظهر) ، على لسان أبا قاخان العبارة التاليـة « آقاى ماقوبيلا قاآنست بى رخصت أو اين مهم چگونه اختيار توان كرد » أى : قوبيلا قاآن رئيسنا ، فهل يمـكننا أن نقوم بمسألة على هـذه الأهمية دون إذنه ؟ . ونقرأ فى « أكبر نامه » لأبى الفضل (مخطوطة فارسية بمكتبة الأرسينال رقم ١٩ ، ورقم ١٥٤ ظهر) « براى آقاى خود » . أى : من أجل رئيسه . وفى ترجمة حياة الشاه عباس الـكبير (مخطوطة الأستاذ سلفستردى ساسى ، ورقة ١٤٩) ، نقرأ « پنجاه نفراز آقايان وملازمان » . أى : خمسون شخصا من بين رؤساء الأسرة ورجال الحاشية . ومن هنا جاءت كلمة « آقايى » التى معناها « منزلة الأخ الأكبر أو رئيس الأسرة » ، وبالتالى كل نوع من أنواع الرئاسة . فنقرأ فى تاريخ وصاف (ورقة ١٧٥ وجه) « واو آقايى وتقدم داشت » =

المحاولات تمام النجاح ، إذ نحى رشيد الدين من منصبه في الأيام الأخيرة من شهر رجب سنة ١٣١٧/٧١٧ . و بعد خلعه مباشرة ترك مدينة السلطانية وذهب

= أي : كانت له منزلة الرئاسة والتقدم . وفى أكبرنامه (ورقة ١٩٦ وجه) ، نجد هذه الكلمات « مضمون نوكرى وآغايى راند انسته » أى : أنه لايعرف العلاقة التى توجد بين المرءوس ورئيسه . ونعثر على كلمة « أغا » أكثر من مرة فى تاريخ التتار لأبى الغازى . وهى تستعمل دائما بمعنى « الأخ الأكبر » فى مقابلة كلمة « اينى » ، انظر الصفحات ٨ و ٣٥ و ٧٧ وغيرها) . ونقرأ فى أخبار رحلة المبشر أودريك Oderic (التاريخ العجيب . . . لخان بلاد التتار الأعظم ورقة ١٠٩ وجه) أن سكان « كساى » ، عاصمة الصين ، أظهروا احتراما شديدا لرجل الدين هذا ، فأطلقوا عليه لقب « أغا » ، أى الأب . ولكن هذا الكلام يعوزه شيء من الدقة ؛ فإن هذه الكلمة لاتدل ، كما رأينا ، على الأب ، بل على الأخ الأكبر . ويخبرنا الأستاذ بيرنس Bwrnes ، Travels into Bokhara) مجلد ١ ، ص ١٧٧) أنه لما كان لدى أسرة « هزاره » استقبلته عجوز وحيته بلقب « أغا » . ويذكر (نفس المرجع ، ص ٢٠٠) أن الأفغانيين ، إذا أرادوا تكريم شخص ما ، خاطبوه بلقب « خان أو أغا » والواقع أننا نعرف أن كلمة « أغا » معناها فى لغة الأتراك الغربيين رئيس أو سيد .

ويجدر بى ، قبل إتمام هذا البحث ، أن أفسر كلمة أخرى من السهل أن تختلط بالكلمة التى فسرناها ، وهى كلمة « آغا » التى قد تكتب « آقا » والتى تطلق على أية أميرة من أميرات البيت المالك . وتجمع على « آغايان » أو « آقايان » . فتقرأ فى ظفرنامه (نسخة المؤلف الخاصة ، ورقة ١٣٣ وجه) « آغيان وشاهزادكان ونوينان » أى : الأميرات والأمراء والنوينان . ونجد فى موضع آخر (ورقة ١٣٣ وجه) آغا يانرا باز گردانيد مگر بانوى كبرى چلپا ملك آغا بنت حاجى بيك جته » . « أى فسرح جميع الأميرات ماعدا الزوج الأولى چلپا ملك أغا ، ابنة حاجى بيك جته » ، وفى مكان آخر (ورقة ١٤٧ وجه) نقرأ « شهرزادگان وآغايان وأمراء » ، أى : الأمراء والأميرات والأمراء . وفى (الورقة ١٥٠ وجه) « سراىملك خانم وتومان آغا باتمامى اغايان » أى : سراى ملك هانم وتومان أغا ، مع الأميرات الأخريات . وفى الورقة ١٥٤ ظهر ، « آغايان وشهزادگان » أى الأميرات والأمراء . وفى الورقة ١٨٤ ظهر : « سراىملك خانم وتورمان آغاود يگرخواتين » أى: سراى ملك هانم وتومان آغا الزوجات الأخريات . وفى الورقة ١٩٠ وجه « ديگراغايان وخواتين » أى : الأميرات الأخريات والزوجات . ويتكلم دولتشاه (تذكرة الشعراء ، مخطوطة فارسية رقم ٢٥٠ ، ورقم ١٣٢ ظهر) عن شاد ملك آغا زوجة خليل سلطان . ويذكر (نفس المرجع ورقة =

إلى تبريز . ولم يرض الأمير سونج عن هذا الإجراء ، بل حزن من أجله حزنا حارا . ولما كان فى هذا الحين ملازما الفراش ، كان لا يفتأ يكرر أنه سيعمل بمجرد شفائه ، على إعادة رشيد الدين إلى منصب الوزارة . وفى هذه الأثناء عقد أبوسعيد العزم على الذهاب إلى بغداد لقضاء الشتاء فيها . فأمر سونج أن يحمل على محفة ليلحق بحاشية الأمير . ولم يكد يصل إلى بغداد ، حتى وافته منيته فى الأيام الأولى من شهر ذى الحجة من السنة نفسها . وحينما لاحت بوادر الربيع ، قفل أبو سعيد راجعا إلى السلطانية . ولما اقترب من تبريز ، بعث الأمير جوبان إلى رشيد الدين يقول له : « إن غيابك قد أضر بمصالح المملكة ضررا بليغا ، ولابد من حضورك لإعادتها إلى سيرتها الطبيعية . فعجل ، إذن ، بالمجىء إلى القصر لتسلم المنصب الذى فقدته » . واعتذر رشيد الدين وأجابه بهذه العبارات : « لقد قضيت حياتى شريفا ، ولم يتأت لأحد غيرى

= ١٣٨) (وجه و ١٤٩ ظهر) جوهر ساد آغا ، زوجة شاهرخ ، وفى موضع آخر (ورقة ١٣٩ وجه و ١٤٩ وجه و ١٥٠ وجه) جوهر شاه بيكم ، وأخيرا جوهر شاد خانم (ورقة ١٤٩ وجه) . وفى مطلع السعادتين (مخطوطة فارسية بمكتبة الأرسينال رقم ٢٤ ، ورقة ١١٦ وجه) تقرأ آغيان از جانب دار السلطنت هراة رسيدند « وصلت الأميرات من هراة عاصمة المملكة » . ويستعرض ذيل رشيد الدين (مخطوطة فارسية رقم ١٥٨ ا ، ورقة ٤٩١ وجه) « آقايان وخواتين وأمراء » أى الأميرات والزوجات والأمراء « وتقرأ فى تاريخ ميرخوند (الجزء الخامس ورقة ١٦٤ ظهر) هذه العبارة : « صورت حادثه را معروض آقايان وخواتين گردانيدند » أى « وبلغت هذه الحادثة إلى الأميرات وزوجات السلطان » وتقرأ بعد ذلك بقليل (ورقة ١٦٥ ظهر) « بجموع شاهزدگان وآقايان ونوينان وأمرا » أى : بجموع الأمراء والأميرات والنوينان والأمراء . وفى تاريخ المغول (Ceschichte der ost Mongolen) س ١٧٩) وجدت أميرة تدعى « ساغان أغا » . =

أن يقوم بمهام الوزارة بنفس النجاح والشرف اللذين توفرا لى . واليوم أصبح لى عدة أبناء يشغلون مناصب هامة . فأريد ، إذن ، أن أقضى الأيام القليلة التى بقيت لى فى الحياة فى خلوتى ، وأن أنفقها فى التكفير عن أخطائى » .
وكان لرشيد الدين فى هذه الفترة ثلاثة عشر ولدا . ولم يرد الأمير أن يسلم بهذه الأعذار ، فألح عليه إلحاحا شديدا أن يظهر فى القصر . واستجاب رشيد الدين لهذا الرجاء المتواصل ، وحضر إلى چوبان الذى استقبله بابتهاج عظيم ، وغمره بآيات التكريم وعلائم التقدير ، وقال له : « سأذهب إلى السلطان ، وأخبره أنى علمت بالتجربة أنه لا يوجد من يماثلك فى حكم الإمبراطورية بجدارة وحزم ، وأن الإدارة قد شلت حركتها بعد رحيلك ، وفقدت رونقها » . ثم أضاف قوله « انتظرنى حتى أعود إليك بالإجازة التى ترجعك إلى مرتبة الوزارة » .

ولعله كان يجدرَ برشيد الدين أن يصر بشجاعة على رفض هذه المقترحات المفرطة فى الإغراء . وكان عليه أن يتذكر أن هذا الرجل نفسه الذى يتوسل إليه الآن فى أن يتسلم زمام الحكم ، هو الذى أسلمه بكل جبن لانتقام أعدائه ، بعد أن أكد له صداقته وحمايته . ولكن رشيد الدين كان فى هذه الظروف يستحق الرثاء أكثر مما يستحق اللوم . فانقاد أمام إغراء الإلحاح عليه من أمير يحتل المركز الأول فى الدولة ولا ينقصه غير اسم السلطان . وتأثر للفوضى التى حلت بالإدارة وتمنى أن يقدم علاجا ناجعا للداء الذى سببه جهل

خلفائه واختلاساتهم ، ولعله أيضا اندفع ببقية طموح لايستطيع أحكم الرجال أن يقضى عليه فى نفسه قضاء مبرما ، فقبل آسفا . وكان هذا الخضوع سبب ماحل به من كوارث . والحقيقة أن على شاه وأشياعه لم يعلموا بهذا الخبر حتى عمهم الحزن ، و بدأوا يحيكون له دسائسهم . وعملوا على استمالة معاونى الأمراء بالهدايا الفاخرة ، ولاسيما أبو بكر آقا موضع ثقة الأمير جوبان . وقد انصاع هذا الرجل لأغراضهم ، وتعهد بحرمان رشيد الدين من حماية الأمير، و بتقديم اتهام رسمى ضد الوزير . وهذه هى الوسيلة التى ابتكرها المتآمرون لضمان نجاح مؤامرتهم : أخبروا أبا سعيد أنه لما كان ألجايتو فى مرضه الأخير ، نصحه رشيد الدين عمدا باحتساء شراب معين سبب موته ، وأن إبراهيم ابن الوزير وساقى الملك هو الذى قدم له هذا الشراب بالاتفاق مع أبيه ، وأخذ زنبورى على عاتقه مهمة التبليغ . فصدم أبو سعيد أمام هذا الاتهام ، واستدعى رشيد الدين إلى القصر فورا ، وأمر بمحاكمته . ولما كان الأميران تاجمق وحاجى دلقندى قد شهدا بصدق هذا الحادث ، فقد اعتزم السلطان إعدام رشيد الدين وابنه أشنع إعدام ، باعتبارهما قاتلى ألجايتو . هذه هى الرواية التى يقدمها لنا ميرخوند مكمل كتاب مؤرخنا [1] ، وخوندمير . ويضيف الصقاعى بعض التفاصيل التى أثبتها فيما يلى . يذكر هذا الكاتب[2] أنه جىء برشيد الدين

---

(١) حبيب السير ، مجلد ٣ ورقة ٦١ وجه و ٦٢ ظهر .

(٢) مخطوطة عربية رقم ٧٣٢ ، وورقة ٨٣ وجه ، و ٨٤ ظهر .

إلى السلطانية على خيل البريد . ولما مثل أمام الأمير جوبان ، وجهت إليه تهمة دس السم للسلطان ألجايتو . فأجاب بقوله « كيف يتأتى أن أرتكب مثل هذا الجرم ، وأنا أدين لهذا السلطان وأخيه برفعتي ؟ ففي عهدهما أسندت إلى إدارة شئون المملكة وماليتها . ولم يكن يبت في شأن من الشئون إلا بأمرى . و بفضل منح هذين السلطانين أصبحت أمتلك العقار والنقود والجواهر والثروات التي لا تحصى » . واستدعى جلال الدين بن حران الذى كان طبيبا لألجايتو واستجوب حول موت السلطان الذى اتهم رشيد الدين بدس السم له . وأجاب على هذا النحو « أصيب السلطان بعسر هضم شديد مصحوب بإسهال غريب وقيء متلاحق . ولما دعيت واستشرت فى العلاج الذى يقتضيه الحال ، قررت ، بالاتفاق مع الأطباء الآخرين ، إعطاء السلطان دواء قابضا لتقوية المعدة والأمعاء . وكان رشيد الدين وحده على عكس هذا الرأى ؛ إذ ادعى أن هذا التعب ناشيء عن تخمة ، وأنه لابد من مواصلة التفريغ ، فأعطينا السلطان دواء ملينا زاد الإسهال وأدى بالمريض إلى القبر » . واعترف رشيد الدين بهذه الحقيقة ، فقرر جوبان أنه مسئول عن موت السلطان وحكم عليه بالموت . واقتيد هو وابنه إلى مكان الإعدام . و بدىء بإعدام إبراهيم الذى لم يكن قد تجاوز السادسة عشرة من عمره ، وكان يجمع بين جمال الخلقة وطهارة النفس ونبل الخلق . و بعد أن شاهد رشيد الدين موت ولده وفى اللحظة التى كان هو فيها على وشك الموت ، كلف أحد الحاضرين

بأن يقول لعلى شاه من قبله » : «هاأنذا أموت بريئا ضحية لاتهاماتك الكاذبة وسيأتى يوم تطالبك فيه العناية بحساب إعدامى » . ولم ينته من هذه الكلمات حتى كان حاجى دلقندى قد شطر جسمه شطرين . ويذكر أحد المؤرخين الذين تقدم ذكرهم [1] أن الأمير عزالدين طالب الملقب بدلقندى والذى ينتسب إلى آل على ، قد قبل القيام بوظيفة الجلاد بترحاب شديد ، لكى يثأر من رشيد الدين لموت تاج الدين الذى سبق أن تكلمنا عن نكبته . وقد وقع هذا الحادث الأليم فى السادس عشر من شهر جمادى الأولى سنة ١٣١٩/٧١٨ فى قرية اسمها جوسقدر تقع غير بعيد من تبريز . ثم حملوا رأس رشيد الدين إلى تبريز ، وطافوا شوارعها ، وهم يصيحون « هـذا رأس اليهودى الملعون الذى حرف كلام الله » . ويقال إن جسمه قطع إربا ، وأرسلت أشلاؤه إلى مختلف مدن الإمبراطورية [2] . ولكنا سنرى بعد قليل أن هـذا القول غير صحيح . وقد جرد أبناء رشيد الدين وأقاربه من أملاكهم .ونهب الحى المسمى بالربع الرشيدى الذى كان هـذا الوزير قد شيده فى تبريز . وصودرت منقولاته وعقاراته ، وحتى الأموال التى أوقفها على الأعمال الخيرية لم تسلم من المصادرة .

وهكذا لقى رشيد الدين حتفه فى الثالثة والسبعين من عمره، بعد خدمات

---

(١) عمدة الطالب ، مخطوطة عربية رقم ٦٣٦ ، ورقة ٢١٥ ظهر .

(٢) المقريزى — كتاب السلوك ، مخطوطة عربية رقم ٦٧٢ ، ص ٧٣٢ .

طويلة كان يبدو أنها تؤهله لجزاء غير هذا الجزاء . ولكن من الأمور الغالبة في قصور الشرق أن يكون الموت العنيف جزاء مشتركا لكل من الجريمة والفضيلة . إذ يقدم لنا تاريخ هذه الأقطار أمثلة شنيعة لاتنسى في كل صفحة من صفحاته . وفي كل مكان منها نرى الفضيلة تتلوى بين مخالب الغدر والدسيسة ، حتى تهوى تحت وطأة هـذا الصراع غير المتعادل . و إذا كان الباغى يجنى فى نهاية الأمر العقاب الذى تستحقه أوزاره ، فإنه فى معظم الأحيان لايهلك لأنه باغ ، بل لأن تركته قد أسالت لعاب طاغية آخر .

دفن جثمان رشيد الدين فى تبريز بالقرب من المسجد القائم فى الحى الذى بناه هذا الوزير ، ولكن الأقدار أبت عليه أن يظل هادئا فى المأوى الأخير الذى لم يجرؤ أعداؤه على منازعته إياه . و بعد وفاة رشيد الدين بحوالى قرن [(١)] عهد تيمور إلى أحد أبنائه بحكومة مدينة تبريز ، وكل اقليم آذربيجان . ومن سوء الحظ أن هذا الأمير الشاب الذى كان يتحلى بصفات عالية بطبيعة الحال ، كبا به جواده ذات مرة فأصيب بتلف فى المخ تطور إلى جنون دائم . فكان إذا جاءته نوبة هذا المرض عمد إلى اضطهاد الرجال الذين يمتازون بالكفاءة ولم تقف عربدته الجنونية عند الأحياء ، بل راح يباشرها على الأموات أيضا . وكان جثمان رشيد الدين قد بقى حتى هذه الفترة فى الضريح الذى بناه لنفسه فى الحى المعروف بالربع الرشيدى بتبريز . فأمر ميرنشاه بنبش عظامه ودفنها فى مدافن اليهود .

---

(١) دولت شاه ، تذكرة الشعراء ، مخطوطة فارسية رقم ٢٥٠ ، ورقة ١٢٣ ظهر .

ومما حدث أن الأمير ايش كتلك الذى كان فى خراسان ، لما وصل إلى القصر بعد موت رشيد الدين بثلاثة أيام ، حزن حزنا شديدا لهذا الحادث الأليم ، ووجه إلى الأمراء أشد اللوم ، وسألهم عن أى فائدة جنوها من قتل رجل كان قد وصل إلى نهاية حياته بحكم الطبيعة نفسها .

هذا إلى أن جميع الذين دبروا مؤامرة موته ، قد ماتوا كلهم تقريبا فى نفس العام . فدلقندى ألقى عليه القبض على باب القصر ، وشطر جسمه شطرين بأمر الأمير چوبان وأرسل زنبورى إلى آسيا الصغرى لدى الأمير تيمورتاش ، حيث اختفى تماما . وذلك لأن هذا الرجل كان قد دبر بالاشتراك مع دلقندى و بعض الدساسين الآخرين خطة لاغتيال الأمير جوبان أمام باب القصر . وتعهد دلقندى ، الذى لم يكن يخشى أى خطر بتنفيذ المؤامرة . ووعد بأن يطعن الأمير بمجرد أن يصدر إليه زنبورى الإشارة المتفق عليها . ولكن جوبان علم بالمؤامرة ، فقضى على مدبريها . ولقى أبو بكر حتفه بعد ذلك ببضع سنوات ، ولم يعمر چوبان بعده طويلا . وقصارى القول أن الذين لطخوا أيديهم بدم رشيد الدين ، لاقوا ، كلهم تقريبا ، جزاء جرمهم وماتوا موتا غير طبيعى .

أما على شاه الذى كان روح المؤامرة ، فقد هلل لها وكبر باعتبارها نصرا رائعا له ، ولما كان ينظر إلى موت عدوه على أنه حادث سعيد ، فقد شكر الله عليه بقرابين فاخرة . وهذا مانقرؤه بهذا الصدد فى كتاب باللغة العربية

عن تاريخ مكة من تأليف تقى الدين الفاسى [١] « ومن ذلك حلقتان من ذهب مرصعتان باللؤلؤ والباخش كل حلقة وزنها ألف مثقال ، وفى كل حلقة ست لؤلؤات فاخرات ، و بينها ست قطع باخش فاخر ؛ بعث بذلك الوزير على شاه وزير السلطان أبى سعيد خدا بنده ملك التتر ، على يد الحاجى مولاواخ (بولاواج) فى سنة ثمان عشرة وسبعمائة . ولما أراد تعليق ذلك بباب الكعبة منعه منه أمير الركب المصرى فى هذه السنة ، وقال هذا لا يمكن إلا بإذن السلطان ، يعنى صاحب مصر إذ ذاك ، وهو الناصر محمد بن قلاوون . فقال الحاجى مولاواخ إن الوزير على شاه كان نذر متى ظفر بخواجه رشيد الدولة (الدين) وقتله أن يعلق على باب الكعبة حلقتين ؛ فيقال إنه أذن له فى تعليقهما زمنا قايلا ثم رفعتا وأخذهما إذ ذاك رميثة بن أبى نمى من آل قتادة » .

كان على شاه أشد الذين تعاونوا على موت رشيد الدين جرما ، ومع ذلك فقد كان أسعدهم ، وهو الوحيد الذى جنى ثمرة إجرامه [٢] . فقد ظل يتمتع بعطف السلطان ست سنوات متتالية ، وعرف كيف يحتفظ ـ دون انقطاع ـ بالمكان السامى الذى رفعه إليه حسن طالعه ودسائسه . ولما حل به المرض، أولاه

---

(١) مخطوطة عربية رقم ٧٢٢ ، ورقة ٤٦ ظهر . يقصد كتاب « شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام » ، (طبع فى مصر عام ١٩٥٦ ، فى جزأين ، مطبعة عيسى الحلبى ، والنص فى ص ١١٨ ، ج ١) .

(٢) مخطوطة فارسية ١٦٨ ا ، ورقة ٥٠٩ وجه ، ومبرخوند ، الجزء الخامس ، ورقة ١٣٠ وجه ، وحبيب السير ، مجلد ٣ ، ورقة ٦٤ ظهر .

أبو سعيد شرف زيارته الشخصية ، كما بعث إليه بأمهر الأطباء . ولكن بالرغم من كل هذه العناية استفحل فيه المرض حتى قضى عليه فى الأيام الأولى من سنة ٧٢٤ / ١٣٢٣ . وكان هو الوحيد الذى مات موتا طبيعيا بين جميع الذين تولوا الوزارة فى امبراطورية المغول منذ إنشائها . وحمل جثمانه إلى تبريز ودفن فى رحاب المسجد الذى شيده . وأغدق السلطان نعمه وتكريمه على أقاربه ، وولى ولديه منصب الوزارة شركة بينهما ، ولكن لم يلبث الأخوان أن دب بينهما الانقسام ، وثارت بينهما الخصومات ، وراح كل منهما يكيل الاتهام للآخر . فقبض عليهما معا وأوشكا أن يلقيا حكم الإعدام . وإذا كانا قد فازا بالاحتفاظ بحياتهما ، فقد عزلا من منصبهما ، وألزما بالتخلى عن الثروات الواسعة التى جمعها لهما أبوهما ، والتى جمعاها بنفسيهما فى فترة صعود نجميهما .

لم يلبث أبو سعيد أن شعر بأنه انصاع لاتهامات أعداء رشيد الدين دون روية ، وأن موت هذا الوزير كان خسارة حقيقية للدولة ، فحين التمس منه الأمراء أن يسند منصب الوزارة الى غياث الدين بن رشيد الدين ، اعترف بأنه منذ أن ترك رشيد الدين رياسة الحكومة ، والإدارة فى حالة هبوط ، وأنه لم يكن بين خلفائه أحد جدير بسد فراغه [1] .

أراد أبو سعيد بطريقة ما أن يصلح الجور الذى أنزله برشيد الدين ، فرأى أن خير وسيلة لذلك هى أن ينصب ابن الوزير المنكوب فى المكان المرموق

(٧٨) مخطوطة فارسية رقم ٦٨ أ ، ورقة ٥١٥ ظهر ووجه .

الذى ترشحه له خدمات والده وكفاءته الشخصية دون منازع . وقد حاز هذا الاختيار تعضيد الجميع ، وشهد الأمراء بالإجماع أنه لايوجد بين الطامعين فى الوزارة من يجارى غياث الدين فى محتده وتعليمه ومعرفته بالأمور [١] ، ولم يكن فى هذا المديح شيء من المبالغة [٢] ، والحقيقة أن غياث الدين كان ذا طبيعة غاية فى التوفيق ، واستطاع أن يجمع بين الفضائل الاجتماعية والصفات التى تكون رجل الدولة . كانت تقوم طبيعته على نوع من الكرم لاحد له . وكان متضلعا فى معظم العلوم ، ويستطيع التعبير عن أفكاره فى بلاغة خلابة صافية . وأدى فريضة الحج فى صباه [٣] ، كما كان لايدع مناسبة إلا أظهر فيها تعلقه الصادق بدين الاسلام .

وفى أول الأمر ضم اليه علاء الدين كمساعد له ، وهو إحدى شخصيات خراسان الرئيسية ، ولكن لم تمض ثمانية أشهر حتى عين هذا الأخير على بيت مال المملكة، فأصبح غياث الدين [٤] وحده على رأس الدولة، فلم يدخر جهدا فى العمل على الوصول بالامبراطورية إلى قمة المجد والرخاء. فكان قوى الإيمان يعمل على حماية ذوى الكفاءات ويغدق عطاياه على العلماء ، كما كان يحرص

---

(١) ميرخوند ، الجزء الخامس ، ورقة ١٣٢ وجه .

(٢) حبيب السير ، مجلد ٣ ، ورقة ٦٦ ظهر ووجه .

(٣) يقدم لنا المؤلف العربى لتاريخ آل على تفاصيل حول هذا الحادث (عمدة الطالب مخطوطة عربية رقم ٦٣٦ ، ورقة ٨٤ ظهر ووجه) .

(٤) المخطوطة الفارسية رقم ٦٨ أ ، ورقة ٥٢٩ ظهر ووجه ، وورقة ٥٣٠ ، ميرخوند الجزء الخامس ، ورقة ١٣٦ وجه ، وورقة ١٣٧ ظهر ، حبيب السير ، مجلد ٣ ، ورقة ٦٦ .

على كسب ود الجند وضمان أمن الأفراد من جميع الطبقات ، وازدياد السكان، وازدهار الزراعة . ولما رأى أولئك الذين ساعدوا على الإيقاع برشيد الدين أن السلطة بين يدى ابنه ، استولى عليهم الرعب ؛ ولكن غياث الدين كان يضم إلى محاسنه العديدة صفتى الدماثة والرحمة اللتين لاتنال منهما الأحداث ؛ عفا عن جميع أعدائه ، ولم ينتقم من أحد منهم، بل على العكس من ذلك غمرهم بنعمه ومكرماته .

ولكن غالبا ما تكون أصفى الفضائل وأسماها حصنا خائرا ضد جحود البشر وسوء فعلهم . فبينما كان غياث الدين يعمل بحكمة إدارته على كسب محبة المغول جميعا واحترامهم ، أوشك على التردى فى الهاوية من جراء مؤامرة شنيعة . اذ كان هناك أمير يسمى نارين طاغاى يجمع بين الجرأة والغدر والطموح الذى لاحد له ، فضم اليه بعض الأشخاص الذين لايقلون عنه سوءا، ودأب على الإيقاع بالرجال ذوى المكانة والذين تحول نزاهتهم وشجاعتهم بينه و بين الوصول إلى أغراضه . وكانت أولى هجماته موجهة ضد غياث الدين الذى كان على علم بمناورات عدوه ،وفى قدرته أن يحول بينه و بين نتائجها دون مشقة ، ولكنه لم يقابلها إلا بالصمت والاعتدال جريا على عادته . ولما رأى نارين أنه لن ينجح فى الدس له لدى السلطان ، صمم على اتخاذ طريق أقصر من ذلك ، وهو طريق الاغتيال . فاستصحب معه بضعة أشخاص من ذوى الجرأة ومعهم أسلحتهم التى أخفوها فى ثنايا ثيابهم وتوجه بهم إلى منزل

غياث الدين وطلب مقابلته متذرعا بأن لديه طلبا يريد أن يتقدم به اليه. ولم يكن لدى الوزير أدنى ريب فى وجود مؤامرة ضده ، فأمر بإدخاله فورا . فأراد نارين الدخول بسلاحه ومعه نفر من أتباعه ، ولكنه التقى فى طريقه بأخ لغياث الدين اسمه شريف الدين أمير أحمد : فأخبر نارين أن لديه أوامر مشددة بمنع أى شخص من الدخول لدى الوزير بسلاحه . وفى الوقت نفسه جرده من سلاحه ، وتركه يدخل وحده ، و بقى هو على الباب ليمنع من أن يتبعه أحد من مرافقيه . ولما رأى أن تقديره قد فشل ، تقدم إلى غياث الدين، ورجاه بكثير من الإلحاح أن يتفضل بتقديم خدمة له لدى السلطان، وأن يرجوه بحسن استقباله . فوعده غياث الدين بالتأييد التام ثم صرفه بعد أن أخبره بأنه ذاهب إلى القصر من فوره . ورأى نارين فى ذلك شيئا من الأمل ، وذهب إلى المدرسة المجاورة يتربص لمرور الوزير ، ولكن مصادفة سعيدة جعلته يسلك طريقا آخر . ولما وصل لدى السلطان ، كان أول همه أن يفى بوعده ، وكلمه بحماس شديد فى مصلحة نارين . فدهش السلطان لذلك ، وسأله عما إذا كان يجهل أمر المؤامرة التى دبرها ضده هذا الرجل الذى يسعى لمصلحته . وأجابه غياث الدين بأنه عبد السلطان وليس له هدف آخر غير القيام بخدمته ، ثم أضاف قائلا : « هذا إلى أنه إذا كان نارين قد أراد بى شرا ، فان الشر الذى أراده لى سيحيق به هو لامحالة » . وأصدر أبو سعيد أمره فورا بالقبض على نارين . وفى هذه الأثناء كان نارين قد أدرك أن غياث الدين

قد اتخذ طريقا آخر ، فامتطى جوادا واقتفى أثره ليدركه على باب القصر . ولكن أحد أصدقائه قابله ، وهو يعبر السوق ، فأخبره بأمر القبض الذى صدر ضده من السلطان . ولما سمع هذا الخبر لاذ سريعا بالفرار ومعه أنصاره المخلصون . ولكنه قبض عليه وأحضر إلى القصر ، ولم يلبث أن تلقى الحكم الذى يستحقه . وإذا كان غياث الدين لم يستطع منع عدوه من الموت ، فإنه أظهر اعتداله باستصداره العفو عن علاء الدين محمد الذى ثبت اشتراكه فى فى المؤامرة ومشاطرة نارين نواياه السيئة .

وبعد ذلك بزمن ما ، أعنى فى سنة ٧٣٤ / [1] ١٣٣٣ – ٣٤ ، ولى السلطان على حكومة فارس أميرا اسمه مسافر إيناق [2] فأوغر ذلك الاختيار

---

(١) المخطوطة الفارسية رقم ٦٨ ا ، ورقة ٥٣٢ ظهر ، حبيب السير ، مجلد ٣ ورقة ٦٧ ظهر .

(٢) كلمة « ايناق » التى تكتب أحيانا « اناق » ليست علما ، بل لقب يطلق على الشخص الذى يتمتع بأقصى ثقة العاهل ، أو أحد مستشاريه الشخصيين الحميمين .

ونقرأ فى تاريخ رشيد الدين (ورقة ٣١٠ وجه) : « وهرچند إيناقان نصيحت گفته اند » أى : بالرغم من أن الإيناقين « قد كلموه بإخلاص : ونقرأ بعد ذلك بقليل : « أو اتربيت فرمود وبزرگ گردايند تابجائى سيد كه ايناق گشت » أى : اقد كرمه ورفع مرتبته ، وبذلك وصل تابعه إلى الحصول على مرتبة « ايناق » . وفى موضع آخر (ورقة ٣٢٤ ظهر) « أميرأقبوقا كه ايناق أحمد بود » أى : الأمير أقبوقا الذى كان ايناق أحمد . وفى موضع آخر (٣٤٣ وجه) « باامرا وايناقان قايدو » أى : مع أمراء قايدو وايناقيه . وفى ورقة ٣٥٤ ظهر « يبكى ازاناقان حضرت سيرد » . وفى ورقة « ٣٦٠ ظهر با اناقان وخاصكيان : وترد هذه العبارة نفسها كثيرا فى ذيل رشيد الدين . فنقرأ فى ورقة ٤٥٠ وجه « أزامرا وايناقان متفحصى حال أو بودى » أى كان يأخذ من لدن الأمراء والإيناقين أخبارا تخصهم . ونقرأ بعد ذلك (ورقة ٤٥١) « ازايناقان حضرت شده » أى : صار أحدا ايناق الأمير . وفى ورقة ٤٦٩ ظهر « با أناقان ميگفت » . وفى تاريخ =

صدور بعض كبار رجال الديوان ، واعتزموا قتل هـذا الأمير وطاردوه حتى قصر السلطان . فثار السلطان بحق ، لهـذا الفعل ، وأمر بالقبض على الجناة وأصدر ضدهم حكم الإعـدام . ولـكن غاية الدين الذى كان يجنح دائما نحو الرحمة تدخل لمصلحتهم ، واستطاع أن يستبدل لهم بحكم الإعدام الحـكم بسجن كل منهم فى إحدى القلاع .

= ميرخوند (الجزء الخامس ورقة ٥١) باطايفهٔ ازايناقان خود مشكورث كرده . «وفى موضع آخر (ورقة ٥٣) « از مقربان وايناقان برسيد » . وفى ورقة ٨٦ ظهر « ياصد نفراز خواص ومقربان وايناقان » . وفى ورقة ٩٦ ظهر « بعض از خواص زايناقان كيخاتوا » . وفى ١٢٣ ظهر « خواجه تاج الدين على شاه بغايت ايناق كشته بود » . أى كان على شاه قدصار من ثقات الأمير . وفى تاريخ حبيب السير (مجلد ٣ ورقة ٦٦ ظهر) « سلطان أبو سعيد از بعضى ايناقان شمه أزين حديث استماع فرمود » . أى علم السلطان أبو سعيد من أخد خواصه طرفا من هـذه الحادثة » . وفى فقرة من تاريخ وصاف (ورقة ١٧٥ وجه) نقرأ هـذه الـكلمات « شرف ايناقى دربندگى حضرت يافته بود » . أى : كان قد حاز لدى السلطان لقب ايناق التشريفى . ونقرأ لدى مكمل رشيد الدين (ورقة ٤٦٨ وجه) « أز منصب قضا بمرتبهٔ ايناقى رشيد » . أى : صعد من منصب القضاء إلى منصب ايناق .

وتوجد كلمة « ايناق » أيضا فى أيامنا هـذه لدى الأمم الشرقية التى تقطن شرقى بحر الخزر . ففى أخبار الرحلة التى قام بها البارون مايندورف Meyendorff إلى بخارى ص ٢٦٠ ، تترجم كلـمة « ايناق » بمستشار خاص . ويذكر الأستـاذ مورافييف Mouravieff فى كتابه Voyage en Turkemenie etàkhier ص ٢٦٩ أنه كان لـكل قبيلة من قبائل الأزبك التى وفدت إلى خيوا واستقرت فيها ، شيخ أو رئيس يخاطب بلقب « ايناق » . وتوجد كلمة « ايناق » أيضا فى لغة الأتراك الشرقيين ، فنقرأ فى تاريخ التتار لأبى الغازى (ص ١٠٧) « سلطان نينك برايناق بارايردى » أى كان يوجد مقرب للسلطان . وفى صفحة ١٧٩ . « ايناق ليق بيريب . » أى لما أعطى لقب مستشار خاص . (وانظر أيضا صفحة ١٣٥) .

وفى خلال السنة التالية [١] مات أبو سعيد ، فوقعت الإمبراطورية المغولية فريسة لأعنف الاضطرابات . ولكن غياث الدين عرف كيف يجمع بين الحزم والدهاء ، ويتخذ قرارات موفقة ، ويسوس النفوس بحكمة جعلت الأمراء وكبار الموظفين الذين كانوا على وشك امتشاق الحسام ضد بعضهم البعض الآخر ، يطرحون أحقادهم جانبا ، ويتعاونون جميعا فى المحافظة على سلامة الدولة ورخائها .

خلع لقب « خان » على أر پاقاوون [٢] الذى تسمى باسم أر پاخان ، بناء على رأى غياث الدين ، وكان أر پاقاوون [٣] هذا ينحدر من تولى أو تولوى بن چنكيزخان . ولكن النار التى كانت قد خمدت فى الظاهر ، لم تلبث أن اشتعلت من جديد ، والتهمت الإمبراطورية . إذ قام الأمير على پاديشاه شاهرا سلاحه ، وأجلس موسى خان على العرش ، ثم جمع الاثنان قواتهما وسارا لحرب أر پاخان الذى سارع هو الآخر للقاء الثوار . وأرسل بعض هؤلاء الثوار إلى غياث الدين يخبرونه فى الخفاء أنه يستطيع تهدئة الاضطرابات ، إذا هو ضمن لعلى لقب القائد والأمير . فرفض غياث الدين أن ينصت لهذا الاقتراح ، وأجاب بأبيات ، ترجمتها :

---

(١) المخطوطة الفارسية رقم ٦٨ ا ، ورقة ٥٣٣ ظهر ، ميرخوند ، ج ٥ ، ورقة ١٣٧ و .
(٢) ميرخوند ، ج ٥ ، ورقة ١٣٨ ظهر ، حبيب السير ، مجلد ٣ ورقة ٦٨ ظهر .
(٣) المرجع السابق ، ورقة ١٣٩ ظهر .

« لن أخضع أبدا لعدوى ، ولو كان مقره فى السماء . وهل رأى إنسان قط أن الصقر يطيع البازى ، والأسد يحنى هامته أمام الثعلب ؟ » .

وأراد أرپاخان أن يتخلص من بعض الأمراء الذين يعرف فيهم الشغب ، و يرتاب فى اتصالهم بأعدائه . ولـكن غياث الدين الذى لم يتخل عن أسلوب الاعتدال والتسامح نصحه ألا يريق قطرة واحـدة من دم . ولـكن لما اشتبك الحزبان ، انحاز هؤلاء الأمراء إلى جانب على ، وأدى خذلانهم لأرپاخان إلى هزيمته . ففر هـذا الأخير . وقاتل غياث الدين ومعه أخـوه پيرساطان بشجاعة الأبطال . ولما اضطرا إلى التسليم للعدو ، تركا المعمعة ، ولـكنهما لم يلبثا أن وقعا فى قبضة المنتصر . فاقتيد الوزير أمام الأمير على الذى استقبله بكل تـكريم ، وبذل كل ما فى وسعه ليحفظ له حياته ؛ ولـكن الأمراء الآخرين أصروا على إعـدامه ، فلقى غياث الدين الموت فى الحادى عشر من شهر رمضان من سنة ٧٣٦/١٣٣٦ [١] وبعد ذلك بثلاثة أيام أو أربعة ذاق أخوه نفس المصير .

ونهب الربع الرشيدى الذى كان غياث الدين قد زاد فى سعته وتجميله ، فضلا عن بيت الوزير نفسه و بيوت أصدقائه . فأخذت منها كمية هائلة من الـكتب الثمينة ، والآنية الذهبية ، والفضة المضروبة ، والأثاث ، والنسج من جميع الأنواع . وقد كبر موت غياث الدين على الشعراء والعلماء الذين

---

(١) انظر تاريخ گزيده ، ورقة ٢٠٩ وجه .

كان يغدق عليهم عطاياه . فرثاه أحدهم بأبيات يعبر فيها عن ألمه ويبكى بصورة مؤسية ذلك المصير الذى انتهى إليه ولى نعمته .

ويكفى أن نذكر هذه القصة لبيان إلى أى حد وصل سخاء غياث الدين [1] . يحكى أن الأمير الشيخ أبا إسحاق الذى كان قد أعلن نفسه ملكا وجعل مدينة شيراز عاصمة لملكه ، كان يتجاذب أطراف الحديث ذات يوم مع القاضى عضد الدين ، فوجه إليه هذا السؤال : « هل كانت الكفاءة فى عهد أبى سعيد تلاقى من التقدير والجزاء أكثر مما تلاقى فى عهدى ؟ » وأجابه القاضى مبتسما بقوله : « هذا ماحدث لى شخصيا . كنت ذات يوم فى مجلس غياث الدين وزير أبى سعيد . فاختصنى هذا الوزير الكريم ، وأشار لى بيده ثلاث مرات ، ثم أتبع آية العطف البسيطة هذه بعطايا ضخمة من المال والعقار ، حتى إن جباتك قدروا عشر إيرادى بمبلغ ثلاثين ألف دينار أدفعه لهم خراجا فى كل عام » . ولما سأله الأمير الشيخ ، كيف كان يحدث ذلك أجابه بهذه العبارات : « كان غياث الدين يجمع فى ليلة الجمعة من كل أسبوع عددا من العلماء والفقهاء ليطارحهم الحديث حول العلوم والآداب ، وكانوا جميعا يجلسون فى القاعدة بحسب درجاتهم . فإذا أبدى أحدهم ملاحظة قيمة ، أشار إليه غياث الدين بأن يتقدم ويجلس قريبا منه . وفى أول مرة حضرت فيها هذا الاجتماع لم يسمح لى بالجلوس على المنصة التى يجلس عليها الوزير ،

---

(١) خوندمير ، حبيب السير ، مجلد ٣ ورقة ٦٨ وجه .

فجلست وسط منصة أقل منها ارتفاعا . ولما دار الحديث وجدتنى أتناقش مع بعض العلماء ، وكانت الغلبة لى . فلاحظ غياث الدين انتصارى وأشار إلى أن أصعد إلى مكان أعلى ، مما جعانى أجاس فى مكان أعلى من أمكنة جميع الجالسين على نفس المنصة . و بدئت مناقشة أخرى ، ولم أكن فيها أقل توفيقا مما فى الأولى . فأشار الوزير إلى بالتقدم حتى صرت على نفس المنصة التى يجلس هو عليها . ولما أحرزت الانتصار الثالث على العلماء الذين كانوا يكوّنون هذا المجلس ، دعانى غياث الدين إلى الجلوس بجانبه مباشرة ، وأسبغ على عطاياه . ولما رأى أصدقاؤه مقدار العناية التى لحظنى بها ، أقبلوا جميعا يقدمون لى آيات الاحترام ، و يغمروننى بالهدايا الثمينة » . وما أن سمع الأمير أبو إسحاق هذه القصة حتى أعفى القاضى من مبلغ الثلاثين ألف دينار التى كان يدفعها خراجا سنويا .

كان عضد الدين هذا يعيش عادة فى مجتمع غياث الدين . وكانت مقدمات كتبه مفعمة بمديح هذا الوزير . هذا إلى أنه جعل عنوان أحد كتبه « الفوائد الغياثية » أى فوائد نافعة مهداة إلى غياث الدين [1] . وكتب أحد الشعراء عشر رسالات أهداها إلى هذا الرجل المشهور [2] . ونجد فى كتاب دولتشاه [3] منظومة طويلة يتغنى فيها الشاعر سلمان ساوجى بمحمد غياث الدين و يعدد مناقبه .

---

(١) حبيب السير ، مجلد ٣ ، ورقة ٦٨ ظهر .
(٢) دولتشاه ، مخطوطة فارسية رقم ٢٤٩ ، ورقة ١٠٨ وجه .
(٣) مخطوطة فارسية رقم ٢٥٠ ، ورقة ٩٦ وجه و ٩٧ ظهر .

وكان حمد الله مستوفى [١] كاتب رشيد الدين وابنه غياث الدين ؛ وقد أهدى إلى هذا الأخير التاريخ الذى ألفه وجعل عنوانه « تاريخ كزيده ، أى التاريخ المختار . وقصارى القول أن مناقب غياث الدين قد سجلت شعرا ونثرا على يد كتاب عديدين من جميع الطبقات .

لم أعثر على أى خبر عن بهاء الدين محمد بن رشيد الدين . وينحصر كل ماستطعت أن أعرفه عنه فى أن كلا من الشاعرين شمس الدين كاشى ، وركن الدين ، قد نظم قصيدة فى مدح هذا الأمير [٢] ، ولم أجد إلا القليل من التفاصيل عن أخيه شمس الدين عبد اللطيف [٣] الذى كان ، كما رأينا ، وزيرا للسلطان أبى سعيد ، حينما كان هذا الأمير واليا لخراسان . ويرد ذكر الأمير مظفر الدين مرغل ، أحد أبناء رشيد الدين ، فى تاريخ كزيده [٤] .

أما جلال الدين الذى أرسل ، كما سبق أن قلنا ، إلى آسيا الصغرى ليرأس الإدارة فى حكومة الأمير تيمورشاه ، فقد قدم لهـذا الأخير دليلا ناصعا على إخلاصه وتفانيه [٥] ، إذ أن بعض الأمراء أرادوا الإيقاع بچوبان . والتخلص

---

(١) حبيب السير ، مجلد ٣ ، ورقة ٦٨ ظهر ، تاريخ كزيده ، مخطوطة برويكس رقم ٩ ، ورقة ٢ ظهر ووجه .

(٢) خوندمير ، حبيب السير ، مجلد ٣ ، ورقة ٥٩ ظهر .

(٣) خوند ، جـ ٥ ، ورقة ١٢٤ وجه .

(٤) مخطوطة برويكس رقم ٩ ، ورقة ٢١٣ ظهر .

(٥) مخطوطة فارسية رقم ٦٨ أ ، ورقة ٥٠٥ وجه .

فى الوقت نفسه من أبنه تيمورشاه ، وألحوا على جلال الدين فى أن يتعاون معهم فى تنفيذ هذا المشروع . فحاول فى بادئ الأمر أن يصرفهم عنه ، ولكنه لما رأى أن لا جدوى من إقناعهم ، وأنه إذا صارح هؤلاء المتآمرين بالرفض ، عرض نفسه لموت محقق ، تظاهر بأنه معهم وراح يبلغ كل تدابيرهم إلى تيمورشاه الذى استطاع بفضل معلوماته أن يتجنب هجوم أعدائه .

رأينا من قبل أن پير ساطان قد أعدم بعد أخيه غياث الدين . ويتكلم خوندمير عن أخت لغياث الدين ؛ وبالتالى ، فهى ابنة لرشيد الدين .

وفى عهد أبى سعيد [1] ثبت على الأمير شريف الدين أحمد بن رشيد الدين ارتكابه لأحد الأخطاء ، فصدر إليه الأمر بمغادرة القصر ، ولكن السلطان أراد أن يظهر لأخيه غياث الدين الذى كان وزيرا له فى ذلك الحين ، فمنحه لقب « أمير الإيلكاه [2] » ، وهو لقب يخول لحامله فى أى مكان بالإمبراطورية ينزل فيه ، سلطة أعلى من سلطة الحكام أنفسهم . وقابل أحمد ، فى طريقه ، السيد عضد الدين عائدا من دلهى ، ومعه نفائس كثيرة قدمت له فى تلك المدينة كهدايا له وللسلطان . فحصل أحمد من هذا الرجل على كمية كبيرة من آنية الذهب والفضة بقصد أن يرسلها إلى القصر ويقدمها للسلطان والأميرات لكى

(١) مسالك الأبصار ، مخطوطة عربية رقم ٥٨٣ ، ورقة ١٩ وجه

(٢) نعثر على كلمة « إيلكا » أو « إيلكاه » ، باعتبارها لقبا من ألقاب الشرف عدة مرات فى كتاب رشيد الدين . ففى جيش هولاكو ، نجد الأمير « قوقا إيلكا » . ودلالة هذه الكلمة لا يمكن أن تكون موضعا للشك ، إذ يحددها لنا صاحب مسالك الأبصار ، وهو كاتب معاصر يمتاز بالدقة والتحقيق التامين » .

يكسب ودهم ويمهد لنفسه طريق الرجوع ؛ ولكن المنية عاجلته قبل أن يحقق مشروعه .

ولما انتصر الأمير الشيخ حسن على موسى وأجلس محمد خان على العرش؛ اختار لمنصب الوزارة شمس الدين محمد زكريا زوج ابنة غياث الدين وابن أخته [١] .

وفى سنة ٧٦٢ / ١٣٦٠ ـ ٦١ استوزر السلطان عويس ، نجيب الدين أخا شمس الدين زكريا ، أى حفيد رشيد الدين [٢] .

وتولى شمس الدين زكريا هذا نفسه [٣] الوزارة للسلطان حسين ابن السلطان عويس .

وفى سنة ٧٧٥/١٣٧٣ ـ ٧٤ ولى الأمير وجيه الدين إسماعيل بن الوزير زكريا حاكما على العراق العربى [٤] ، ولكنه لم يعمر فى هذا المنصب طويلا. إذ أنه كان قد قام بحماية [٥] بعض الأشخاص ذوى الأصل الغامض ، ورفعهم إلى مراكز عالية . فاستطاع الشيخ على بن عويس الذى كان يقطن بغداد فى ذلك الحين أن يجتذب إليه هؤلاء الجحودين ، ويغريهم بقتل ولى نعمتهم

---

(١) حبيب السير ، مجلد ٣ ، ورقة ٦٩ وجه .
(٢) المرجع السابق ورقة ٧٣ ظهر .
(٣) المرجع السابق ، ٧٥ ظهر .
(٤) المرجع السابق ، ورقة ٧٤ ظهر .
(٥) المرجع السابق ، ورقة ٧٤ وجه .

و بينما كان إسماعيل فى طريقه إلى المسجد الجامع فى أحد أيام الجمع من سنة ٧٨٠ / ١٣٧٨ — ٧٩ وليس معه إلا نفر قليل ، فسارع بمقابلته شخص اسمه مبارك شاه ، و بادره بطعنة سيف قوية فى وجهه ألقت به على الأرض . وفى هذا الحين كان الأمير مسعود ، أخو زكريا ، خارجا من منزله، فناداه إسماعيل لنجدته . ولما سارع إلى تخليص ابن أخيه ، لم يصل إلا ليشاطره مصيره ، إذ انقض عليه مبارك شاه وآخر من شركائه ، وأجهزا عليه . و بعد ذلك ذهب الجانيان إلى الشيخ على وأخبراه بالجريمة التى ارتكباها . وهنا طلب إليهما ذلك الأمير أن يطلعاه على رأس عدوه ، فذهبا من فورهما وقطعاه وأحضراه إليه . وعلق الرأس على إحدى العمائر التى كان إسمياعيل قد شيدها .

ومما لوحظ فى هذا الصدد أن إسماعيل كان قبل ذلك بقليل جالسا ذات يوم فى أعلى العمارة ينظر إلى العمال ، ورأى نجارا يريد قطع سهم نائئ خارج الجدار ، فعارضه قائلا « دع هذا السهم لكى يستخدم يوما لتعليق أحد الرؤوس » . وكان رأسه بالذات هو الذى علق فى هذا المكان . ولكن قتلة إسماعيل لم يلبثوا أن لاقوا جزاء جريمتهم [1] .

وقبل أن أختتم هذا المقال يجدر بى أن أقول بضع كلمات عن الحى الذى أنشأه رشيد الدين فى مدينة تبريز ، وسمى الربع الرشيدى : لما استولى الملك الأشرف على السلطة العليا فى غضون سنة ٧٥٠ هـ ١٣٤٩ — ٥٠ م [2]

---

(١) حبيب السير ، مجلد ٣ ورقة ٧٥ وجه .

(٢) المرجع السابق مجلد ٣ ، ورقة ٧٢ ظهر ، تاريخ الكرد ، مخطوطة ديكوروا الفارسية ، رقم ٨٨ ، ورقة ١٦٣ ظهر .

وجعل مقر قصره فى تبريز ، اختار الربع الرشيدى لإقامته . وأمر بحفر خندق حوله ، ثم أصدر أوامره إلى جميع سكان تبريز ، من كبار أعيان المدينة حتى العمال والصناع ، بأن يشيدوا منازلهم و يستقروا حول هـذا الحى .أما أولئك الذين لم تسمح لهم ثروتهم بهذه النفقات ، فقد أنزلوا المساكن الخاصة بالفقراء ومن ثم أصبح الربع الرشيدى معمورا بجمهور هائل من الأشخاص الذين ينتمون إلى جميع الطبقات .

و بعد ذلك بثمانية أعوام [١] ، اضطر هذا الأمير إلى الفرار أمام جيوش جانى بك ، خان كاپتشاك ، المنتصرة ، فترك الربع الرشيدى وانسحب إلى مدينة أوجان . ونقل نساءه ونفائسه فوق جبل ميزد الواقع فى نفس المكان الذى تنبع منه عين رشيد الدين .

ولما استولى السلطان أويس على تبريز فى السنة التالية [٢] ، اختار الربع الرشيدى محلا لإقامته . وهناك مات هذا الأمير [٣] « در عمارت رشيدى » . ونقرأ فى كتاب « حياة الشاه عباس الكبير » [٤] أن هـذا العاهل حـول الربع الرشيدى إلى قلعة ، كما أننا نعلم من هذا الكتاب نفسه [٥] أن الربع

---

(١) حبيب السير ، المرجع السابق .

(٢) المرجع السابق ورقه ٧٣ ظهر

(٣) تاريخ الكرد ، ورقة ١٦٧ وجه

(٤) مخطوطة الأستاذ دى ساسى ، ورقة ١٦٧ ظهر .

(٥) المرجع السابق ، ورقة ١٧٧ وجه .

الرشيدى كان يقع شرقى تبريز. ويتحدث Chardin عن قلعة كبيرة خارج تبريز تسمى القلعة الرشيدية [١]. وفى رحلة لتاجر إيطالى زار فارس فى أوائل القرن السادس عشر تذكر قلعة كبيرة تقع شرقى تبريز عنـد سفح تل وبها قصر منيف. وهـذه القلعة، إذا لم أخطئ، هى الربع الرشيدى، ويبدو أن هذا الربع لايزال قائما اليوم باسمه القديم.

الجزء الثانى

رأينا فى الجزء الأول من هـذا التقديم رشيد الدين، باعتباره حاكما، لإمبراطورية كبيرة، وموضعا لثقة ثلاثة سلاطين متتابعين. وبقى علينا الآن أن ننظر إليه باعتباره أديبا وكاتبا. وقد قلنا فى غير هـذا المـكان إن رشيـد الدين رأى نفسه، على الرغم منه، منساقا فى دوامة القصر منذ ميعة صباه، ومضطرا إلى بذل كل وقته فى الاشتغال بتفاصيل الإدارة الشائـكة، فلم يستطع إشباع ميله الخاص نحو الدراسة بالقدر الذى كان يتمناه. كما أنه، فضلا عن ذلك، كان عرضة لأمراض متتابعة أضاعت عليه جزءا من الوقت الذى تركته له تلك المشاغل العديدة التى كان يرزح تحت عبئها [٢]. ولـكنه كان مولعا بالمعرفة أشد الولع، ذا قدرة على العمل لا تعرف التعب، وذا كرة يضرب بقوتها المثل؛ فاستطاع، رغم كل هذه المشاغل والموانع، أن يجد لنفسه

---

(١) Voyage en Perse، ج ١، ص ١٨٤.

(٢) المجموعة الرشيديه: مخطوطة عربية رقم ٣٥٦، ورقم ١٦٠ وجه، ٢١٢ ظهر.

الوسيلة لمعالجة الآداب والعلوم والإحاطة بالدين الإسلامى إلى أعمق حد . فكان يقضى كل نهاره فى تصريف شئون الدولة ، ثم ينفق فى الدراسة الساعات التى ينفقها غيره من الناس فى الراحة والنوم [١] . وكان ضنينا بوقته إلى حد أنه كان فى أسفاره وعلى صهوة جواده ، لا يكف عن التفكير فى المواضيع التى تتطلب أهميتها فحصا عميقا [٢] . ولذلك ، إذا كان رشيد الدين يشكو فى كثير من المواضع من الشكوى من عجزه عن قراءة الكتب الهامة وتحصيل المعرفة الجدية ، فإنه ينبغى لنا ألا ننسب إلى أسفه هذا إلا دلالة نسبية ؛ وسنرى أنه ، رغم تظاهره بالجهل ، كان يحيط بجحفل من المعارف العميقة المتنوعة ، وأن مؤلفاته الضخمة تكفى وحدها لتخليد ذكر أوسع العلماء اطلاعا ورأيا .

إذا غضضنا النظر عن الطب الذى أقبل رشيد الدين على تعلمه منذ زمن مبكر ، وعن شتى فروع المعرفة الأخرى التى ترتبط بهذا العلم برباط مباشر ، وجدنا أنه أيضا لم يهمل دراسة الزراعة والهندسة والميتافيزيقا واللاهوت . وكان يحيط إحاطة تامة بكثير من اللغات ، وهى :

الفارسية والعربية والمغولية والتركية والعبرية ، وربما الصينية أيضا .

الأولى من هذه اللغات لغته الموروثة .

---

(١) المرجع السابق ، ورقة ٢٨١ وجه .
(٢) المخطوطة العربية رقم ٣٥٦ ، ورقة ١٦٧ ظهر .

أما بالنسبة للعربية ، فلا يمكن أن يخامرنا شك فى معرفته بها ، إذ قد رأينا ، فيما سبق أنه كلف من قبل غازان خان بكتابة جميع الكتب التى ينبغى كتابتها بالعربية ؛ هذا فضلا عن أننا سنرى فيما يلى أنه ألف بهذه اللغة كتبا هامة .

والإلمام التام بالمغولية كان ضروريا لرشيد الدين ، لكى يستطيع العيش فى حاشية السلاطين الذين جلسوا على عرش فارس فى هذه الفترة ، إذ الواقع أن هؤلاء الأمراء كانوا يستعملون لغتهم القومية ، وعلى وجه الخصوص فى المحادثة . هذا إلى أن رشيد الدين كان مضطرا ، كما سنرى ، إلى أن يقرأ ويفحص ، بعناية تامة ، الحوليات والمذكرات الأخرى المكتوبة باللغة المغولية ، كما أنه هو نفسه يحدثنا [1] بأنه ترك عدة كتب بهذه اللغة .

أما فيما يتعلق بالتركية ، فإن مؤلفنا كثيرا مايتكلم عنها ويورد الكثير من ألفاظها إلى حد يستحيل معه ألا يكون على معرفة عميقة بها .

وأما العبرية ، فهناك أسباب هامة تحملنا على القول بأن رشيد الدين كان يعرفها . ولن نستشهد هنا بهذا الخطاب الذى نسب إلى رشيد الدين ، وكان، مكتوبا بالحروف العبرية . لأنه من الممكن جدا أن تكون الحروف عبرية واللغة عربية أوفارسية . ولكننا نرى رشيد الدين فى محاجة له ضد اليهود ، يتكلم عن فقرات اقتبسها من التوراة ، ويقدم لها بهذه العبارات [2] :

(١) المجموعة الرشيدية ، مخطوطة عربية ٣٥٦ ، ورقة ٢١٣ ظهر .
(٢) المجموعة الرشيدية ، مخطوطة عربية ٣٥٦ ، ورقة ١١١ وجه .

«سنترجم هـذه الفقرات إلى العربية أو إلى الفارسية تبعا لمـا إذا كنا سنكتب كتابنا بهذه اللغة أوتلك ، وكذلك حتى يستطيع قراءتها وسماعها كل من لايعرفون اللغة العبرية » . ونراه فى موضع آخر يذكرفقرة من سفرالتكوين ثم يضيف قائلا[١] : « هذا النص العبرى معناه ، إذا ترجم إلى العربية :« إنى نادم على أن خلقتهم » . ومن اليسير أن نعرف أن المؤلف يشير بتلك الجملة إلى هذه الـكلمات[٢] : נִחַמְתִּי כִּי עֲשִׂיתִם وفى مكان آخر يذكر بالحروف العربية كلمة « يوبل » ومعناها السنة الخمسين[٣] : من الواضح أن هـذه الـكلمة العبريه « יוֹבֵל » المستعملة فى سفر الخروج[٤] ، والتى منهـا الـكلمة الفرنسية jubileé » . و بعد ذلك بقليل يـكتب هذه العبارة[٥] : « إن كلمة « عولوم » עוֹלָם التى ترد فى النص العبرى للتوارة ، وتفسر بمعنى « الأبدية » تدل ، فى جميع الفقرات التى ترد فيها ، إما على فترة متباعدة وإما على فترة قريبة . كما أنها تدل أيضا على « العالم » ؛ وفى التوارة كما فى جميع الـكتب المـكتوبة بالعبرية تقابل كلمة « عولام » كلما كان الأمر بصدد العالم وحالاته المختلفة . وسواء أكانت هذه الـكلمة تدل على « الأبدية » أم على « العالم » فإنها لاتتغير ، و يمـكن تفسيرها بأحد هذين المعنيين على التساوى .

---

(١) المرجع السابق ، ورقة ١١٢ وجه .
(٢) سفر التـكوين ، إصحاح ٦ ، آية ٧
(٣) المخطوطة العربية رقم ٣٥٦ ، ورقة ١١٤ ظهر .
(٤) إصحاح ٢٥ ، الآيات ١٠ ، ١١ ، ١٢ .
(٥) المخطوطة العربية رقم ٣٥٦ ، ورقة رقم ١١٤ ظهر .

وتجمع « عولام » على « عولاميم » وحينئذ يـكون معناها « العوالم » ، وكثيرا ما تستعمل تلك الـكلمة فى هـذا المعنى ، إما فى صيغة المفرد و إما فى صيغة الجمع دون أى فرق » . وفى مكان آخر يتـكلم رشيد الدين بالتفصيل عن العقاب الذى يوقع لدى اليهود على المرأة المتهمة بجريمة الزنا ، و يلاحظ أن مثل هـذه المرأة تسمى فى العبرية « سوطا » [1] ، وهـذه هى الحقيقة ، وأخيراً يلاحظ أن اليهود يدلون على المجد بـكلمة « كؤود » أى כָּבוֹד [2]

وتـكفى هذه الأمثلة التى يمـكننا أن نذكر منها الـكثير للدلالة على أن رشيد الدين كان يعرف اللغة العبرية .

أما بالنسبة للغة الصينية ، فإنى لم أجرؤ على إصدار رأى قاطع بصددها ، إذ يبدو لى أن الأمر هنا لازال موضع شك . نعم ، إن مؤلفنا كثيرا مايذكر كلمات صينية و يفسرها ، كما سترى أنه استخدم التواريخ الصينية ، وأنه أدخل فى مجموعة مؤلفاته رسالتين فى الطب كتبتا فى الأصل باللغة الصينية ، ثم ترجمتا إلى العربية والفارسية . ولـكنه لما لم يذكر أنه هو صاحب هاتين الترجمتين ، فقد يحق لنا أن نفترض بأنه عهد بهما إلى شخصين صينيين سنتـكلم عنهما فى غير هذا المـكان ؛ وكانا فى بلاط غازان خان ، و يعرفان الطب معرفة تامة .

ومن بين المواهب التى جادت بها الطبيعة على رشيد الدين موهبة استوحذ

---

(١) المخطوطة العربية رقم ٣٥٦ ، وورقة رقم ١١٥ وجه .

(٢) المرجع السابق ، وجه ١١٦ وجه .

عليها فى أعلى درجاتها ، وأعنى بها موهبة الكتابة بسهولة لاحد لها . ويحكى هو نفسه عن هذا الأمر مايشبه المعجزات فحينما كتب الرسالات التى يشرح فيها أمية محمد ، لم يكلفه تحريرها أكثر من نصف ساعة[1] إذ يقول مامعناه: بعد ذلك بزمن ما طلب السلطان ألجانيو من علماء حاشيته أن يخبروه أيهما يفوق الآخر ، العقل أم العلم . فأجاب كل منهم بما ارتآه . ثم سئلت بدورى : وكان السؤال شائكا ؛ لأن هذا الموضوع لم يكن قد طرأ بخاطرى قط . وبعد لحظة من التفكير ، عرضت على المجلس ماقادنى إليه البحث العاجل. ولكنى بعد ذلك تأملت الموضوع على مهل و بقدر ماتسمح لى به مشاغلى المختلفة ، فتكاثرت على الأفكار ، إلى درجة أنى استطعت أن أملأ بها عشرين ورقة من ورق بغداد فى ظرف ثلاثة أيام أو أربعة . هذا وفى غمرة الصعاب والمشاغل العديدة التى تفرضها علىّ واجبات منصبى ، وبالرغم من أنى أنفق جل وقتى فى خدمة السلطان وتصريف الأمور وتحرير الرسائل من جميع الأنواع إلى حد أنى لا أجد من الوقت إلا لحظات خاطفة ، فقد عملت على الاستفادة من هذه الفترات القصيرة واستطعت فى ظرف أحد عشر شهرا أن أؤلف ثلاثة كتب ضخمة ، وهى « كتاب التوضيحات » « ومفتاح التفاسير » « والرسالة السلطانية » ، فضلا عن عدد كبير من الرسائل التى تدور حول المواضيع المختلفة والمسائل الدقيقة . ويقول رشيد الدين فى مكان آخر مامعناه[2] إن تحرير هذه الكتب الثلاثة لم يستغرق منه أكثر من ثمانية أشهر .

---

(١) المرجع السابق ، ورقة ٢٨٩ وجه ، ٢٩١ ظهر .

(٢) المخطوطة العربية رقم ٣٥٦ ، ورقة ١٢١ ظهر ، ١٢٣ وجه .

فلولم يكن مؤلفنا رجلا صادقا ، ولولم يذكر الخبر نفسه فى مواضع عديدة لاتجه المرء إما إلى الشك فى قوله ، و إما إلى اتهامه بالمبالغة بعض الشىء ؛ إذ يبدو أن المجموعة التى يتكلم عنها قد تتطلب سنين عديدة من التفكير المتواصل . ولكن ممايلفت النظر أيضا أن هذه المؤلفات تكشف فى مواضع مختلفة عن بعض آثار للسرعة الشديدة التى كتبت بها ؛ إذ أن المؤلف كثيرا مايعتمد على خياله ، كما أن استدلالاته لاتبدو دائما متينة الترابط متجهة إلى نتائجها فى خط مستقيم . وأما أسلوبه فقد يصرف عنه القارئ فى بعض الأحيان بسبب إطنابه .

و يقول رشيد الدين إن هذه السهولة الخارقة فى الكتابة لم تكن لديه موهبة طبيعية ، ولكنه لما نشر رسالته (١) التى حاول فيها أن يبرهن على أن أمية محمد صلى الله عليه وسلم كانت أمرا إلاهيا وبرهانا قاطعا على صدق رسالته ، أراد النبى صلى الله عليه وسلم أن يجازيه على تحمسه وحسن فعله ، فأنار بصيرته ووهبه تلك القدرة الثمينة على التفكير من غير عناء فى المسائل المجردة والتعبير عن نتائج تفكيره بوضوح وسرعة فائقتين . وأعتقد أنه يمكننا ، دون أن نتهم بالإسراف فى التشكك ، أن نرتاب فى سبب هذه الموهبة لافى حقيقتها . فليس مما يستغرب أن يكون رشيد الدين قد وهب عقلا واعيا وخيالا خصبا ، فاستطاع مع الزمن وطول التفكير أن يعتاد تحرير أفكاره ،

(١) المخطوطة العربية رقم ٣٥٦ ، ورقة ٢٨٩ وجه .

وأن يكون فى الفترة التى نحن بصددها قد استجمع قواه بعض الشىء، فبدأ يكتب قطعا متتابعة؛ وأن يكون قد شعر فى نفسه بتفتح موهبة لم يكن هو نفسه على بينة من وجودها لديه . ولكن ذلك كله لايحتاج إلى الاعتراف بتدخل النبى لإيجاده . ومهما يكن من شىء فإن رشيد الدين لم يتجه إلى التأليف إلا فى وقت متأخر [١] . كان مشغولا بإدارة المملكة ، محصورا فى تواضعه الجم ، مقتنعا بأنه لم تتوفر له الموهبة والمعارف الكافية التى تجعله يقتفى أثر الكتاب الذين يفخر بهم وطنه ، فضلا عن تهيبه النقد الذى يتعرض له كل من يتناول القلم ، لذلك كله فضل التفكير فى صمت . فكان لايكشف عن شىء من ثمرات تفكيره إلا فى محادثاته العلمية مع السلطان أومع عدد محصور من الأصدقاء ، حتى قام غازان خان الذى قدر مواهب مؤلفنا الحقيقية بتكليفه بعمل هام ،وهو تأليف تاريخ للمغول . ولما كان هذا الكتاب أهم مؤلفات رشيد الدين دون منازع ، والعمل الحقيقى الذى استحق به عرفان العصور اللاحقة ، فإنى أطمع من القارىء فى أن يسمح لى بإيراد بعض التفاصيل التى لاتخلو من فائدة ، وأن أعرض؛رواية عن المؤلف نفسه إلى حد كبير؛ البواعث التى دفعته إلى القيام بهذا المشروع النافع ، والمبادىء التى أبنى عليها تحرير حوليات تلك الأمة الكبيرة .

كان رشيد الدين ، كما ذكرنا ، قد استحق ثقة غازان خان واحترامه إلى

---

(١) المرجع السابق ، ورقة ٥٤ وجه .

أقصى درجة . وكان هذا السلطان يجمع بين رجاحة العقل وسعة المعارف والحب الشديد لأمته ، فاستطاع فى مدة حكمه القصيرة أن يصدر — فى جميع فروع الإدارة — طائفة من النظم الحكيمة المفيدة فى آن واحد . وأراد أن يكشف للمغول عن تاريخهم الحقيقى فرسم هذا المشروع ، وعمل على إخراجه من زوايا النسيان : وذلك أنه كان يتحرق أسى ، إذ يرى مواطنيه وقد انحدروا من هذه الناحية فى هوة عميقة من الجهل المشين ، وأن أعلامهم طبقة قدصاروا بالنسبة لهذا الموضوع هم والسوقة سواء بسواء لايعرفون من تاريخهم إلا أوهاما وأساطير، وأن الأمراء والكبراء قد بعدت بهم الشقة عن مهد أسلافهم ، فأصبحوا لايبالون بأنسابهم ولايمجد آباءهم الذين اختفت أسماؤهم نفسها من ذاكرة أبنائهم الجحودين ، وأوشكت أن تتلاشى فى ظلمات النسيان والإهمال . ورأى أن المغول لم يعد يحفزهم مطمح نبيل أوتهز نفوسهم كبرياء وطنية مشروعة ، ونقول مشروعة ، لأنها تقوم على سلسلة من أعمال البطولة والانتصارات الهامة، كما أدرك أنهم أخذوا شيئا فشيئا يعتنقون دين المغلوبين ، ويتخذون من نسائهم زوجات لهم ، وأنهم على وشك التلاشى فى غمرة الأمم العديدة التى تحيط بهم والتى زودوها بكثير من القوانين والتشريعات . وتحقق ، من جهة أخرى ، من أن الفتوحات المغولية الهائلة لاتزال غير معروفة على حقيقتها من شعوب الشرق ، وأن الأخبار الجافة الغامضة المتنافرة المتناثرة التى كتبت تحت تأثير الاضطهاد والبغض وعلى بعد شاسع من الأماكن التى كانت مسرحا

لتلك الحوادث ، لايمكن أن تقدم عن هذا الموضوع إلا سلسلة من المعلومات ناقصة غير صادقة . ومع ذلك فليس هناك فترة أخرى من فترات التاريخ تقدم مثل هـذه السلسلة الهائلة المتتابعة الحلقات المتلاحقة العرى من الـكوارث المتنوعة المروعة ، أومثل هـذه المجموعة من الفتوح التى تشبه الأساطير والتى لاتدانيها فتوح الإسكندر وفتوح الرومان ، أوهـذا التجمع الغريب لضروب الإفراط من كل نوع ، مابـين أعمال وحشية ، وفظائع تثير القلب والعقل ، تصحبهما أعمال ناصعة البطولة ، وأفعال ملأى بالشجاعة والرجولة والنبل ، وانتصارات تشبه المعجزات ؛ ولاسيما إذا عرفنا أن المغول كانوا حتى ذلك الحين من أبعد الناس عن المواهب التى يتطلبها الفن الحربى ، وأقلهم معرفة بخدع الحصار . فها هو ذا مجرد زعيم قبلى محصور فى إقليم صغير من أقاليم الشرق الأقصى ، يوسع مجاله شيئا فشيئا بفضل شجاعته فى إخضاع الأقوام التى تقطن مجاهل بلاد التتار المترامية الأطراف، ثم ينطلق كالصاعقة فيقضى على إمبراطورية عظيمة يحكمها عاهل مولع بالحرب خبير بفنونها ، ويأخذ أمنع المدن التى تدافع عنها جيوش بأسرها ويفتحها عنوة بالرغم من ارتفاع أسوارها . ويرى الشجاع جلال الدين نفسه وقد حلت به الهزيمة فى موقعة منظمة على شواطئ نهر مكران (مهران) فيضطر ، لـكى ينجو بحياته ، أن يعبر هـذا النهر سابحا ، تاركا للمنتصر نساءه وأفراد أسرته . ثم يذهب ذلك المحارب المغوار نفسه هائما على وجهه فى نفس الأقاليم التى كانت من قبل تعج بكتائبه العديدة ، ومن

ورائه عدو لايكل ؛ حتى إذا رأى أن الهزائم تتبعه حيثما حل ، استسلم لموت يليق بمغامر أكثر مما يليق بعاهل عظيم . وذلك أن جيشا يتكون من عشرين ألف محارب من المغول غامر بالدوران حول بحر الخزر ، وهى مغامرة لم يحاول القيام بها أحد من قبل ، ولم يقدم على مثلها من بعد إلا جيوش تيمور. وفى خلال عدد محصور من السنين ، أصبحت آسيا كلها تقريبا تحت إمرة هؤلاء الفاتحين ــ المرهوبى الجانب . وأصبح جزء ما من القارة الأوربية هى الأخرى تغطيه الخرائب ويعترف بالفاتحين الجدد سادة له : وارتاع ملوك هذا الجزء من العالم أمام غزو هذا العدو الذى عدوه أخطر من غزو إتلا (Atella) ، فسارعوا يحاولون وقف العاصفة ، وتحويل اتجاه ذلك السيل الجارف الذى كان يبدو أنه لايمكن لسدود أو لحواجز أن تقف فى طريقه .

ومع ذلك فإن هؤلاء المغول لم يكادوا يختلطون بالشعوب المهزومة ، حتى تخلصوا من وحشيتهم القديمة ، وراحوا يسيرون فى طريق الحضارة بخطى تدريجية فقد قام چنگيز خان بإعطائهم قوانين تنظم سلوكهم . وثابر أوكتاى على متابعة خطط والده العظيمة ، وعرف كيف يجمع بين شجاعة الجندى المقدام وفضائل الملك العظيم ويظهر فى أثناء حكمه الذى لم يطل مداه ، مع الأسف الشديد ، من التسامح والسخاء مالم يكن لأحد أن ينتظر وجوده فى صحارى مغولستان . واستطاع قوبيلاى أن يفوز بإعجاب الصينيين أنفسهم ، بفضل صفاته النادرة ومعارفه الواسعة وحكمة حكومته البالغة .

هـذا ، بالاختصار ، جزء صغير من الأعمال الرائعة التى يقدمها لنا تاريخ المغول . ولا شك أن المرء يشعر شعورا قويا ، بأن مثل هـذا التتابع من الأحداث يستحق تسجيلا نزيها مفصلا ، وأن مثل هذا الـكتاب لايهم المغول وحدهم ، بل يهم جميع شعوب الأرض من وجوه شتى . وهذا ، إذن ، ما حدا بغازان خان أن يقدم للمغول تاريخا لوطنهم .

وكان بعض الـكتاب قد حاولوا أن يقوموا بهذا العمل ، وقد أصابوا نصيبا من التوفيق يختلف باختلاف الأحـوال . فأورد ابن الأثير فى كتابه المسمى « بالـكامل » عرضا مختصرا لفتوح المغول ؛ ولـكن التحفظ والحـذر منعاه من التعرض لتاريخهم القديم ، فاعتصم بالصمت التام عن فتوح چنـگيزخان الأولى ، وقنع بأن يبدأ سرده بحكاية الحرب التى شنها هذا الفاتح المخوف فى ولايات سلطان خوارزم . واقتفى ابن الفرات أثر ابن الأثير . أما محمـد بن النسوى الذى كان يعمل كاتبا للسلطان جلال الدين منكبرتى والذى ندين له بتاريخ جيد جدا لهذ السلطان ، فقد حاول أن يجمع بعض التفاصيل حول السنين الأولى لحـكم چنگيزخان ، ولـكن هذا الـكاتب الممتاز كان مفعما بالبغض نحو أولئك المغول القساة الذين رأى عرش سيده ينهار تحت شبا سلاحهم ، كما كان نهبا للاضطراب والمهالك التى كانت تهدده بها حياة المخاطرات ، محاطا من كل جانب بالخرائب وآثار المذابح ، لاتطرق آذانه إلا أخبار الفتح وصيحات اليأس ؛ ولذلك كله لم يكن لديه من الوقت ولا من الرغبة مايحفزه على بذل

المجهود والقيام بالمباحث العميقة من أجل تاريخ هؤلاء الأعداء المخوفين . ومن ثم كانت السطور القليلة التى خصصها لتاريخ المغول البدائى تحتوى على سلسلة من التفاصيل المبتورة التى تنقصها الدقة .

وقد جمع أحد المؤرخين الفرس ، المسمى عبد الله البيضاوى ، بعض الأخبار الخاصة بالمغول وضمنها كتابه الذى جعل عنوانه « نظام التواريخ » ولكن هذا العمل لم يكن إلا تخطيطا سطحيا يكاد يخلو من أى تفصيل ، وكل مانستطيع العثور عليه فيه ينحصر فى تواريخ الأحداث الرئيسية . وهناك مؤرخ مدقق ، وهو « علاء الدين عطاء الملك الجوينى » الذى شغل بعض المناصب الهامة واستطاع بفضل رحلاته العديدة أن يجمع بعض الروايات الغريبة الصادقة من مهد الإمبراطورية المغولية نفسه ، فحاول أن يخطط تاريخا لفتوح چنكيزخان وخلفائه . ولكن هذا الكتاب ذا القيمة النادرة الذى اتخذه كثير من المؤرخين مرشدهم الوحيد ، ينقصه الكثير مما يتعلق بالسنين الأولى لعهد چنكيزخان ، إذ أن هذا المؤلف الفارسى قد أهمل ذكر الروايات المغولية الخاصة بأسلاف هذا الأمير وسابقيه ،والتى تصل فى سردها حتى الأزمنة الأسطورية ، ولعل السبب فى ذلك أنه لم يتأت له أن يجمع من هذه المادة إلا أخبارا شديدة الغموض غير جديرة بإثارة شوق القراء . لذلك لانجد فى تاريخه شيئا يتعلق بأصل القبائل المغولية المختلفة ، أو بأنساب الأمراء والرؤساء وغيرهم من الشخصيات ذات المكانة الرفيعة .

وهناك مؤرخ آخر عاش بعد عطاء الملك ، وأخذ على عاتقه أن يكمل كتابه ، وهو عبد الله بن فضل الله الذى ألف ذلك التاريخ المشهور المسمى « بتاريخ وصاف » . ولكن هذا المؤلف لم يكن قد نشر شيئا فى حياة غازان خان ، بل كان يثابر فى صمت ، على جمع مادته وتصنيفها ، ويعمل على ملء ذلك الإطار الجميل بأسلوبه الأنيق . ولكن بالرغم من أن هذا الكتاب يقدم لنا تفاصيل قيمة حول الحوادث ، فإننا إذا نظرنا إلى فقراته الطويلة التى لاتكاد تنتهى ، وأسلوبه المسجوع الملىء بالمجازات والاستعارات الجريئة ، واقتباساته العديدة من الشعر العربى ، واستطراداته التى لاجدوى منها فى غالب الأحيان ، اقتنعنا بأن المؤلف كان يحرص على لقب « الكاتب البليغ » أكثر مما يحرص على لقب « المؤرخ » ، وأحسسنا أن مثل هذا الكتاب الذى لا يستطيع فهمه إلا من ارتوى أوفر قسط من الثقافة الأدبية ، غير جدير بأن يقدم للقراء من مختلف الطبقات سردا سهلا جذابا ومفيدا فى آن واحد . هذا فضلا عن أن المؤلف لم يحاول ، كما أشرنا من قبل ، أن يرجع ببحثه إلى ماوراء الفترة التى توقف عندها عطاء الملك .

لكل هذه الأسباب كانت الحاجة لاتزال ماسة إلى كتابة تاريخ جيد للمغول ، ولا سيما فيما يتعلق بالأزمنة القديمة ، وفتوح جنكيزخان الأولى ، وتصنيف القبائل المغولية وتحرير أنسابها ، وقد عقد غازان خان العزم على سد هذه الحاجة . ولم تكن المادة هى التى يحتاج إليها تحقيق هذا المشروع ، بل

كان يحتاج بالأحرى إلى كاتب عالم محقق ينسقها وينظمها . إذ كان يوجد فى سجلات الإمبراطورية المغولية فى فارس حوليات مكتوبة باللغة المغولية ، وفيها تذكر حوادث التاريخ الوطنى الرئيسية والروايات المختلفة ، سواء أكانت حقيقية أم زائفة ، وكلها تروى بشىء من البسط ، إن قليلا وإن كثيرا ، ولم يكن قد أتيح لكاتب حتى الآن أن يستفيد من هذه الأوراق التى تكون عدة كراسات غير منظمة تنظيما حسنا ، وإن كانت تحتوى على كثير من المعلومات ذات القيمة العليا .

هذا إلى أن الأسر المغولية الكبيرة كانت تحتفظ ببعض الوثائق الحقيقية، وقوائم الأنساب المتصلة بعض الشىء ، والروايات التى يختلط فيها التاريخ العام بالتاريخ الخاص ، وهذه هى المادة الحقيقية التى كان لابد من استخدامها لكتابة تاريخ مفصل للإمبراطورية المغولية . وكان غازان خان شديد الولع بأن يضيف اسمه إلى هذا المشروع الذى يجمع بين الفائدة العلمية والتاريخية فى آن واحد . هذا إلى أن ذلك الأمير الراجح العقل كان لا يجهل أنه لم يكن للمغول أن يوهموا أنفسهم بأنهم سيظلون سادة الفرس ، وكان يحس جيدا أنه لابد للشعوب المغلوبة أن تطرد الفاتحين إن عاجلا وإن آجلا ؛ أو أن — أولئك الفاتحين الذين يضطرهم وضعهم إلى الزواج من نساء فارسيات ، والذين أخذوا يخضعون بدورهم لسيطرة المتعة والبذخ ، وراحوا يعتنقون الدين الإسلامى بالتدريج ، لابد لهم أن يفقدوا شيئا فشيئا طابعهم الأجنبى وقسوتهم وشجاعتهم

الباسلة ، وأن ينتهوا باتخاذ اللغة الفارسية بدلا من لغتهم . وفى النهاية كان من المفروض أنه لابد أن يأتى يوم تعصف فيه الأطماع بقوانين المملكة ، ويسعى المتنافسون الطامعون إلى التنازع على العرش بقوة السلاح ، وتغرق الإمبراطورية فى تيار جارف من فظائع الحرب الأهلية . وإذا تأتى لمثل تلك النبوءات أن تتحقق ، فمن الواضح ، فى هذه الظروف ، أن تهمل الوثائق التاريخية المحفوظة فى السجلات العامة والخاصة ، كما لو كانت أوراقا عديمة النفع ، وتصبح فريسة لدود الأرض ولهب النار . فكان العاهل العظيم يقول فى نفسه إنه ليس هناك إلا طريقة واحدة لمنع مايترتب على تلك الكارثة المحتومة من نتائج مفزعة ، وإنه يجب استخلاص أصدق ماتحتوى عليه هذه المادة خاصا بأصل التاريخ المغولى ، وترتيبه فى صورة حوليات تكتب باللغة الفارسية ، لتكون قصة مفصلة صادقة تنقل إلى الخلف تلك الأعمال الجليلة التى قام بها جنكيز خان وأسلافه وخلفاؤه . ولم يتردد السلطان فى اختيار الكاتب الذى يوليه هذه الثقة الغالية والتقدير الكبير ، فاتجه إلى رشيد الدين وعهد إليه بفرز السجلات ، وجمع الحقائق التاريخية وترتيبها ترتيبا زمنيا ، وبأن يضيف إليها كل مايستطيع الوصول إليه فى مؤلفات المثقفين أو فى أحاديثهم ، إذا كان هؤلاء قد عنوا بالبحث فى تاريخ المغول . فأقبل الوزير على تحقيق الالتزامات التى ألقاها مليكه على عاتقه بكل نزاهة ودقة . وكان يقبل على هذا العمل بهمة تدعو إلى الإعجاب حقا ، بالرغم من اشتغاله الدائم

بالمهام العديدة التى تتطلبها إدارة إمبراطورية عظيمة . إذ يذكر دولت شاه[1] ، رواية عن رشيد الدين نفسه ، أنه لم يكن يعمل فى هذا الكتاب إلا بعد صلاة الفجر من كل يوم حتى شروق الشمس ، حيث إن شئون الدولة كانت تستغرق منه كل أوقاته الأخرى .

كان كتاب التاريخ قد قارب تمامه حين وافت غازان خان منيته فى سنة ٧٠٣/١٣٠٣–١٣٠٤ . وخلفه على العرش أخوه « ألجايتو » أو « خدا بنده » . ولم يكتف هذا العاهل بإظهار رضائه التام عن الخطة التى وضعت للكتاب ، والطريقة التى نفذت بها ، حتى أصدر إليه الأمر بمراجعته المراجعة الأخيرة ، بل طلب إليه أيضا أن يكتب عرضا عاما كاملا بقدر الإمكان لتاريخ جميع الشعوب التى عرفها المغول ، ويضيف إليه وصفا مفصلا لكل شعوب الأرض ، وأن يلحق هذين العملين بكتاب تاريخ المغول ليكونا تكملة له ، وليتيحا فى نفس الوقت لجميع طبقات القراء فرصة الاطلاع على معلومات منوعة ومتينة فى آن واحد . وقبل رشيد الدين أيضا أن يقوم بهذا العمل الضخم الذى قد يخيف أعظم الكتاب كدا ومثابرة . ولم تمض سنوات حتى كان قد انتهى من مهمته ، لأننا نعرف أن الكتاب كله كان قد تم فى سنة ٧١٠/١٣١٠–١٣١١ ، تحريرا ونسخا وتجليدا ، وأودع مكتبة المسجد الذى كان رشيد الدين قد بناه فى مدينة تبريز . ولكننا من جهة أخرى ، نعلم من مؤلف كتاب « تاريخ وصاف »[2]

(١) تذكرة الشعراء ، مخطوطة فارسية رقم ٢٥٠ ، ورقة ٨٣ ظهر .

(٢) المخطوطة ، ورقة ٤٢٧ ظهر .

أن مؤلفنا قد واصل عمله حتى سنة ٧١٢/١٣١٢–١٣١٣ . غير أنه من المحتمل ألا يكون هـذا الخبر يعنى غـير الجزء الخاص بتاريخ ألجايتو أو خدا بنده . و يبدو من رواية لحيدر الرازى [1] أن تاريخ الهند الذى يكوّن جزءا من هذا التاريخ الضخم قد تم تأليفا فى سنة ٧٠٣/١٣٠٣–١٣٠٤ ، أى فى نفس السنة التى كلفه فيها العاهل الجديد بهذا النوع من البحث . وسمى الـكتاب بأكمله « جامع التواريخ » . وكان المجلد الأول منه الذى يمكن اعتباره عملا منفصلا، قد سمى « تاريخ غازانى » باسم السلطان الذى ألف تحت رعايته وأهدى إليه . قد عبر رشيد الدين عن عمله فقال مامعناه [2] : أستطيع أن أشهد لنفسى بأنى لم أدخر أى احتياط أو جهد فى تحرى الحقيقة والامتناع عن كتابة كل ماهو زائف أو مشـكوك فيه . وقد اقتبست ، دون أى تغيير ماانطوت عليه أصدق الوثائق الخاصة بكل شعب ، والروايات التى حازت أحسن التقدير ،والمعلومات التى استقيتها من أعلم الرجال فى كل قطر . وفتشت كتب المؤرخين ورجال الأنساب . وحققت هجاء اسم كل أمة وكل قبيلة . ثم رتبت المواد التى جمعتها على نظام منهجى لم يتبعه أحـد قبلى ، ومن شأنه أن ييسر تناوله على جميع قرائه » .

وليس لى أن أذكر شيئا أكثر من ذلك عن مؤلف رشـيد الدين

(١) مخطوطة المـكتبة الملـكية ببرلين ، ورقة ٦٨٢ ظهر .
(٢) المخطوطة العربية رقم ٣٥٦ ورقة ١٣٥ وجه ، ٢٠٤ ظهر .

التاريخى ، إذ أن مقدمة المؤلف نفسها تعرض خطة الكتاب وطريقته والدوافع التى أدت إلى تأليفه ، وسنثبت فيما يلى محتواها :

كتاب جامع التواريخ يشتمل على أربعة مجلدات : المجلدة الأولى التى تسمى بتاريخ غازان تشتمل [1] على قواعد وديباجة وفصول فى شرح أحوال بدايات ظهور الأقوام الأتراك ، وتعداد قبائلهم ، وذكر الملوك والخواتين والأمراء المعتبرين من كل قوم منهم ، ماضين أو باقين ، وشرح أمكنة كل طائفة منهم ، وذكر تواريخ أجداد چنگيز خان ، وذكر تواريخه ، وذكر أولاده وأحفاده المستولين على أكثر الأقاليم إلى تاريخ دولة سلطان الإسلام ألجايتو خلد الله ملكه (وسيأتى ذلك فى المجلد الثانى) ، وذكر خواتين كل منهم وذكر أولادهم وشعب أنسابهم ؛ وذكر تواريخ الخلفاء والملوك والسلاطين والأتابكة الذين كانوا فى عصرهم ؛ وذكر الحوادث والنوادر الواقعة فى عهد كل منهم ، وذكر الأخلاق الحميدة والشيم المرضية المنسوبة إلى كل منهم .

المجلدة الثانية تشتمل على ديباجة وشرح تاريخ سلطان الإسلام ألجايتو ، خلد الله ذكره ، من لدن ولادته إلى يومنا هـذا ، على وجه يلحق بذلك الكتاب تاريخ دور سلطنته المخلدة يوما فيوما ، وذكر مجمل تواريخ الأنبياء والخلفاء والسلاطين وملوك العالم من ظهور آدم عليه السلام إلى الآن ؛ ومفصل تواريخ أقوام الأقاليم التى لم تكن نسختها إلى الآن فى هذه الولايات ، وإنما

(١) المخطوطة العربيه برقم ٣٥٦ .

نقلناها نحن من كتبهم ؛ وذكر تواريخ أهل الكتاب من اليهود والنصارى، وذكر تواريخ السلاطين الماضية والملوك المعتبرين من تلك الممالك ، وذكر تاريخ الملاحدة ، إلى غير ذلك من الفوائد .

المجلدة الثالثة تشتمل على ديباجة ، وتفصيل شعب الأنبياء والملوك والخلفاء والقبائل والأقوام والصحابة من لدن عهد آدم إلى آخر خلفاء بنى العباس ؛ وأنساب أجداد جنكيز خان وقبائلهم ؛ وأوضاع طبقات القياصرة وغيرهم من ملوك النصارى وأسمائهم ومدة ملكهم بموجب ماورد فى كتب أولئك الأقوام وتواريخهم على وضع غريب وترتيب قريب اخترعه المصنف المذكور غفر الله له وأعز أنصاره .

المجلدة الرابعة تشتمل على ديباجة ، وتفصيل حدود الأقاليم السبعة وولايات ممالك العالم وكيفية أوضاع معظم البلاد ومواقع كل منها من البحار والبطاح والأودية الواطئة والجبال الشاهقة المشهورة الواقعة فى الأقاليم والممالك والولايات، باعتبار أطوال البلاد وعروضها الموضوعة فى الكتب؛ وبعد تحقيقها واستعلامها من أرباب الخبرة وأصحاب العيان ، بحيث لايكون بين ماوضعناه وبين ماهو فى الواقع تفاوت . وقد ذكرنا أيضا فيه منازل البريد (اليامات) وتصوير كل منها ، على ضوابط اخترعها المصنف ضاعف الله اقتداره .

***

اتبعت هنا ترتيب الكتاب على النحو الذى ذكره رشيد الدين نفسه .

ومع ذلك ؛ فإنى أعترف بأنه لايذكر فى المقدمة التى فى أول تاريخه وفى عدة فقرات أخرى من الكتاب إلا ثلاث مجلدات ، لأنه هنا يجمع فى مجلدة واحدة كل مافى المجلدتين الثانية والثالثة ، ولكن لما كان حجم هذه المجلدة مسرفا فى الضخامة ، ولايتناسب مع حجم المجلدتين الأخريين ، فقد استحسن أن يقسمها إلى مجلدتين متساويتى الحجم تقريبا . وهذا التقسيم هو الذى اعتمده حينما أصبح ثبت كتبه كاملا .

* * *

لست فى حاجة إلى إطالة الكلام لإثبات مالكتاب رشيد الدين من أهمية ، فإن هذا الكتاب الفائق الذى ألف فى خير الظروف ملاءمة، واعتمد على وسائل لم تتوفر لأى كاتب آخر، يقدم إلى شعوب آسيا للمرة الأولى منهاجا كاملا للتاريخ والجغرافية العالميين . فحتى هذه الفترة التى نتكلم عنها لم يكن هذان العلمان قد وصلا إلى درجة التقدم التى كانت تنتظر لهما . وذلك لأن العرب والفرس كانوا قد تعودوا على نسبة كل شىء إلى أنفسهم ، والانسياق وراء عواطفهم الوطنية المتطرفة ، واحتقار المتعصبين منهم لكل مالم يكن إسلاميا ، ولذلك لم يظهروا عناية تذكر بالشعوب الأجنبية ولم يروا أنهم يستحقون بضع صفحات من كتب التاريخ إلا بكل مشقة . وإذا اتفق لأحد مؤرخيهم أن يذكر بعض التفاصيل عن الهند والصين والترك وبعض الأمم الأوربية إظهارا لسعة علمه ، فإنه كان يستقى أخباره من أردأ المصادر ، ولايعتمد

إلا على روايات زائفة وحكايات شعبية ، فيصبح تاريخه نسجا من الأساطير وضروب التناقض والأخطاء الزمنية الصارخة . ولم تكن المؤلفات الخاصة بالجغرافية أحسن حالا من تلك ، إذ لا يكاد المؤلف الجغرافى يتجاوز حدود بلاد العرب وفارس وبعض الاقاليم المجاورة ، حتى يدخل فى ميدان الأساطير . فهناك الكثير من الملاحظات غير الدقيقة والظواهر الغريبة التى لايقبلها عقل وتملأ كتب الجغرافية الفلكية ، و يتناقلها مؤلفون من ذوى المكانة السامية والعقل الراجح ، ومن ثم كان من شأنها أن تشيع أشنع الأخطاء مع إلباسها لباس الحقائق ، بل مما يلفت النظر ، أن معرفة الناس بآسيا العليا فى القرن الثامن الهجرى كانت أقل منها فى القرن الرابع ، ففى هذه الفترة ظهر كاتب عربى اسمه المسعودى ، وكان ذا عقل راجح ومعارف عميقة ، فجال بلاد الشرق كلها تقريبا ، واستطاع أن يضمّن كتابه معلومات صادقة وقيّمة فى آن واحد عن الجغرافية والتاريخ ، والتاريخ الطبيعى بجميع فروعه.

ولكن بالرغم من أن هذا الكاتب القدير قد جمع بين التوفيق فى تحرى الصدق وموهبة الملاحظة ، وبالرغم من حرصه الشديد على تفنيد الأقوال الزائفة التى أتى بها سابقوه، فإن كتاباته لم يكن له الأثر ولا السلطان اللذين تستحقهما. فقد استمر الناس من بعده يتداولون نفس الأخطاء التى أظهر لهم شناعتها العقلية . ولاينبغى أن ندهش لذلك ، إذا عرفنا أن خيال الشرقيين الوثاب

كان فى كل العصور يركن إلى الغرائب الزائفة البراقة أكثر مما يركن إلى الحقيقة العارية [١] .

نستطيع بعد هذه الملاحظات التى أوردناها حول حالة الجغرافية والتاريخ فى عصر رشيد الدين ، أن نفهم دون مشقة مقدار الخدمات التى أداها هـذا المؤلف لمعاصريه ، حـين قدم لهم تلك اللوحة الضخمة المشتملة على التاريخ الصحيح والوصف الصادق لجميع البلاد المعروفة حتى ذلك الحين. فهذا المؤلف يجمع بين سعة المعارف التى لاحد لها ، وحاسة النقد المستنيرة : و يستعيض عن لأخبار الأسطورية التى كانت ثمرة الجهل والسذاجة بأخبار أصلية صادقة ، ولذلك يجب أن يحرص على قراءته بشغف كل أولئك الذين يرغبون فى تحصيل للمعارف الحقة ، و يفضلون ذهب الحقيقة على بريق الغرائب والأخطاء .

و إذا كان فى وسع العرب والفرس والمغول أن يجدوا فى مؤلف رشيد الدين منبعا فياضا لأقوم الوثائق ، فإننا أيضا نستطيع أن نغترف منه طائفة كبيرة من المعلومات التى لانجدها فى سواه . ففيه مواضع عديدة تستطيع أن تلقى الـكثير من الضوء على تاريخ بعض البلاد الشرقية التى لاتزال معرفتنا بها على جانب كبير من النقص . ومن أمثلة ذلك تاريخ الأمم التركية المفصل ، ولاسيا تاريخ « الإيغوريين » الذى استمده رشـيد الدين من سجلات هـذه الأمم

(١) الإسراف هنا واضح ، حسبنا أنه ذكر المسعودى ليقلل من المغالاة فى حكمه . ونحن نذكر مع المسعودى كتابا من أمثال ابن حوقل والمقدسى والبيرونى والبيهقى . ثم رحالة من أمثال ناصر خسرو وابن بطوطة وابن جبير . هذا فضلا عن المؤرخين من العرب والفرس « الخشاب » .

نفسها ، تلك السجلات التى يحيل عليها فى كثير من المواضع . ولكن لعل أهم ما فى الكتاب هو الجزء الرابع الذى يدور كله حول المسائل الجغرافية، والذى يكفل لنا أن نحدد أفكارنا حول عدد لا يحصى من النقط الغامضة . وهو يوضح لنا كثيرا من الصعوبات التى لا تزال حتى الآن وستظل زمنا طويلا من المشاكل المستعصية الحل ؛ وذلك لأنه من الملاحظ أن الأقاليم التى كان فى طوق رشيد الدين أن يستقى عنها أصدق المعلومات ، هى بالذات تلك الأقاليم التى لا نكاد نعرف عنها شيئا على الإطلاق . وأعنى بهذه بالأقاليم الرقعة الشاسعة من الأرضين التى تبدأ من بحر الخزر ممتدة حتى الأطراف الشرقية لفارس ؛ وتشمل كل وسط آسيا حتى حدود الصين .

فكل هذه البلاد كانت فى ذلك الحين تكون جزءا من إمبراطورية السلاطين المغول ، تحتلها حامياتهم ، ويحكمها، ولاتهم ويجوبها من جميع جهاتها رجال البريد الذين يحملون أوامرهم بصفة دائمة ؛ فلم يعدم مؤلفنا أن يجد الوسيلة لوصفها أدق وصف وأصدقه . وقد ضمن وصفه الكثير من الملاحظات القيمة حول مواقع المدن ، وطبيعة الجو ، وغلات الأرض ، وعادات السكان الذين يقطنون هذا الجزء من الأرض الذى لم يطرق بابه أحد السائحين . فكم من فائدة جليلة يمكننا ، مثلا ، أن نجنيها من معرفة أماكن محطات البريد التى كانت منتشرة فى الإمبراطورية المغولية وتتتابع على مسافات متساوية من بغداد حتى خان باليغ التى تدعى اليوم «پكنيك» ! إذ أصبح من الممكن أن

يقدم لنا وصفه لهذا الطريق ـ عن كيفية الوصول إلى داخل آسيا ـ معلومات كاملة تفوق فى ثقتها كل ما نستطيع الحصول عليه فى كتب التاريخ والجغرافيا؛ ولذلك لا أجدنى أتحرج عن القول بأنه ربما كان خسارتنا من فقدان كتاب رشيد الدين تفوق خسارتنا من فقدان أى كتاب غيره من الكتب الشرقية التى لم تصل إلينا.

كثيرا ما نرى المؤرخين الفرس يرجعون إلى مؤلفنا، تحت اسم « جامع التواريخ » [١] أو « جامع أعظم » [٢] أحيانا، أو تحت اسم « جامع رشيدى » [٣] أو « جامع التواريخ رشيدى » [٤] أحيانا أخرى.

قد يتساءل المرء كيف تأتى لرشيد الدين أن ينتهى فى بضع سنين من مثل هـذا المؤلف الذى يبدو أنه كان جديرا باستغراق حياة أعظم الكتاب جدا ونشاطا. والواقع أنه قد توفرت لمؤلفنا، كما رأينا، مساعدات لم تكن لتتوفر لأى شخص غيره، فضلا عن سعة المعارف التى كان يتحلى بها، بادئ ذى بدء، واستطاعته الكتابة بسهولة قل أن يدانيه فيها أحد. فقد رأينا أن القصر كان يضم علماء من كل إقليم، وأن كلا منهم قد كتب موجزا لتاريخ

---

(١) خوندمير، حبيب السير، مجلد ٣، ورقة ٤ وجه، حيدر الرازى (المخطوطة الفارسية بمكتبة برلين الملكية) ورقة ٥٨٩ ظهر، ٥٩٧ ظهر،

(٢) حبيب السير، مجلد ٣، ورقة ٢ وجه.

(٣) المرجع السابق، ورقة ٣ وجه، و ٥٢ وجه، ٥٣ ظهر وغيرها، حيدر الرازى، ورقة ٥٨٥ ظهر، ٥٨٨ ظهر، ٦٨٣ وجه، وغيرها.

(٤) حبيب السير، مجلد ٣، ورقة ٧ ظهر.

وطنه ؛ ولذلك كان عمل رشيد الدين ينحصر ، بالنسبة لبعض أجزاء هـذا الـكتاب ، فى أن يتناول بالترتيب والإيجاز والتحرير تلك المذكرات العديدة التى وجدها تحت يده ، والتى كانت ثمرة لجهود جحفل من الباحثين .

ولـكن قد يقول قائل : هل رجع رشيد الدين حقا إلى الوثائق التاريخية لتلك الشعوب الأجنبية ؟ ثم ألا يمـكن أن يـكون كل ماذكره فى مقدمته عن هذا الموضوع مجرد افتراء من محتال حاذق ، لم يقم إلا بجمع سيئ لبعض المعلومات التى أوردها سابقوه فى مؤلفاتهم ، وأراد أن يستغل حسن نية قرائه ، فادعى لهم أنه جاءهم بمعلومات جـديدة كل الجدة استقاها من مصادر غير معروفة ؟ وليس عندى إلا جواب واحد على هذا الاعتراض : يذكر كاتب معاصر لرشيد الدين [١] أن هـذا (رشيد الدين) لما أراد أن يـكتب تاريخا لخطاى ، استقدم عالمين صينيين ، كانا فى حاشية ألجايتو ، أحـدهما يسمى « ليتنچى » والآخر « مكسوام » . وكانا كلاهما على علم بالطب والفلك والتاريخ ، وقد أحضرا معهما عدة كتب تبحث فى هذه العلوم المختلفة . وقد أكدا للوزير أن هناك كتابا ، من بين جميع الـكتب التى تعالج تاريخ خطاى ، يتمتع بشهرة كبيرة ويعرف بالصدق التام ، وأن هذا الـكتاب الذى يضم أسماء الملوك وحياتهم بأوسع تفصيل قد قام بتأليفه بالاشتراك فيما بينهم ثلاثة علماء ممتازون من اللامات المتخصصين : الأول يسمى (فوهين) من

(١) عبد الله البيضاوى ، النص الفارسى ، ص ٣ — ٥ .
Historia Chataïca (تاريخ خطاى)

مدينة « تاى جان چيو » والثانى (فنچو) من مدينة « كِن چيو » والثالث (شيخون) من مدينة « لاؤوكين » ؛ وأخبراه بأن هذا الكتاب المستقى من المصادر التاريخية القديمة قد قام بمراجعته وتنقيحه جميع علماء المملكة بكل عناية ، وقرروا بالإجماع أنه يطابق الوثائق الأصلية كل المطابقة ولا يضم شيئا مشكوكا فى صحته . وبعد أن قام أحد الأدباء بمراجعته مرة أخرى ، قرر أنه جدير بالطباعة على الطريقة المعروفة فى البلد . وإذا كان هذا هو الكتاب الذى استرشد به رشيد الدين فى تحريره لتاريخ الصين ، فإننا نشعر تماما بأنه لم يكن فى طوقه أن يرجع إلى خير منه .

وإذا كان قد بذل كل تلك العناية من أجل جزء من أجزاء كتابه ، فقد حق علينا الاعتقاد بأنه بالنسبة للأجزاء الأخرى لم يدخر أى وسع فى سبيل الحصول على خير المواد .

هذا إلى أن لدينا الآن الجزء الأول من كتاب رشيد الدين ، وهو الجزء الخاص بتاريخ المغول ، ونستطيع أن نشهد له بأنه كتاب ممتاز حقق فيه مؤلفه كل ماوعد به ، وبأنه الكتاب الوحيد الذى نستطيع العثور فيه على أصدق المعلومات عن حياة جنكزخان وخلفائه وعن عهودهم .

ولكن يخطر لنا هنا سؤال يجب حله ، وهو : هل الأجزاء الثلاثة الأخرى التى تكمل تاريخ رشيد الدين قد ضاعت دون أمل فى العثور عليها ، أم يصح أن نأمل فى العثور عليها بإحدى مكاتب الشرق ؟ الواقع أننا

لانستطيع إصدار جواب نهائى على هـذا السؤال ، ولـكن قد لا نـكون مخطئين إذا ملنا إلى الاعتقاد بأن البحث الذى يمـكن بذله فى هذا الصدد قد لايكلل بأى نجاح ، وأن هـذه المجلدات الثلاث لم يبق لها وجود منـذ زمن طويل .

لم أكد أجد بين المؤرخين الشرقيين الذين كتبوا بعد رشيـد الدين والذين رجعت إليهم من يشير إلى أى من المجلدات الثلاث الأخيرة لـكتاب « جامع التواريخ » . وإذا كان حاجى خليفة قد ذكر عن هـذا الـكتاب ملاحظة سطحية بعض الشئ فى كتابه عن المؤلفات العربية والتركية والفارسية ، فيبدو أنه لم ير منه إلا الجزء الخاص بتاريخ المغول على أحسن تقدير . إذ لو أنه عرف الأجـزاء الأخرى ، ولا سيما الجزء الرابع ، لحرص على الاستفادة منها فى كتابه الجغرافى المعروف باسم « جهان نما » : ولـكنه لم يذكرها فى هذا الـكتاب مرة واحـدة . كما أن « أبو الهادى بها در » الذى اعتمد على كتاب رشيـد الدين كل الاعتماد (١) وأخذ عنه بوجه خاص كل ما يتعلق بالقبائل التركية والمغوليـة المختلفة ، لايذكر كلمة واحدة غير موجودة فى المجلد الذى بين أيدينا .

ولست أتـكلم هنا عن مؤلفى العرب ، وإن لم يـكن من الممـكن الاحتجاج بجهلهم باللغة الفارسية ، إذ أن كتاب رشيد الدين ، كما سنرى فيما

---

(١) Histoire généalogique des Tatars ص ٣ — ٥

بعــد ، كان قد كتب بالفارسية والعربية فى آن واحد . ولــكن مما لا يمــكن تعليله ألا يرد أى ذكر للأجزاء الأخــيرة من جامع التواريخ فى أى كتاب من كتب الفرس الذين لاتوجد بالنسبة إليهم حتى هــذه العلة . فميرخوند وخوندمير اللذان يــكثران من النقل عن هــذا الــكتاب فى كل مايذكرانه عن المغول ، لم تــكن لتفوتهما الاستفادة من الأجزاء الأخرى ، لوكانت بين أيديهما حقيقة . وأنا أعرف جيدا أن ميرخوند قد نقل فقرات برمتها عن رشيد الدين دون أن يتنازل بذكر اسمه مرة واحدة ، ولــكن خوندمير الذى كثيرا ماينقل عن مؤلفنا فى كتابه المسمى « حبيب السير » ، ولا يهمل مطلقا إرجاع تلك المقتبسات إلى المصدر المنقولة عنه ، لم يــكن ليقتصر على الاستفادة منه بالنسبة لما يتعلق بالمغول فقط ، بل كان لابد له أن يذكر اسم رشيد الدين فى مواضع أخرى من كتابه ، ولا سيما فى الأوصاف الجغرافيــة الملحقة به ، ولــكنا لانجد له أثرا فى تلك المواضع . ويتــكلم ابن مسعود [١] عن كتاب رشيد الدين ، فيقرر أنه المصدر الحقيقى الذى يمــكن للمؤرخ أن يستمد منه المعلومات الدقيقة حول فروع أسرة چنگيزخان المختلفة ، ولــكنه لايذكر اسمه فى الأجزاء الأخرى من تاريخه مرة واحدة ، مما يدل على أنه لم يــكن يعرف شيئا عن الأجزاء الثلاثة الأخيرة من « جامع التواريخ » . وأخيرا لمـا أمر رخشاه بن تيمورلنك بإكمال تاريخ رشيد الدين [٢] ، قام كاتب مجهول بكتابة

(١) تعليقات على المخطوطات ومختارات منها Notices et extraits des Manuscrits ، مجلد ٢ ، ص ٣٨٥ .

(٢) المخطوطة العربية رقم ٦٨ أ ، ورقة ٥٥٨ ظهر .

ملحق له لازال تحت أيدينا ، ويتضمن حياة السلطانين ألجايتو وأبى سعيد . فلو كان كتاب مؤلفنا موجودا بكماله فى هذا العهد ، لكان من العبث كتابة تاريخ لحياة ألجايتو ، إذ أن رشيد الدين كان قد كتب هذا التاريخ يوما بيوم وبكل تفصيل ، وضمنه المجلد الثانى من كتابه ؛ ولما كان قد عاش بعد هذا السلطان زمنا ما ، فقد كان لديه من الوقت مايسمح له بتنقيح هذا الجزء من كتابه تنقيحا نهائيا .

ولكن فى أى فترة اختفت الأجزاء الأخيرة من جامع التواريخ ؟ لقد ذكرنا فيما سبق أنه لما مات رشيد الدين ، أسلمت إلى النهب والسلب الضاحية التى كان قد أمر ببنائها فى مدينة تبريز وأطلق عليها اسمه ، ونحن نعلم أن نسخ هذا الكتاب الأصلية كانت مودعة فى مدرسة هذه الضاحية . فمن الممكن إذن أن تكون تلك المخطوطات قد هلكت فى هذه المناسبة ، إما بسبب إمعان أعدائه فى الانتقام منه ، وإما بسبب الفوضى التى تصحب أعمال السلب عادة . ومن جهة أخرى كان هذا المؤرخ ، كما سنرى فيما بعد ، قد أوقف مبلغا ضخما من أجل إخراج نسخة من مؤلفاته كل عام ، ولما كان الأعيانت العقارية التى حبس رشيد الدين دخلها على الإنفاق على المدرسة قد ضمت إلى أملاك السلطان ، فقد كف عن تنفيذ إرادة الواقف ، وتعذر نسخ الكتب ؛ هذا إلى أن أبا سعيد الذى خلف ألجايتو لم يكن مولعا بالآداب ولع أبيه وعمه بها . كما أن الإمبراطورية المغولية فى فارس قد مزقتها الحروب الداخلية بعد موت

أبى سعيد ، وجرت إليها الخراب . ولم تكن هذه الظروف مواتية للاتجاه إلى إجراء بحوث فى التاريخ والجغرافية . وأخيراً نحن نعلم أن رشيد الدين ، بالرغم من فضائله وخدماته ، قد مات ضحية لحقد أعدائه الذين لم يقنعوا باستصدار الحكم عليه بالموت ، بل دأبوا على وصمه بأحط الاتهامات التى تسىء إلى سمعته لدى رعايا الإمبراطورية جميعاً ، ولا سيما المسلمين منهم . وبالرغم من أن أسف العاهل فيما بعد كان كافيا لإظهار براءة الوزير ، فإن الأفكار السيئة التى وقرت فى أذهان الناس عنه ، كانت قد اتخذت لها جذورا عميقة يصعب انتزاعها . فقد وقعت الواقعة ، وأصبح الناس ينظرون إلى رشيد الدين نظرتهم إلى المجرمين ، لأنه نكب ؛ وفى هذه الحال يمكننا أن نحدس بأن كتب رشيد الدين قد شملتها اللعنة التى حلت بمؤلفها ، وأن الريَب الذى أحاط بها ، لم يلبث أن سبب ضياعها التام .

لاشك أن هذه كلها حجج وجيهة ، ومع ذلك فمن الممكن معارضتها بحجج أخرى لا تقل عنها وجاهة وتحملنا على الاعتقاد بأن الكتب التاريخية التى تركها مؤلفنا لم تفقد إلى الأبد . فإن هذا الكاتب ، كما سنرى فيما بعد ، كان قد أوصى فى وثيقة صريحة بأن تنسخ فى كل عام نسخ من كتبه التاريخية والدينية ، وحبس على هذا الأمر حبوسا ضخمة حرم استخدامها لغير هذا الوجه . ونحن نعلم أن رشيد الدين قد عاش بعد هذه الوقفية ثمانى سنوات ، وأنه كان يشغل فى هذه الفترة المنصب الأول فى الإمبراطورية ، ويمكننا أن

يتأكد من أن أوامره كانت طوال تلك الفترة تنفذ بكل دقة ، وإذن فلابد أن يكون قد وجد فى وقت موته نسخ عديدة صحيحة من تاريخه ، فضلا عن النسخ الأخرى التى لابد أن يكون بعض الخواص قد قاموا بها ، إما رغبة فى العلم وإما تقربا إلى الوزير . ومن جهة أخرى ، نعرف أن غياث الدين قد شغل المنصب الرفيع الذى شغله أبوه من قبل ، ولاشك فى أنه لم يهمل تنفيذ الرغبات التى أظهرها ذلك الرجل الجليل ،وهى نشر المعرفة بمؤلفاته الأدبية التى تعتبر شرفا كبيرا للأسرة . ولذا لايعتبر صمت الكتاب الذين تقدم ذكرهم دليلا قاطعا ، والواقع أن حاجى خليفة حينما أرادأن يقوم بتأليف كتابه عن الكتب التاريخية لم يستطع أن يطلع إلا على الكتب التى وجدها فى القسطنطينية فى ذلك الحين .

فى الوقت الذى كتب فيه مؤلفنا كتابه كان الخلاف المرير والحرب العوان يسودان بين سلاطين مصر المماليك والأمراء المغوليين فى فارس ، وإذا لم تكن هذه الحال قد أدت إلى انقطاع الاتصال انقطاعا تاما بين هذه الأقاليم من جهة ، وبين مصر والشام من جهة أخرى ، فإنها على الأقل أدت إلى إضعافه وندرته طوال هذه الفترة وبعدها بزمن طويل . ومن ثم يمكننا أن ندرك بسهولة أن يكون إرسال المخطوطات المخصصة للمكاتب العامة فى إمبراطورية المماليك قد توقف أو أجل لأمد طويل فى هذه الفترة .

وإذا كان ميرخوند وخوندمير وصاحب ذيل تاريخ رشيد الدين الذى

كتب كتابه فى مدينة هراة ، لم يطلعوا على الأجزاء الأخيرة من جامع التواريخ فليس معنى ذلك ، فيما أعتقد ، أن هـذه الـكتب لم تـكن موجودة فى تلك العاصمة ، إذ ربما كان لدى هؤلاء المؤرخين وثائق أخرى ، فلم يهتموا كثيرا باستخراج بعض الـكتب المدفونة فى تراب إحدى المدارس أو أحد المساجد ، وقد لا نجد عسرا فى الاعتقاد بأنه إذا كان سلاطين خوارزم الذين كان حظهم من التعليم قليلا على وجه العموم ، قد أودعوا مكاتبهم العامة تاريخ المغمول الذى يعتبر وثيقة وطنية بالنسبة إليهم ، فإنهم أهملوا أن يضيفوا إليه بقية مجلدات الـكتاب ، لأنها لا تمت إلى تاريخ المغول بصلة قريبة . والواقع أن المؤرخ الفارسى حيدر الرازى الذى كتب فى القرن السابع عشر قد ذكر أكثر من مرة كتاب « جامع التواريخ » بصدد حوادث بعيدة عن المغول [١] ، مما يدل على أنه كان تحت يده بضع مجلدات من الـكتاب المذكور . وفى النهاية نجد لدينا دليلا قاطعا فى هذا الصدد ، إذ أنه يوجد فى حوزتنا كتاب محرر بالفارسية لمؤلف مجهول يحتوى على تاريخ عام يبدأ من فجر الخليقة وينتهى بالنبى محمد [٢] . ويخبرنا مؤلفه الذى كتبه سنة ٨٥٨ من الهجرة فى عهد شاه رخ [٣] بأن هذا السلطان كان قد طلب منه كتابة تاريخ عام للأنبياء والملوك والسلاطين ومختلف الشعوب منذ خلق آدم حتى الفترة التى يعيش

(١) مخطوطة المكتبة الملكية ببرلين ، ورقة ٦٨٢ ظهر ، ٦٨٥ ظهر .
(٢) مخطوطة فارسية بمكتبة الأرسينال ، رقم ٢٠ .
(٣) المرجع السابق ، ورقة ٣ وجه .

فيها[١] . ولما كان حريصا على إطاعة أمر السلطان ، فقد أقبل على الاقتباس من الكتب التاريخية التى حازت أسمى تقدير ، فيقول[٢] : « و بناء على ذلك أصدر إلىّ مولاى المعظم أمره بأن أكمل كتاب رشيد الدين الذى ضاع أوله. فتقدمت إلى الأمير وعرضت عليه بكل تواضع أن يشمل النصف الأول من كتابى الفترة التى تبدأ منذ خلق العالم وتنتهى ببداية الرسالة المحمدية . وقد اعتمدت فى كتابة هذا الكتاب على القراءة العميقة لكتاب رشيد الدين و كتاب الكامل للطبرى و بعض الكتب التاريخية الأخرى، ولذلك يستحسن فصل هذا الجزء الأول منه ووضعه فى مجموعة كتب الأمير . وقد أجاب السلطان مقترحى . ولذا فقد نسخ الجزء الأول الذى يشمل ربع الكتاب وأودع فورا مكتبة السلطان » .

فنرى من هذه القصة أنه كان يوجد فى منتصف القرن التاسع الهجرى نسخة كاملة من مؤلفات رشيد الدين التاريخية فى مكتبة هراة عاصمة إمبراطورية ابن تيمور ، وأن الجزء الأول من هذا الكتاب قد اختفى عرضا ، ولكن يبدو أن يكون هذا الفقدان حديثا ، إذ أن المؤلف سابق الذكر استطاع أن يقرأه و يقتبس خلاصته . غير أنه يبدو من الغريب ، على أية حال ، أن يكون كتاب بلغ هذه الدرجة من المكانة والكمال وكلف مؤلفه جهودا ووقتا ومالا لا يحصى ، قد ظل طوال خمسة قرون مغمورا بين مؤلفات لا قيمة

(١) المرجع السابق ، ورقة ٤ وجه ، ٥ ظهر .
(٢) المرجع السابق ، ورقة ٥ ظهر .

لها ، منبوذا فى زوايا نسيان لايستحقه طوال هذه القرون ، دون أن يلفت نظر العلماء الذين يهمهم إلى أقصى حد الاستفادة من هذا الكنز الفريد . ويا حبذا لو قام سائح مثقف بجوب بلاد الفرس ، و إجراء بحوث جدية بغية العثور على مجموعة المجلدات التى تكوّن مؤلفات رشيد الدين التاريخية .

وقد وجدت بين المخطوطات التى أحضرها الماجور مالكولم من فارس وقدمها إلى كلية فورت وليام [1] كتابا عنوانه « جامع التواريخ قديم » . فهل هذا الكتاب جزء من مؤلف رشيد الدين ؟ هذا مالم أستطع التحقق منه .

وقد علمت أنه يوجد بين مخطوطات المغفور له المستر رتش التى اشترتها الحكومة البريطانية وأودعتها المتحف البريطانى ، نسخة من تاريخ المغول فى مجلد ضخم يبدو أنه يحتوى ، إلى جانب هذا الكتاب ، جزءا لابأس به من تاريخ رشيد الدين العام .

و إذا كنا نعرف حتى الآن أن الجزء الأول وحده هو الذى نجا من الضياع ، فإنه لاينبغى لنا أن ندهش من ذلك ، فإن هذا المجلد يحتوى على أنساب جميع الأمراء المغوليين وتاريخهم ، ومن ثم يمكننا أن ندرك ، بسهولة ، أن يكون السلطانان ألجايتو وأبو سعيد قد عملا كل مافى وسعهما على الاحتفاظ

---

(١) Ae Dscriptive Catalogue of the Oriental Library of the Tippo Sultan Mysore, by Ch. Stuart ، ص ١٨٥ .

به ونشره ، باعتباره الوثيقة الصحيحة التى تستطيع أن تنقل إلى الخلف أعمال البطولة التى قام بها أسلافهما . وأغلب الظن أن رجال الحاشية الذين لا يدخرون وسعا فى عمل كل ما يرضى السلطان ، كانوا يتسابقون فى إظهار إعجابهم بكتاب جديد جدير بأن يخلد مجد الوطن ؛ وكان هذا يدفعهم ، فى أغلب الظن ، إلى التنافس فى نسخه ، مما عمل على نشر نسخه فى حياة رشيد الدين نفسه ، ولذا بقى ذلك الجزء حتى يومنا هذا ، بل وانتقل إلى أوربا .

ولكنى أستطيع التأكيد بأن لدينا ، إلى جانب تاريخ المغول ، موجزا على الأقل ، مما كتبه رشيد الدين عن الصين وجعله قطعة من المجلد الثانى لكتاب جامع التواريخ . فهناك كتاب صغير كتب بالفارسية ونشره أندريه ملر André Müller ـ بعنوان Historica Chataïca (تاريخ خطاى) . ويقرر المترجم أن هذا التاريخ يكون الجزء الثامن من الموجز التاريخى المسمى « نظام التواريخ » الذى ألفه عبد الله البيضاوى[١] . ولكن هذا القول لا أساس له من الصحة مطلقا ، وقد وقع فيه ملر بسبب تسليمه ، دون تمحيص ، بقول قاله ناسخ النسخة . فالواقع أن « تاريخ خطاى » ألف فى سنة ٧١٧/١٣١٧ ـ ١٨[٢] ، ولما كان البيضاوى قد مات فى سنة ٦٨٥/١٢٨٦ ـ ١٢٨٧ أو فى سنة ٦٩٢/١٢٩٢ ـ ٩٣ ،[٣] فى قول آخر ، فإنه لا يمكن نسبة

(٢) André Müller, Commentatio alphabetica ص ٢ .

(١) تاريخ الخطا ، النص الفارسى ، ص ٧ ، ٢٨ ، ٣٥ ، ٥٣

(٢) حبيب السير ، مجلد ٢ ، ورقة ٤٣ وجه .

هذا الكتاب إليه بأية حال . ومن جهة أخرى نرى أن المؤرخ الذى ندين له بهذا التاريخ ، والذى كتبه بعد موت رشيد الدين بسنة واحدة ، يشير إلى أن رشيد الدين هو المؤلف الوحيد الذى أتى بتفاصيل صحيحة عن تاريخ الصين . فمن الواضح إذن أن هذا الكاتب قد أخذ عنه كل ماأودعه فى كتابه ، هذا إلى أننا نستطيع أن نعرف مقدار ماأخذه عن رشيد الدين .

هناك على رأس تاريخ الصين قطعة فيها وصف لخطاى والأقاليم المجاورة لها وسنترجمها فيما يلى [1] :

« تتكون خطاى من عدة ممالك كبيرة تختلف أسماؤها باختلاف اللغات . فالإقليم الذى كان دائما مقرا للملوك اسمه باللغة الصينية «جانچتشوخونقوى» [2] ويعرفه المغوليون باسم « جاوقوت » والهنود باسم « تشين » ونحن نطلق عليه اسم « الخطا » . وفى شرق هذا الإقليم ، إلى الجنوب قليلا ، توجد مملكة أخرى يسميها أهل البلاد « منزى » ، والمغول « منكياس » [3] والهنود

---

(١) تاريخ الخطا ، ص ٨ — ١١

(٢) لم أتردد فى أن أقرأ « تشون قوى » بدلا من « خون قوى » كما فى النص المطبوع . والواقع أنى أعتقد أننا هنا أمام الاسم « تشسون كوى » ، (أى مملكة الوسط) ، الذى لا يزال الصينيون يطلقونه على بلادهم حتى يومنا هذا . ويمكننا أن نقرأ العبارة كلها على هذا النحو « جانزى وتشون قوى » . وتستعمل كلمة « جانزى » اسما لإقليم « شان سى » .

(٣) كثيرا مايرد الاسم الذى يطلقه المغول على الصين الجنوبية فى تاريخ رشيد الدين (ورقة ١٨ ، ٨٦ ، ١٥٠ ظهر ، ١٨٠ ، ١٨١ ، ٢٤٢ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥) . ولكنه يرد دون نقط الإعجام دائما ، ولذلك كان من العسير معرفة هجائه =

« ماهاچين » ، أى تشين الـكبرى ، وغيرهم يسميها « منشين » (ماچين) ، تبلغ هذه المملـكة عشرة أمثال مملـكة چين . ويروى الوزير رشيد الدين عن « بولاد تشنج سانج » أن مملـكة ماچين تدفع للسلطان خراجا سنويا قدره تسعمائة طومان « تسعة آلاف ألف درهم » . وتسمى عاصمتها خنساى [1] .

= الحقيق . ويقرأ فى فقرة من تاريخ ميرخوند (ج ٤ ورقة ٤٩) « تنـكياش » ولـكنا نجد الشرح الحقيقى فى نزهة القلوب (مخطوطة فارسية رقم ١٣٩ ص ٧٩٠) ففيها نقرأ هـذه الـكلمات : بلاد المنشين تسمى لدى المغول « تنـكياش » . والواقع أننا نقرأ فى الخطاب الذى أرسله السلطان « ألجايتو » إلى الملك فيلب لى بل Philippe Le Bel هذه العبارة : تنـكياسون غسار Nangkiassun ghesar (أى بلاد الصين) وانظر شمدت : Sehmidt ، Philolgisch - kritische Zugabe ص ١٥ . وأخـيراً نجد كلمة تنـكياد Nangkyad تستعمل فى كتاب Geschichte der öst - Mongolen ، ص ٢١٠ للدلالة على الصينيين .

(١) أعتقد أنه يستحسن أن نورد فيما يلى وصف المؤرخين والجغرافيين الشرقيين لتلك المدينة . ففى تاريخ وصاف (ورقة ١٧ وجـه ، وورقة ١٨ ظهر) : خنزاى حاضرة بلاد الصين : تبدو كأنها جنة عرضها السموات ، وتمتد طولا حتى يبلغ محيطها أربعة وعشرين فرسخا ، وسطحها مرصوف بالآجر والأحجار ، وبها منازل وعمائر مشيدة بالخشب ومزخرفة بالتصاوير الجميلة من كل نوع . وقد أقيم بين طرف المدينة ثلاث يامات ؛ ويقال إن أعظم شوارعها يبلغ طوله ثلاثة فراسخ ، ويحتوى على أربعة وستين مبنى متشا كلة الهندسة ومقامة على عمد متساوية . ويبلغ حاصل ضريبة الملح فيها سبعمائة بالش چاو « عمـلة من الورق » فى اليوم الواحـد . وفيها عدد ضخم من الأشخاص الذين يمارسون الحرف ، فقد عد منهم اثنان وثلاثون ألفا ممن يشتغلون بالصباغة ، ويمـكننا أن نقيس على ذلك أهل الصناعات الأخرى . وهنـاك سبعمائة ألف جندى ، ومثلهم من السكان المسجلين فى مكاتب التعداد وسجلات الديوان . وتضم المدينة ، فضلا عن ذلك ، سبعمائة معبد تشبه الحصون ، ويقيم فى كل منها عدد من رجال الدين الذين لا إيمان لهم ، والرهبان الذين لادين لهم ، وكـذلك عدد جم من العمال والحراس والخـدم وعباد الأوثان الذين تصحبهم أسرهم وأتباعهم .

وكل هؤلاء الناس لايدخلون فى التعداد ولا يخضعون لجباية المـكوس والضرائب . وهناك أربعون ألفا من الجنود مخصصون لحراسة المدينة وللمراقبة . ولا تـكاد الشمس تخفى وجهها =

= خلف مدينة القيروان فى المغرب ، ويستر الليل رأسه بقناع بلون السناج ، ويبدأ الأشرار ، ويجهز اللصوص حبالهم المعقوفة ، حتى يتخذ الجند أماكنهم على مداخل المنازل فى الأحياء المختلفة ، وفى منافذ الطرق والأسواق والميادين ، ويمارسون الحراسة الشديدة ولا يسمحون لأنفسهم بأن تغمض جفونهم السوداء لحظة واحدة . ويرى فى داخل المدينة ثلثمائة وستون جسرا مقامة على القنوات التى لاتقل اتساعا عن نهر دجلة ، وتخرج من بحر الصين . وهناك ، من أجل راحة السكان العديدين ، سفن وزوارق من كل نوع تسير فوق الماء ، ولا يمكن للخيال أن يحيط بها ، بله العد . ومن اليسير أن يتخيل المرء ذلك العدد الضخم من الغرباء الذين يفدون يوميا على هذه المملكة ، سواء أكان ذلك للتجارة أم لأمور أخرى » .

ويقول مؤلف نزهة القلوب (مخطوطة فارسية رقم ١٣٩ ، ص ٧٩٠) : « خنساى عاصمة بلاد الصين ؛ وإن صح مايقوله بعض الرحالة ، فإنه لايوجد فى العالم كله مدينة أعظم منها ، ولكن الجميع يتفقون على أنها أكبر مدن الأقطار الشرقية . وفى داخلها بحيرة يبلغ محيطها ستة فراسخ ، وتحيط بها المنازل من كل جانب . وجو هذه المدينة حار ، وتنحصر حاصلاتها الرئيسية فى الأرز وقصب السكر . أما البلح فيها ، فمن الغلو والندرة بحيث يساوى المن منه ضعفه من السكر . وأما الحيوانات التى تستعمل فى الغذاء عادة ، فهى السمك والبقر ؛ ولحم الضأن فيها نادر غالى الثمن . وسكانها من الكثرة بحيث يبلغ عدد الحراس والخفراء فيها بضعة آلاف ، وقد يصل إلى عشرة آلاف . ومعظم هؤلاء السكان من الوثنيين ، لكن المسلمين أقوى منهم وإن كانوا أقل عددا » .

ويقول صاحب مسالك الأبصار (مخطوطة عربية رقم ٥٨٣ ، ورقة ٤٥ وجه) (مامعناه) : « يوصل بين خان بالق وخنساى طريقان : أحدهما بالبر والثانى بالبحر . ويقطع كل من الطريقين فى أربعين يوما . وتمتد مدينة خنساى طولا مسيرة يوم واحد بأسره ، وعرضا مسيرة نصف يوم . ويشقها فى وسطها شارع يصل بين طرفيها . وشوارعها وميادينها مرصوفة كلها ، وتتكون منازلها من خمسة طوابق ، وهى مشيدة من ألواح الخشب التى ثبتت فيما بينها بالمسامير . ويشرب أهلها مياه الآبار ، ويعيشون بتقشف بالغ . ويتكون غذاؤهم الرئيسى من لحم الجاموس والإوز والدجاج ، ويضيفون إليه الأرز والموز وقصب السكر والليمون وقليلا من الرمان . وطقس هذه المدينة شديد الشبه بطقس مصر من حيث الحرارة ورطوبة الهواء . والسلع فيها متوسطة الثمن . ويحمل إليها الضأن والقمح ، ولكن بكميات صغيرة ؛ والخيل فيها نادرة ، ولا ترى إلا لدى الكبراء والرؤساء . وليس فيها جمال قط ، وإذا اتفق أن ظهر فيها جمل ، أصبح موضع الإعجاب العام » . ويمكننا أن نجد الكثير من وجوه الشبه بين هذا الكلام وبين مارواه عنها « ماركو پولو » ، فى (Ramusio Navigationi et viaggi) مجلد ٢ ، ورقة ٤٥ وما يليها) .
=

و يبلغ قطر سورها أحد عشر فرسخا[1] . وفى المدينة ثلاث يامات[2] .ومنازلها تتكون من ثلاث طبقات . وفى خنساى ثلاثة مساجد كبيرة ، من الدرجة الأولى، تمتلئ يوم الجمعة بالمسلمين . و يبلغ عدد السكان فيها حدا يجعلهم لا يعرفون بعضهم بعضا . وفى جنوب غربى «خطاى» توجد مملكة يسميها الصينيون «داى ليو»، والمغوليون « قارا جنج»[3] ، « والهنود » قندهر؛ ونسميها نحن « قندهار ».

= ويتكلم أودريك Oderic عن هذه المدينة التى يسميها كساى Casay (مخطوطة فرنسية رقم ٧٥٠٠ جـ ، التاريخ العجيب لخان التتار الأعظم ، Histoire merveilleuse du grand chan de Tartary ورقة ٦١ وجه ، ٦٢ ظهر) ، فيقول إن فى هذه المدينة أربعة طومانات من المسلمين ، أى أربعين ألفا . ويذكر نفس المرجع أن شخصا من سكان هذه المدينة اعتنق المسيحية على يد الإخوان الصغار Fréres Mineurs . ويمكننا أيضاً فى هذا الصدد أن نرى الكتاب الذى عنوانه De l'Etat et du gouvernement du grand Caan de Cathay (نفس المرجع ورقة ٨١ ظهر) .

(١) فى النص المطبوع : « كه قطره آن يعنى ياور نياورده فرسنگست ». وقد شعر أندريه ملر ،بوجود خطأ فيه، وترجمه Metropolis pecem parasangis patet. ويمكننا افتراض أن الكاتب قد كتب : « كه قطرآن يعنى بارو يازده فرسنگست . « وهذا هو المعنى الذى اعتمدت عليه فى ترجمتى . ومع ذلك فإنى أعترف بأن فى عبارة : « قطر آن يعنى بارو » بعض الصعوبات ، ويمكننا أيضا أن نقرأ : « كه بحيرة آن يعنى ناور پهنا ورده فرسنگست » أى « التى عرض بحيرتها عشرة فراسخ » .

(٢) لم أتردد فى أن أقرأ « يام » بدلا من « بام » التى فى النص المطبوع .

(٣) فى رحلة ماركو بولو ap . Ramusio, Navigationi مجلد ٢ ورقة ٣٥ ظهر ووجه) ، يذكر إقليم يسمى « كارا كات » أو « كاراجات » (انظر De regionibus orientalibus ص ٩٧ ، ٩٩ ، ١٠٠) ، ويقول إن عاصمته تسمى ياتشى Iaci. وكان هذا الإقليم خاضعا لسلطان مغول الصين ويحكمه كنيتمور ابن =

ويقع هذا الإقليم بين الهند والتبت ؛ وينقسم إلى قسمين ، أحدهما سكانه من ذوى البشرة السوداء والآخر سكانه من ذوى البشرة البيضاء . وهذا القسم الأخير يسمى بالمغولية نشاجان چنج (چنج = أبيض). ونجد فى شمال الخطاى شعوبا بدوية يسميها الصينيون خيدان (خيتان) ويطلق عليها المغوليون اسم «قاراخاتاى» ، والإقليم الذى يسكنونه يتاخم صحارى المغولستان . وقد حدث فى الزمان الغابر أن رفع أحد هؤلاء البدو ، واسمه خاوولتش آيا ، علم الثورة ، واستولى على الخطاى ، وخلع على نفسه لقب « ملك » ؛ وتوارثت ذريته العرش من بعده ، وظلوا سنين عديدة يحتلون الخطاى . وهناك ، بالقرب من هذا الشعب ، شعب آخر يسميه الصينيون « نوتشى » ، ولكن المغول وغيرهم من الأمم يسمونه «تشورتشه» . وقد حدث ذات مرة أن قام فرد من هذه الأمة اسمه « نياقوداى» ، ولقبه « داى كيم » ، بثورة مسلحة وانتزع العرش من الملوك المنحدرين

= هذا السلطان . ونحن نعرف من رشيد الدين (مخطوطة فارسية رقم ٦٨ أ ورقة ٢٤٦ ظهر ووجه) أن قوبيلاى كان قد ولى أحد أبنائه ، ويسمى هوقاجى ، حكم إقليم «قرهچنج» ، ولما مات هذا الأخير تولى مكانه ابنه إسنتيمور . كما أن اسم ياتشى Iaci الذى يطلقه السائح البندقى على عاصمة هذا الإقليم يقابل بالضبط اسم « ياتشى » الذى نجده فى نص رشيد الدين . أما الإقليم الذى يطلق عليه ماركو بولو (Ramusio ، مجلد ٢ ، ورقة ٣٥ وجه) اسم « كارازان Carazan » ، فأعتقد أنه هو نفسه الذى يطلق عليه فى نص المؤرخ الفارسى اسم « تشنك جانگك » . ويرد فى ميرخوند (الجزء الخامس ، ورقة ٤٩) ذكر إقليم يسمى « قراتشانك » ، ونقرأ فى الكتاب المغولى المسمى « بوديمير » أن خوبيلا خان أخضع ولاية « چانگك » (بلاس Pallas ، Sammlungen Historischer Nachrichten ، مجلد ١ ، ص ١٩) .

ن « قره خطاى »[1] . ويعرف هذا الرجل لدى المغول باسم « أكوده » ،
هو نفسه « ألـكان خان » الذى كان على العرش فى عهد جنكيزخان ، وقد
قضت عليه جيوش « أقطاى » . وتوجد بين « الخطاى » وإقليم قراجنـك
عدة أقاليم أخرى يحكم كلا منها ملك . ويلاحظ أن سكان أحد هذه الأقاليم
من عادتهم « أن يغطوا أسنانهم بغطاء من الذهب، ويخلعونه أثناء الأكل ».
هذا هو مايقصه المؤلف المجهول .

والآن يجدر بنا أن نورد الفقرات المقابلة منقولة عن تاريخ رشيد الدين . فيقول
هذا المؤلف : « إن بلاد الخطاى تعرف لدى المغول باسم عام، هو: « جاوقوت »[2] .

---

(١) دأبت على كتابة « ختاى » أو « خطاى » بالفتح مسايرة للاستعمال الجارى ، وإن
كان من الأكيد أنه بالكسر ، إذ أن هذا الاسم مشتق من اسم الشعوب المسماة بشعوب
« الختين » بكسر الخاء . والواقع أنها تكتب هكذا فى الترجمة الجغتائية لتذكرة الأولياء
(ورقة ٢٢٩ وجه) . ونجد هـذه الكلمة بالكسر أيضا فى رحـلة الأستاذ « بيرنس
Burnes » : « رحـلة إلى بخارى Travels into Bochara ، مجلد ٢ ، ص
٢٢٨ » . ويرد فى « رسائل من سيبريا » Sibirische Briefe « للاكسمان
Laxmann » (نشر شاوزر Schloszer ، ص ٤٧) ذكر نسيج قطنى وارد
من الصين ، ولهـذا السبب يسمى « كيتيـكا Kitaica ، وانظر أيضا برجمان
Bergmann ، Nomadische Streifereien unter den Kalmuken ،
مجلد ١ ، ص ٧٥ .

(٢) يرد اسم « جاوقوت » عدة مرات فى تاريخ رشيد الدين (ورقة ١٠٧ ، ١٢٢
ظهر ، ٢٤١) . ونراه فى مكان آخر يطلقه بمعنى أوسع مما هو عليه هنا : فيشمل الختا
والتاقوت وبلاد الجورجة والسلنقا . فنقرأ فى رشيد الدين (المخطوطة الفارسية رقم ٦٨ أ ،
ورقة ٢٧٧ ظهر) أن منكو Mangou أرسل أخاه قوبيلاى لتوسيع حـدود
الإمبراطورية المغولية نحو الشرق ؛ وجعل من نصيبه ممالك الختا ، وچين وماچين، وقره
جانـك ، وتنـكوت ، والتبت ، وجورچه ، وسولنقا ، وكولى . ويذكر المؤلف
نفسه أن هناك ، غير بعيد من سواحل چورچه وكولى ، جزيرة عظيمة تسمى =

= « جنكو » (يجب أن تقرأ تشينكوه ، أى اليابان) ، ويبلغ محيطها حوالى ٤٠٠ فرسخ (المرجع السابق ، ورقة ٢٥٨ وجه) . وأخيرا نجد فى وصف الولايات الاثنتى عشرة التى تتكون جملة ما تحت يد قوبيلاى ، هذه التفاصيل : « تتكون الثالثة من إقليم لولى أوكولى ، وهى مملكة قائمة بذاتها ، وقد تزوج عاهلها الذى يحمل لقب « وانك » بإحدى بنات الإمبراطور (نفس المرجع ، ورقة ٢٥٨ ظهر) . ومن اليسير أن نعرف أن هذا الإقليم هو الذى نطلق عليه الآن اسم « كوريا » ، والذى يطلق عليه الصينيون حتى يومنا هذا اسم (كاولى Kao - li) (وصف الصين ، مجلد ٤ ص ٤٢٣ ، ٤٣١) . ولذلك لم أتردد فى أن أقرأ فى الفقرات السابقة « كولى » بدلا من « لولى » الموجودة فى النص . ويجدر بى فى هذه المناسبة أن ألفت النظر إلى ماورد فى فقرة لماركوپولو (Ramusio ، مجلد ٢ ، ورقة ٢٠ ظهر) من أنه قد ضمت إلى إمبراطورية قوبيلاى بعد هزيمة نيان Naian أربعة أقاليم، حيث يذكر النص الإيطالى لفظة « كارلى Carli » ، وهذه لاشك غلطة من الناسخ . وأعتقد أنه يجب قراءتها Cauli كما فى الترجمة اللاتينية : De regionebus aruntalibus ص ٦٣ ، وفى رحلات ماركوبولو Voyages de Marc Paul ، ط برجرون Bergeron ص ٦٢) ، إذ لاشك أنه يعنى « كوريا » .

أما الإقليم المسمى « سولنقا » ، أو على الأصح « سولانكقا » ، فإن سكانه قد خضعوا لمنكو طوعاً ، ثم لم يلبسو أن انقضوا عليه ؛ ولكن لما جلس « قوبيلاى » على العرش ، كفوا عن القتال واعترفو به إمبراطورا عليهم (المخطوطة الفارسية رقم ٦٨ ا ، ورقة ٢٥٥ ظهر) .

وحينما قسم هذا الإمبراطور ولاياته إلى اثنتى عشرة حكومة ، جعل الثانية منها تشمل إقليمى چورچه وسولانكقا . وكانت عاصمة هذا الإقليم الأخير مدينة « مونتشو » التى كانت مقر الإدارة وفيها يقيم علاء الدين بن حسام الدين المالكى وحسن دوجاق باعتبارهما حاكمين . (المرجع السابق ، ورقة ٢٥٨ ظهر). ومن الواضح أن سكان « سولانقكا » هم الذين يطلق عليهم روبروكى Rubruquis اسم « لانج وسالانج Langues et Salangues » ، ويروى عنهم بعض التفاصيل الغريبة . (رحلة فى بلاد التتار ، ص ٥٨) . فهذا المبشر يجعل بلادهم تقع فيما وراء التبت . ويذكر جان دى بلن كاربان Jean du Plan - Carpin ، (رحلة فى بلاد التتار Voyage en Tartarie ، ورقة ١٣ ، ١٩ ، ٢٥ ، ٥٧ ، ٦٨) ، أن بلاد المغول تحد من الشرق بخطاى Cathay وسولانج Solangues . فإذا دققنا النظر فى تشابه الأسماء ، استطعنا أن نرجح أن إقليم سولانكقا هو نفس الإقليم الذى تسكنه الشعوب المسماة الآن « بالسولون Solon » ، والتى تقيم فى شرق منغوليا بجوار موطن المنتشو القديم .

وإقليم الخطاى الذى يعرف فى الصينية باسم « خانزى » [١] يحد من جهة بقطر « ماچين » الذى يسميه الصينيون « مانزى » [٢] ، والذى يفصل بينه وبين « الخطاى» نهر « قره موران» ، ومن جهة أخرى يتاخم إقليم «الخطاى» قطر [٣]

---

(١) أرجح أنه يجب علينا هنا أن نقرأ « جانزى » بدلا من « خانزى » ، وأن يكون هذا الإقليم هو نفس الإقليم الصينى تشان سى Chan si ، كما أشرت من قبل .

(٢) الإقليم الذى يسمى هنا « مانزى » هو نفس الإقليم الذى يسميه ماركوبولو (رحلة فى الشرق ، ص ٨٥ ، ١٠٨ ، ١١٦ ، ١١٨ وغيرها) ، وأودريك Oderic (تاريخ عجيب لخان التتار الأعظم ، مخطوطة رقم ١٥٢٩ ، ورقة ٦٠ وجه) بإقليم « مانجى Mangi » . ومن العجيب أن العالم مورهايم Morheim قد خاط بينه وبين بلاد المنجوفى (Historica ecclesiastica Tartarorum ، ص ١٠٠) . ويذكر رشيد الدين أن أعظم أنهار هذا الاقليم يسمى « خونجور » (المخطوطة الفارسية رقم ٦٨ أ ، ورقة ٢٤٢) . وهو نفس النهر الذى يسميه تاريخ الصين (مجلد ٩ ، ص٢٧٦) « هواى هو » . والواقع أن هناك نهرا بهذا الاسم يصب فى «هوانج هو » ، ولكن لابد أن يكون الناسخ قد أخطأ هنا أو أن يكون مؤلفنا قد سها ، فأطلق على أحد الأنهار اسما يطلق على نهر آخر . فمن الواضح أن المؤلف لم يرد هنا أن يذكر نهر « هواى هو » ، وهو من أنهار الدرجة الثانية ، بل النهر الكبير الذى يسميه ماركوبولو « كويان فو Quianfu (الرحلات ، ص ٨٩) ، أو « كويان » (نفس المرجع ، ص ١١٣) ، والذى يطلق عليه اليوم اسم « كيانج كيو » . ويوجد اسم چين وماچين cim e Macim للدلالة على الصين فى كتاب « رحلة فى بلاد الفرس » لجوزافات برباور Josaphat Barbaro ، (ورقة ٤٢ ظهر ، ٤٣ ظهر) .

(٣) نجد لدى المؤرخ المذكور أحيانا « خورچة » وأحيانا « چورچه » (ص ٤٧) ، وقد ظن أندريه ملر أن القراءة الأولى هى الصحيحة ، وتبعه فى ذلك المرحوم لنجليس Lanjlés ، (أبجدية منشو ، الطبعة الثالثة ، ص١٧) . أما أنا فأخالفهما فى الرأى وأرجح كتابتها « چورچه » أو « جورجه » ، وذلك أولا لأنها توجد على هذا النحو مرارا عديدة فى مخطوطة رشيد الدين ، وإن كان ذلك لايعتبر دليلا قاطعا ، إذ يجوز أن يكون الناسخ قد أخطأ فوضع النقط تحت الحروف بدلا من أن يضعها فوقها ، ولا سيما أن الحرف غير الصحيح (خ) يرد مرتين فى النسخة (ورقة ٢٢ و ٦٠) ، كما أننا نعثر عليها فى مكان آخر مرسومة « جورجب » (ورقة ٧٨ ظهر) . ولكنها تكتب فيما عدا ذلك « چورچه » هكذا بالرسم الصحيح (الورقات ٣٦ ، ٤١ ، ١٢٢ ، ١٥٠ ظهر =

چورچه ،وصحارى « قره خطاى » التى تسكنها شعوب بدوية . و « چورچه» هوالاسم المستعمل لدى المغول ، لأن الصينيين يطلقون على سكان هذا القطر اسم «نوچى ». وتعرف شعوب «قره خطاى » بلغة الخطاى نفسهاباسم « خِدان»

= ١٨١ ، ٢٤١ ، ٢٥٤ ، ٢٥٨ ظهر ووجه ، ٢٧٧ ظهر) . وانظر أيضا حيدر الرازى (مخطوطة برلين ، ورقة ٥٨٧ ، ٥٨٨ ظهر ، ٥٩٤ ظهر ، ٥٩٥ ظهر) . هذا إلى أن كلمة « چورچه » ترد فى المفردات الفارسية الصينية التى بعث بها الأب أميو Amyot ، وهى تقابل اسم نيوتشه Niu-tchés ، ولا يدع رسمهـا بالحروف الصينية أى مجال للشك فى الصورة التى يجب أن تنطق بها . ويعضد رأيى أيضا فى هـذا الصدد ماذكره ماركوپولو ، إذ أنه يعـد إقليم « چورچه » بين الأقاليم الأربعة التى كان يتكون منها نصيب « نيان » (Ap. Ramuslo مجلد ٢ ، ورقة ٢٠ وجه) .وفى مكان آخر يذكر أن التتار ، (أى المغول) ، يقطنون شمالى إقليمى « چورچه » و « بركوسى » (نفس المرجع ، ورقة ١٣ وجه) . وأخـيرا نجد كلمة « جورجيد » تستعمـل فى كتـاب تاريخ المغول مرارا كثيرة للدلالة على « النيوچـه » Niutchés ، Gesch. der öst - Mongolem ص ٤٧ ، ٨٦ ، ٢٠٠) . وفى ترجمة تاريخ أبى الغازى (Histoire des Tartares ص٤٠ ، ٤١ ، ١٢٣ ، ٣٨٤ ، ٣٨٦) يرد ذكر مدينة اسمها دسورد سوت Dsurdsut تقع على حدود الخطا ،وتسمى بالفارسية والهندية «زينو » . ويحار الناشر فى تحديد مكان هذه المدينة ، ولـكن ممالاشك فيه أن النص فى كل هذه الفقرات محرف تحريفا شديدا :أولا،لأن اسم «دسودسوت » يجب أن يـكتب « چورچه » ويدل به على إقليم « النيوچه » لاعلى مدينة . وثانيا ، لأن كلمة « زينو » يجب أن تصحح إلى تشين بمعنى « الخطا » ، وحينئذ يصبح النص سهل الفهم ويتفق تمام الاتفاق مع ماورد فى رشيد الدين . وفى مكان آخر، (ص ٣٨٢)،نقرأ أن قوبيلاى سلك طريق « زينومازين Zinumazin » ؛ ومن الواضح أنه يجب أن يرسم بدل ذلك چين وما چين ، وأن تترجم العبارة : « قوبيلاى اتجه نحو تشين وما تشين ، أو چين وما چين، » أى نحو الصين الجنوبية (المرجع السابق) . أما مدينة زينو المزعومة التى حاصرها هذا الأمير فإنها لاوجود لها إلا فىهذا النص المحرف ، ومن الواضح أنه يجب علينا أن نضع عاصمة إقليم « چين » بدلا من « زينو » .

(ختان)[1]. وتسمى الصين الجنوبية فى لغة الهنود باسم « ماهاچين »[2] ، أى چين الكبرى أو الصين ، ومن هنا جاءت كلمة «ماچين» . والمغوليون يطلقون على هذا الإقليم اسم « ننچياس»[3]، ويفصل بينه و بين إقليم « خطاى» نهر يسمى نهر « قره مران » الذى ينبع من التبت وكشمير ، وهو نهر لا يمكن عبوره قط دون سباحة . وعاصمة هذا القطر مدينة چنج ساى (أوخنكساى) التى تقع على مسيرة أربعين يوماً من خان باليق[4] . والقطر المعروف[5] فى لغة المغول باسم «قره چنك»[6] يسمى فى لغة « الخطاى » باسم «داى ليو » ،

(١) مخطوطة فارسية رقم ٦٨ ١ ، ورقة ١٢٢ .
(٢) المرجع السابق ، ورقة ٨٦ ، ١٨١ .
(٣) المرجع السابق ، ورقة ٦١ ، ٨٠ ، ٢٤٦ ، ٢٥٥ .
(٤) المرجع السابق ، ورقة ٨٢ ، ٢٤٠ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ .
(٥) المرجع السابق ، ورقة ١٢٢ ، ٢٥٦ .
(٦) ماسبق أن قلته يؤدى بى بطبيعة الحال إلى فحص فقرة أبى الغازى التى تترجم بهذه العبارات (نفس المرجع ص ٤١ — ٤٢) : « فتح أ كوس خان امبراطورية الخطاى ومدينة « دسوردست » ومملكة تنجوت مع قره خطاى . وعاصمة قره خطاى مدينة كبيرة . وهذا الإقليم يسكنه قوم سود البشرة كالهنود ، ويعيشون بقرب بحيرة موهل Mohill بين الخطاى والهند متجهين نحو الجنوب » . فهذه السطور القلائل تنطوى على عدة أخطاء : فكيف استطاع المؤلف أن يقول بأن قره خطاى والهند متجهتين نحو الجنوب ؟ إن هذا القول يناقض ماذكره خير الجغرافيين على خط مستقيم . ومن جهة أخرى ، ماهذه البحيرة المسماة « موهل » والتى لايرد لها ذكر فى أى مكان ؟ فهذه الأسباب تجعلنى أحكم بأن النص فاسد ، وينطوى على أخطاء عديدة ، بعضها يرجع إلى المؤلف نفسه وبعضها إلى المترجم . ولا شك عندى فى أن اسم «قره خطاى» قد كرر خطأ ، وأنه يجب أن نستعيض عنه باسم « قره چانك » الذى يدل ، كما سبق أن رأينا ، على إقليم واقع بين الصين والهند ، وأن نقول « إقليم كبير » بدلا من « مدينة كبيرة » ، أما بحيرة « موهل المزعومة » فليست إلا المحيط (دنكيز محيط) ، كما هى فى النص الأصلى ، وأنه يجب ، فى نهاية الأمر ، كتابة الفقرة كلها على هذا النحو : « أخضع أ كوز خان =

أى المملكة الكبيرة ، وفى لغة الهند وكشمير باسم « قندر » ،وله هذا المعنى أيضا . أما نحن فنطلق عليه اسم «قندهار». وهذا القطر المترامى الأطراف يحد من

= الخطا » ،وإقليم چورچه،ومملكة تنكوت وقرهخطا، وقرهچانگ . وهذا الأخير إقليم كبير سكانه سود البشرة ، وهو يتاخم مغولستان ، ويمتد نحو الجنوب بين الخطا والهند . أما بالنسبة للكلمات « قوم سود البشرة كالهنود » فأظن أن هناك سقطا فى النص أو فى الترجمة . وذلك أنه لما كان أبو الغازى ينقل فى هذا الموضع ، وغيره من المواضع ، عن رشيد الدين بالنص ، فلا بد أن يكون قد نص على الاسم الذى يعرف به الهنود إقليم « قره چانگ » ؛ وهذا الاسم هو ، كما سبق أن قلت ، « قندر » ، وهذا مايؤكد لى أنه يجب أن يكون بعد الكلمات « قوم سود البشرة » هذا الشطر من الجملة : « والهنود يطلقون على هذا الإقليم اسم قندر ... الخ » . هـذا مارجحته ، ولكنى عرفت من فحص النص الأصلى أن الخطأ أو الحذف يرجع إلى أبى الغازى الذى أسرف فى اختصار النص الذى أورده مؤرخنا . وقد بقى على الآن أن أقول كلمة عن الموقع الجغرافى للاقليم المذكور : من الواضح أنه لايجوز أن نخدع بتشابه الاسمين « قندر » و « قندهار » ، كما أنه لايجوز البحث هنا عن الولاية التى تسمى اليوم قندهار ، والواقع أن الإقليم الذى نبحث عنه يتطرف كثيرا نحو الشرق : ولكنا سنستطيع الاهتداء إلى مكانه بالاستعانة بملاحظة بسيطة . فقد رأينا أن مملكة « قره چانگ » كانت تسمى عند الصينيين « داى ليو » ، ونحن نقرأ فى تاريخ « قوبيلاى » أنه كان ، قبل جلوسه على العرش ، قد شن الحرب فى إقليم « تالى » (الأب جوبيل Goubil تاريخ چنگيزخان ، س ١١٣ ، تاريخ الصين ، مجلد ٩ ص ٢٢٧ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٢٧٠) . ولا شك أن تشابه الاسمين «داى ليو » و « تالى » ، مضافا إلى وحدة الحملات الحربية التى يرويها الفرس والصينيون، لايسمح لنا بأن نتردد فى القول بأن هـذين الاسمين يدلان على إقليم واحد . هذا ونحن نعرف من الأب جوبيل أن اسم «مملكة تالى» يطلق على إقليم « يون ـ نان yun-nan» الذى كان يخضع فى الفترة التى نتكلم عنها لأمير خاص ، مستقل عن إمبراطور الصين . ولكن تنج كيان كنج نو Tong - Kien - Kang - nou يضيق من مدى دلالة هذه التسمية بعض الشىء ، إذ يقرر مؤلف هذا الكتاب (تاريخ الصين ، مجلد ٩ ، ص ٢٥٧) ، أن إقليم « يون ـ نان » كان فى ذلك الحين مقسما كله تقريبا بين أمراء جعلوا لأنفسهم فيه ممالك مستقلة عن الصين . وكانت «تالى» التى تقع فى الجزء الغربى من هذا الإقليم عاصمة لإحدى هذه الممالك » . وفى تاريخ أسرة تنج tong الأب جوبيل (مخطوطة ، س ١٦٤) يرد ذكر جبل يسمى «تيان كنگ Tian kang » ، ويقع بالقرب من تالى فو ، كبرى مدن يون نان . وفى =

جهة « بالتبت » و « طنجوت » ، ومن جهة أخرى بجزء من أقاليم الهندستان وجبالها ، ثم بالمغولستان والخطاى وقطر السكان ذوى الأسنان الذهبية . ويحمل ملك «قره‌چنگ» لقب «ماه آرا» ، أى الأمير الكبير . وعاصمة هذا الإقليم اسمها « ياچى » ، وهى مقر المحكمة العليا . و بعض سكان هذه المملكة من ذوى البشرة السوداء ، و بعضهم من ذوى البشرة البيضاء كشعوب «خطاى» .

= سنة ٨٥٩ (المرجع السابق ، ص ٢٢١) لقب ملك نان تچاو Nan tchao «أيون ـ نان » نفسه بلقب امبراطور ، وسمى أسرته بأسرة « تالى » . ونقرأ فى موضع آخر (ص ٩٧) أن أمير منج چه Mong - Ché فى يون ـ نان جعل قصره فى مدينة تاى هو تشنج Tay - ho - tching ، وأن آثار هذا القصر لاتزال باقية بالقرب من تالى فو ، وهى مدينة عظيمة فى يون نان ، وأن نهر سى أوال Cy - eul يجرى فى إقليم تالى فو (المرجع السابق ١٠٩) ، وأنه يوجد فى هذا الاقليم نفسه مدينة تسمى تشاو ـ تشيو Tchao - tcheou (المرجع السابق نفسه) .

أما فيما يتعلق بإقليم كفچه كوه الذى يتكلم عنه رشيد الدين ، فإننى أعتقد أن الاسم محرف بعض الشىء فى المخطوطة ، وأنه يجب قراءته « كنچه كوه » ، أى « بلاد الكنچة » . وقد يظن المرء أن هذه الكلمة ليست إلا رسما فارسيا للعبارة الصينية « كين چى كوه » ، أى بلاد الأسنان الذهبية ، وأنها بذلك تعنى أيضا الإقليم الذى يسمى عادة « زردندان » . ولكن هذا التفسير الذى يبدو طبيعيا لايتفق وما يذكره مؤرخنا ؛ ولذا فإن الأقرب إلى الصواب أن يكون هذا الاسم يدل على المملكة التى يسميها المؤلفون الصينيون « كياوتچى » ، أى إقليمى « تنكين » و « كوشنشين » . (تاريخ الصين ، مجلد ١ ، ص ٦٢٤ ، ٢٦٥ ، ٢٧٣ ، ٤٢٠) . ويعضد هذا التفسير اتفاق الموقع الجغرافى ، فضلا عن التشابه فى الاسم . وذلك أن المؤرخ الفارسى يخبرنا أن هذا الإقليم يقع بين البحر وحدود الهندستان وإقليم قره چانگ : وهذه الصفات كلها تنطبق على إقليم « تنكين » . هذا إلى أن التصحيح الذى أقترحه ، أى تغيير الاسم من « كفچه كوه » إلى « كنچه كوه » يجد فى أقوال ماركوبولو مايبرره . إذ نراه يتكلم عن إقليم اسمه كنجيجو Cangigu (ورقة ٣٩ وجه ، ٤٠ ظهر) ويقع شرق البنغال ، ولا ريب أنه هو نفس الإقليم الذى تكلم عنه . ولعل مدينة « لوجك » هى نفس مدينة « ليوچيو Liu-Tcheou » . أما المدينة المسماة «حسام» ، فأعتقد أنها جزيرة هينان Haynan .

ويقول رشيد الدين فى مكان آخر [1]: كان ملوك قُطر « ننچياس » فى غاية القوة ، وكان لهم عرش « خطاى » فيما مضى ، ولـكن انتزعه منهم رجل من قطر « چورچه » بقوة السلاح .

وكذلك يذكر مؤلفنا القطر الذى يسكنه أناس يغطون أسنانهم بالذهب، فيقول : يوجد فى غرب دول « قو بيلاى » [2] قطر يسمى « كفچه كوه » تغطيه غابات كثيفة . وهو يتاخم البحر ، ويحكمه ملك مستقل ، وفيه مدينتان، إحداها تسمى « لوچك »، والأخرى تسمى « حسام ». وفى شمال غرب الصين توجد حدود التبت وقطر يسكنه قوم ذوو أسنان من الذهب . ويقول رشيد الدين [3] أيضاً : وفى شمال غرب الصين توجد عدة أقطار يحكم كل منها ملك، ويسمى باسم خاص .أهالى هذه الأقاليم يشبهون شعوب « خطاى» والهند فى السحنة والعادات ، ولـكننا نعثر فيها على بعض العادات الغريبة . فسكان أحد هذه الأقطار مثلا يغطون كلهم أسنانهم بأوراق من ذهب يرفعونها ساعة الأكل ، ثم يعيدون وضعها من جديد . هذا الإقليم يتاخم التبت من جهة ، وقره چنـگ من الجهة الأخرى [4] .

---

(١) المخطوطة الفارسية رقم ٦٨ ا ، ورقة ١٨١ ، ٢٥٤ .

(٢) المخطوطة الفارسية رقم ٦٨ ا ، ورقة ٢٥٩ .

(٣) نفس المخطوطة ، ورقة ١٢٢ ظهر .

(٤) نقرأ فى رحـلة ماركوپولو (Ramusio Delle Navigationi مجلد ٢ ، ورقة ٣٦ ظهر) أنه يوجد على مسيرة خمسة أيام غربى إقليم « قره زان » إقليم آخر يسمى قره دندان تحت إمرة الخان الأعظم ، ومن عادة أهـله أن يغطوا أسنانهم بصفائح من الذهب . وفى الترجمة اللاتينية لرحلة ماركوپولو De regionibus orientalibus =

= ص ٩٩ و ١٠١ ؛ وفى Bergeron ، Voyages ص ٩٧ ، ٩٨) يكتب اسم هذا الإقليم : Arcladan أو Ardnadam . ولكنى أعتقد أن فى هذه الكلمة تحريفا صارخا ، وأن الصورة التى فى النص الإيطالى أقرب كثيرا إلى الأصل ، وأن الأصح أن يقرأ الاسم « زر دندان » الذى معناه فى الفارسية « ذوو الأسنان الذهبية » . وهذه الكلمة ، كما رأينا، هى الاسم الذى يطلقه رشيد الدين على الإقليم الذى نحن بصدده، وينطبق انطباقا تاما على اسم كن تشى Kin - tchi الذى يستعمله المؤلفون الصينيون ويدل على نفس المعنى . (وانظر تاريخ الصين ، مجلد ٩ ، ص ٤١٩ ، وهامش ديهوتريه Deshauterayes). ولكننا نصطدم هنا بإحدى الصعوبات . فقد يتساءل بعض قرائنا قائلين : كيف تأتى لماركوپولو الذى كان يعيش بين الصينيين والمغول أن يكتب اسما لايرجع إلى إحدى هاتين اللغتين ، بل إلى اللغة الفارسية ؟ وأجيب على ذلك بأن الكثيرين من المسلمين كانوا قد استقروا فى حاشية « قوبيلاى » ؛ ولا ريب فى أنهم قد حملوا معهم الكثير من الكلمات الفارسية ، بل والعربية . ويمكننا أن ندلل على ذلك ببعض الأمثلة : يقول ماركوپولو (المرجع السابق ، ورقة ٣١ وجه) إنه كان لدى الفلكيين فى مدينة كمبالو Cambalu (خان باليق) لوحات مربعة يسمونها تكوينى Tacuini ، ويسجلون عليها كل ما سيقع فى أثناء العام . ومن الواضح أنه يجب أن نقرأ بدلا من كلمة « تكوينى » كلمة « تكويم Tacuim » ، وهى الكلمة العربية « تقويم » . ونقرأ فى موضع آخر (نفس المرجع ، ورقة ٣٢ ظهر) أنه يوجد على مسافة قصيرة من مدينة « كمبالو » نهر يسمى پوليسنجان Pulisangan . فإذا صح تقديرى ، فان هذه الكلمة مركبة من الكلمتين الفارسيتين « پول سنكان » أى « جسر سنجان » . ومما يعضد استنتاجى أن ماركوپولو يضيف بعد ذلك « أنه يوجد على هذا النهر جسر فخم مشيد بالحجر » : وأعتقد ، إذن ، أنه من الممكن أن يكون اسم هذا الجسر قد أطلق على النهر ، أو أن الرحالة البندقى هو الذى أطلق على النهر اسما يطلق على المكان الذى يعبر منه فحسب . هذا ونعرف من رشيد الدين (المخطوطة الفارسية رقم ٦٨ أ ورقة ٢٧٠ ظهر) ، وحيدر الرازى (مخطوطة المكتبة الملكية ببرلين ، ورقة ٦٢٥ ظهر) أنه كان يوجد فى قصر « قوبيلاى » وزير يحمل لقب « السيد الأجل » ، وهما كلمتان عربيتان خالصتان . فهذه الدلائل تبرهن لنا بوضوح على أن قصر المغول بالصين كان يعج بالمسلمين الفارسيين . كما أنه كان هناك أجنبى من بلاد الغرب اسمه « أحمد » يتمتع بحظوة كبيرة لدى « قوبيلاى » (تاريخ الصين ، مجلد ٩ ص ٣١٥ وما بعدها وص ٤١٢ ، ٤١٣) ؛ وانظر أخبار سنة ١٢٨٩ ، فى (Histoire des Mangous ص ٢١٠) وأن هذا العاهل نفسه أنشأ فى مدينة تاى تو Tai tou مدرسة امبراطورية لتعليم العلوم والفنون ، وجعل الإشراف عليها لـ « هوى هو Hoey - hou » ، أى للمسلمين . =

يرينا فحص هـذه الفقرات المختلفة بوضوح أن الـكاتب المجهول استقى علمه من مؤلفات رشيد الدين ، وأنه أخـذ عنه الأفـكار والعبارات على السواء . وإذا كان قد أضاف بعض معلومات لم ترد فى رشيـد الدين ، فإنه لاينبغى لنا أن ندهش لذلك ، لأن مؤرخ الصين كان أمامه كتاب « جامع التواريخ » بتمامه ، واستقى وصفه الجغرافى لها بطريقة مباشرة من جزئيه الثالث والرابع . فنحن مثلا لا نجد وصف مدينة « خنساى » عاصمة الصين الجنوبية

ويقرر الأب جوبيل (المرجع سابق الذكر ص ٢٣٠) أن المسلمين كانوا دائما على أعظم جانب من القوة فى قصر أمراء المغول ، وكان لهم كتائب وقواد من جنسهم ؛ كما كان منهم موظفون كبار فى جميع الفروع ، ولا سيما فى الرياضيات ، وأساتذة عظام ، بل ووزراء . وفى سنة ١٣٠٩ حكم بالإعـدام على أجنبى يسمى أو سلامه كان من كبار الموظفين فى مدينة تاتو Tatou ومحبوبا من الشعب ومبجلا من الجنود . (نفس المرجع ، ص ٢٧٢) . وبعـد ذلك بسنتين أمر الامبراطور « جن تسنج Gin Tsong » بتوقيع أشد العقاب أو النفى على بعض الوزراء الذين استغلوا سلطتهم فى عهد سلفه ، واختلسوا بعض الأموال . وكان بين المنفيين مسلم يسمى عمر ، ويحمل لقب أمـير (نفس المرجع ، ص ٢٨٣) . وحوالى هذه الحقبة أيضا أصدر الامبراطور « جن تسنج » أمره باتخاذ مايجب لرفع شأن مدرسة الهوى هو (أى المسلمين) التى كانت قد هوت إلى الحضيض. (نفس المرجع ص ٢٤٥) . وكان له وزير مسلم اسمـه « چاهان » ، من مواليد مدينة بلخ ، وكان من أعلم أهل زمانه . وقد كتب موجزا بالمغولية للحوليات الصينية ، وتاريخا للحرب التى قامت بين أوكتاى والـكينيين (نفس المرجع ص ٢٤٩) . وفى سنة ١٣٢١ أمر الامبراطور « إنج تسنج » بهدم المسجد الذى كان للمسلمين فى مدينة تشنج تو Chang - tou ، وحرم عليهم أن يشتروا من المغول فتيانا وفتيات لإعطائهم أو بيعهم عبيدا للصينيين (نفس المرجع، ص ٢٥٣) . وفى عهد فن تسنج كان هناك رجل مسلم اسمه شنس Chens ، أصله من خراسان ، وقد ذاع صيته من أجل معارفه الفذة ، وكتب كثيرا من الـكتب فى مواد مختلفة ، وعلى الخصوص فى التاريخ والجغرافية (المرجع السابق ، ص ٢٧٦) . وفى سنة ١٣٦٣ كان هناك شخص أجنبى اسمه عمر يعتبر من خير القواد الذين قادوا الجيش المغولى، (المرجع نفسه ، ص ٣٠٧) .

فى مخطوطتنا ، ولـكنا نجده فى « تاريخ وصاف » الذى لم يزد مؤلفه على أن نقل أخبار رشيد الدين ثم كساها أسلوبا طنانا رنانا . فإذا كان الأمر كذلك ، و إذا عرفنا أن رشيد الدين كان هو المؤرخ الفارسى الوحيد الذى أورد معلومات أصيلة عن تاريخ الصين ، اقتنعنا بأن تاريخ « خطاى » الذى نشر تحت اسم البيضاوى مأخوذ بالنص أو بالإيجاز عن الجزء الثانى من كتاب رشيد الدين .

ومن جهة أخرى نرى حيـدر الرازى يورد فى الجزء من تاريخه الخاص بالصين أن « فوهى » ابتـكر آلة موسيقية بهـا خمسة وثمانون وترا من الحرير ، ثم يقول بالنص إنه « استقى هذا الخبر من جامع رشيدى » [1] : وهذا الخبر نجده بنصه وحرفه فى كتاب عبد الله بيضاوى المزعوم [2] . وليست القطعة التى خصصها حيدر الرازى [3] لتاريخ الصين إلا تـكرارا موجزا للقطعة المنشورة باسم عبد الله بيضاوى . ويختتم المؤلف كلامه بقوله : « كل ماقرأه القارئ عن تاريخ ملوك خطاى استقيته من تاريخ غازان ، أو بعبارة أخرى ، جامع رشيدى الذى كتبه خوجه رشيد الطبيب . فلم أجد فى سواه أى خبر مفصل حول هؤلاء الأمراء » . وقد يكون من الممكن أن نرجح أن تاريخ الصين هذا ليس إلا قطعة من جامع رشيد الدين . ولـكن هناك بعض الصعوبات التى تمنعنا من الأخذ بهذا الرأى على علاته . وأول هذه الصعوبات

---

(١) مخطوطة برلين ، ورقة ٥٨٥ ظهر .

(٢) Historica Sinensis ، النص الفارسى ، ، ص ١٥ .

(٣) مخطوطة برلين ، ورقة ٥٨٨ ظهر .

أنه من غير الطبيعى أن يكون المؤلف قد تكلم عن نفسه بهذه الصيغة : « قال الوزير رشيد الدين » . وهو لو كان يعنى نفسه ، لكان من المحتمل أن يستعمل عبارة تظهر تواضعه بالنسبة إلى عاهله . وتنحصر الصعوبة الثانية فى أن هذه القطعة التاريخية حررت فى سنة ٧١٧/١٣١٧ — ١٨ ، كما يتبين من بعض فقراتها ، أى قبل موت رشيد الدين بسنة واحدة : وفى هذه الفترة كان تاريخ رشيد الدين قد انتهى منذ من طويل وأودع إحدى المؤسسات العامة ، ونحن لا نعلم ، من أى مصدر كان ، أن المؤلف قد فكر فى تنقيح الأجزاء المختلفة التى تكون هذا الكتاب .

وأخيرا نجد أن تاريخ الصين يكون الجزء الثامن من المخطوطة التى استخدمها أندريه ملر ، والتى تعزى إلى البيضاوى ، ويتبعه فيها جزء تاسع عن تاريخ المغول . ومثل هذا التقسيم لا يمكن أن يوجد فى كتاب رشيد الدين ، إذا أننا نعرف أن تاريخ المغول يشغل منه المجلد الأول بأسره .

إلى من يصح لنا، إذن ، أن نعزو القطعة التاريخية التى نشرت باسم عبدالله البيضاوى ؟ لعله ليس من المستحيل أن نحدس بمؤلفها الحقيقى . فقد كان فى فارس ، فى عهد السلطانين المغوليين ألجايتو وأبى سعيد ، كاتب شهير يسمى فخر الدين أبا سليمان عبد الله ، ويلقب بـ « بالبناكتى » [١] ، لأنه ولد فى مدينة بناكت الواقعة فى بلاد ما وراء النهر ثم أصبحت فيما بعد تسمى

---

(١) خوند ، حبيب السير ، مجلد ٣ ، ورقة ٦٠ وجه ؛ دولت شاه، المخطوطة الفارسية رقم ٢٥٠ ، ورقة ٨٦ ظهر .

بالشاهرخيه[1]. وقد ألف هذا الكاتب موجزا جم الفائدة فى التاريخ العام سماه « روضة أولى الألباب » ، ولكنه يعرف على وجه الخصوص باسم « تاريخ بناكتى ». وقد حاز هذا الكتاب شهرة واسعة لدى الفرس ، ودأب المؤرخون فى العهود التالية على الرجوع إليه دائما واتخاذه دليلا لهم فى أبحاثهم . وينص دولت شاه[2] على أن البناكتى كتب تاريخه فى عهد أبى سعيد ، وأنه عرض فى هذا الكتاب ــ بكل تطويل ــ أنساب ملوك « خطاى » وأمراء أقاليم الهند القصية وتاريخ اليهود وأباطرة الرومان . . . الخ . ويضيف إلى ذلك أنه لم يتأت لكاتب أن يعالج هذه المسائل المختلفة بمثل تلك الموهبة السامية . ويمكننا أن نعتقد بأن البناكتى قد وجد أمامه تاريخ رشيد الدين ، ولم يجد وسيلة لتكميل نتائج البحوث التى قام بها هذا الكاتب المجد أو تعديلها ، فرأى أن خير ما فى وسعه أن يفعله هو أن يتبع عرضه اتباعا تاما ؛ واقتصر على أن ينقل إلى تاريخه تلك القطعة التى كتبها الوزير العالم كما هى ، أو عمل على اختصارها مع الاحتفاظ بأفكار صاحبها وعباراته . وفى هذه الحالة يحق لى أن أذهب إلى أن تاريخ عبد الله البيضاوى المزعوم ليس إلا جزءا من تاريخ البناكتى .

هذا ويمكن التحقق من هذه المسألة دون كبير عناء ، لأن نسخة كتاب البناكتى من بين مجموعة المخطوطات الشرقية التى جمعها المغفور له المستر رتش ،

(١) ظافر نامه ، ورقة ٣٧١ وجه ؛ وفيات بابر ، مخطوطة الأستاذ لروا الفارسية رقم ٤ ، ورقة ٢٨ وجه .

(٢) مخطوطة فارسية رقم ٢٥٠ ، ورقة ٨٦ ظهر .

واشترتها منه الحكومة البريطانية[١] ، ولكن هناك منذ الآن أمر لافت النظر يعضد حدسنا . ففي المخطوطة التي تكلمت عنها يكون تاريخ الصين القسم الثامن من الكتاب ، كما يكون تاريخ المغول القسم التاسع منه . وهذا التقسيم بالذات هو التقسيم الذى نعثر عليه فى مخطوطة عبد الله البيضاوى المزعومة .

ومما تجدر ملاحظته أن هذه القطعة التي تنطبق تماماً على حوليات الصين يجب اعتبارها فى غاية القيمة ، وهى وحدها تكفى لإعطائنا فكرة عن دقة المؤلف وصدقه .

* * *

طبق صيت « تاريخ المغول » بلاد الشرق فى كل العصور ، وقد وجدت اسمه فى مذكرة فارسية نشرها السيد سلفستر دى ساسى ، على أنه كتاب من أقوم الكتب التي يجب على كل من يريد الوصول إلى معرفة عميقة بالتاريخ أن يرجع إليها[٢] . وقد قلت فى مكان آخر إن « ابن مسعود » يحيل على هذا الكتاب بصدد التفاصيل المتعلقة بفروع أسرة جنكيزخان المختلفة . كما أن ميرخوند وخوندمير يستغلانه إلى أقصى حد ، ولا يفتأ هذا الأخير يذكره مصحوبا بأجمل آيات الثناء . بل لقد رأيتنى ميالا إلى أن أضيف إلى مؤلفنا

(١) Fund gruben des orients مجلد ٣ ، ص ٣٣٠ .

(٢) تعليقات على المخطوطات ومختارات منها ، مجلد ٤ ، ص ٣٩٧ .

فقرة طويلة لم يفكر أحد من قبل فى إضافتها إليـه . فقد نشر الأستاذ لنجليس Langlés فى بحثه عن الأوراق النقدية لدى الشرقيين [١] قطعة مقتبسة من « حبيب السير » لخوندمير تبدأ هكذا : « در جامع التواريخ جلالى مسطورست » ولما كان خوندمير لايفتأ يذكر « جامع التواريخ » لرشيد الدين ، وكانت أخبـار الحادثة التى هو بصددها مستقاة من هـذا الكتاب حقيقة ، فقد ظننت فى وقت من الأوقات أن كلمة « جـلالى » ضرب من التصحيف وأنه يجب تعديلها إلى « چنان » وبالتالى ترجمة الجملة على هـذا النحو : « يقرأ المرء هكذا فى جامع التواريخ » . ولكن الحدس فى هذه النقطة لايمكن قبوله بأية حال ، إذ أن الكلمات التى نحن بصددها معناها « جامع التواريخ الذى ألفه جلال الدين » . وهذا الكتاب الذى يجهل وجوده حاجى خليفة يذكر أكثر من مرة فى « حبيب السير » وفى موجز تاريخ فارس الذى كتبه على شير بلهجة « چغتاى التركية » [٢] . وأعتقد أن المؤلف هو جلال الدين هذا الذى يتكلم عنه خوندمير ويذكره باسم جلال الدين العربى ليميزه ، فيما أعتقد ، عن جلال الدين الرومى الشاعر المشهور [٣] .

* * *

(١) ص ١٧ — ٢٣ .

(٢) كليات نوايى ، مجلد ٢ ، ورقة ٨١٩ ظهر و ٨٢٣ وجه . وتاريخ الفرس هو نفس التاريخ الذى ترجم إلى التركية الغربية ، وطبع فى فينا .

(٣) نقرأ فى فقرة من حبيب السير لخوندمير (مجلد ٣ ، ورقة ٣ ظهر) اسم : جمال الدين عرب . ولست أعرف ما إذا كان هو نفسه الذى يسمى فى غير هـذا المكان باسم جلال الدين عرب ، وأى الاسمين هو الصحيح فى هذه الحالة ، أو ما إذا كان مؤلفا آخر يحمل نفس اللقب ، وهو ما أرجحه .

أعتقد أن أى إنسان منصف يزن المعلومات التى ذكرتها حول الظروف التى أحاطت بتأليف تاريخ رشيد الدين حق وزنها ، لابد أن يقتنع بأن هـذا الكتاب هو خير مرشد يستطيع أن يلجأ إليه كل من أراد التعمق فى معرفة تاريخ المغول القديم . والواقع أن تاريخ رشيد الدين قد اعتمد فى تأليفه على فحص الوثائق الوطنية الصحيحة المحفوظة فى سجلات الامبراطورية ، والمذكرات التى فى حوزة الأسر الكبيرة ؛ وقام بتأليفه رجل صادق حى الضمير ، و بذلك يكون قد توفرت له كل مقومات الصدق . ولا نعتقد أن هناك كاتبا آخر من بين جميع الكتاب الذين أرادوا دراسة هـذه الفترة من التاريخ قد توفر له ماتوفر لمؤلفنا من الوسائل الضرورية لتحديد حوادث هذه الفترة ولكى يقدم إلى قرائه سردا صادقا عنها .

وأغلب الظن أنه لو كانت لدينا المذكرات الأصلية التى اعتمد عليها رشيد الدين لاستطعنا تصحيح بعض النقط التى أوردها أو تعذيلها ، ولكن هـذه الوثائق القيمة قد اختفت ، ولعل اختفاءها قد حدث فى أثناء الحروب الداخلية الطويلة التى مزقت الإمبراطورية المغولية ، وجرت إليها الخراب التام . فقد كانت هـذه المذكرات مكتوبة بلغة تقل معرفة الناس بها شيئا فشيئا ، ولذا لم تلبث أن أهملت ، وربما كانت قد أسلمت للنـار . وفى القرن التاسع الهجرى أراد كاتبان شهيران ، وهما على يزدى وألغ بيگ ، أن يعرضا الحوادث على

بساط البحث من جديد ، الأول فى مقدمة « ظفر نامه » [(١)] والثانى فى كتابه المسمى « ألوسى أربعة » [(٢)] ، أى كتاب الأوطان الأربعة الذى أراد أن يلم فيه بتاريخ الفروع الأربعة للإمبراطورية المغولية . ولم يرغب هـذان المؤلفان أن يستنيرا برشيد الدين ، وفضلا اتباع روايات أخرى غير الروايات التى قدم نتائجها فى كتابه ، فاعتمدا فى الـكلام على بدء عهد چنگيزخان ومفاخره على قصص بعيدة عن الحقيقه . وقد أدى هـذا بالمؤرخين من أمثال ميرخوند وخوندمير ، الذين خدعوا فى مكانة سابقيهم الشهيرين ، ولا سيما على يزدى ، إلى أن يشيعوا أخطاء صارخة يجب تطهير التاريخ منها . وهناك مؤلف فارسى آخر نبه شأنه فى القرن التاسع الهجرى ، وهو حافظ أبرو [(٣)] الذى يذكره

(١) خوندمير ، حبيب السير ، مجلد ٣ ، ورقة ٤ ظهر ووجه ، ٦ ظهر ووجه ، ٦٧ ظهر ، وغيرها ؛ حيدر الرازى ، ورقة ٥٨٩ ظهر ، ٥٩١ وجه ، ٥٩٧ ظهر .

(٢) حبيب السير ، مجلد ٣ ، ورقة ١٦ ظهر ، ٢٤ وجه ، ٢٥ ظهر .

(٣) نور الدين لطف الله المعروف بحافظ أبرو ولد فى مدينة « هرات » ، ولـكنه قضى طفولته وشبابه فى مدينة « همدان » وفيها تعلم . وكان يحتل أرقى مكانة بين المؤلفين وعظماء الرجال ، ونال إكبار الأمير « تيمور گوركان » (تيمور لنـگ) التى أغدق عليـه آيات إعظامه ، وأذن له فى حضور مجالسه الخاصة ، ولم يدع فرصة أو مناسبة إلا حاول فيها أن يظهر له رضاءه . وبعد وفاة هذا الفاتح انتقل حافظ أبرو إلى قصر السلطان شاه رخ ، وتلقى من الأمـير الشاب « ميرزا بايسنقر » مايدل على شديد إكباره له . وهـذه هى الفترة التى كتب فيها كتابا ضخما سماه (زبدة التواريخ بايسنقرى) ؛ وهو يحتوى على تاريخ كامل مفصل للعالم كله ، وعرض لنظم الشعوب المختلفة وعقائدها حتى سنة ٨٢٩ — ١٤٢٥ — ٢٦ . ومات حافظ أبرو فى مدينة زنجان فى شهر شوال من سنة ٨٣٤ — ١٤٣٠ — ٣١ (خوندمير ، حبيب السير ، ج ٣ ، ورقة ٢٠٧ وجه). وكثيرا ما يذكر تاريخه باسم : تاريخ حافظ أبرو . وانظر حيـدر الرازى ، مخطوطة المكتب الملـكية ببرلين ، ورقة ٥٩٤ ظهر ، ٥٩٧ ظهر وغيرها .

(ولحافظ أبرو « ذيل جامع التواريخ رشيدى » ، بالفارسية نشره الدكتور بيانى فى طهران ، وكان قد ترجمه للفرنسية سنة ١٩٣٦) ى . الخشاب .

معاصروه ومن أتوا بعده بإجلال وتقدير منقطعي النظير ، وقد ألف كتاباً ضخما ضمنه تاريخا مفصلا لجميع شعوب العالم ، ولكن لم يسعدنا الحظ بالوقوف عليه — ويبدو أنه سار على نهج رشيد الدين فيما يتعلق بتاريخ المغول ، أو هذا على الأقل مايمكن استنتاجه من فقرة للمؤرخ حيدر الرازى ،(١) إذ نرى هذا المؤرخ يلخص من تاريخ ميرخوند الحوادث المتعلقة بالسنين الأولى لحكم جنكيزخان وعلاقاته بأُنج خان ، ثم يعقب قائلا : « هذا هو نص ماورد فى مقدمة « ظفر نامه » ولكن تاريخ حافظ أبرو ينص على أن أُنج خان هو الذى لجأ إلى جنكيزخان ، وليس جنكيزخان هو الذى لجأ إليه » . فهذا القول يدل على أن حافظ أبرو كان يفضل الاعتماد على رشيد الدين فى هذا الجزء من تاريخه . ويتفق سرد رشيد الدين المتجانس الأجزاء مع سرد المؤرخين الصينيين كل الاتفاق ، ويشهد هذا الاتفاق الملحوظ فى الحوادث التى يرويها مؤلفون جد متباعدين ويكتبون بلغات مختلفة على إحاطة هؤلاء المؤلفين وصدقهم .

* * *

ويبدو أن المغول المعاصرين لا يحتفظون من تاريخهم الوطنى بأية روايات لها نصيب من القدم ، وأن كل مايتداولونه بينهم ينحصر فى بعض أخبار الأنساب وبعض الأساطير . ولا شك أن الكتاب الذى ألفه سننج ستزن فى القرن السابع عشر ، ونشره الأستاذ شميدت بالألمانية والمغولية ، يحتوى على

---

(١) المخطوطة الفارسية بمكتبة برلين الملكية ، ورقة ٥٩١ وجه .

أخبار مفيدة فى معرفة انتشار البوذية بين المغول ، وحول تاريخهم منذ إخراجهم من الصين ؛ أما فيما يتعلق بعهد چنكيزخان وخلفائه فإن الأخبار الغامضة الناقصة التى يقدمها لنا هـذا المؤرخ المغولى لا قيمة لها ولا يمكن مقارنتها بأية حال بالأخبار المتماسكة المليئة بالحقائق والأحداث التى يقدمها لنـا رشيد الدين والمؤرخون الصينيون . وأنا أعرف جيدا أن ذلك الناشر العالم الذى قام بنشر كتاب المؤرخ المغولى ينظر إلى مؤرخنا بعين الريبة ، ويتهم كتاب العرب والفرس جميعا بأنهم أرخوا للعصور الأولى من حياة الامبراطورية المغولية دون معرفة تامة بالحقائق والأحداث ، منساقين وراء أفـكار إسلامية سابقة ، وبأن جهلهم باللغة المغولية جعلهم ينسبون إلى هذه اللغة كثيرا من الـكلمات ذات الأصل التركى . وقد سبق أن أجبت على الشطر الأول من هـذا الاعتراض بما فيه الـكفاية ، وبينت مقدار الظروف المواتية التى توفرت لرشيـد الدين والاحتياطات التى اتخذها ليضمن صدق الأحداث التى يرويها . هـذا إلى أن الفترة التى عاش فيها رشيد الدين لم تـكن جد متباعدة عن فترة الفتوحات الهائلة التى ميزت عصر چنـكيزخان وخلفائه الأولين . فقد كان فى وسعه ، إذن أن يرى بعينى رأسه أبناء أو أحفاد أولئك الذين لعبوا دورا مرموقا فى تلك الـكوارث المخيفة ، والأشخاص الذين كانوا ضحاياها . وإذا كان قد عاش على هذا النحو مع أشخاص تغلى نفوسهم بدوافع مختلفة ، فإنه لم يعـدم أن يتلقف من أفواههم أقوم المعلومات ويقارنها بالتفاصيل المحفوظة فى سجلات الدولة ومذكرات الأسر الـكبيرة . ومع ذلك فإنى لا أزعم أن كل التفاصيل

التى احتواها كتاب رشيد الدين تتساوى فى درجة الصدق التاريخى . فأغلب الظن أن الكثير من بين الحوادث التى ترجع إلى الأزمنة القديمة يمكن اعتبارها محلا للريب ، بل زائفة على وجه التأكيد . ولكن لما لم يكن لدى المؤلف أية وسيلة للتحقيق بالنسبة لهذا الموضوع ، فقد قصرهمه على تسجيل الحوادث كما وجدها فى الروايات المغولية .

أما بالنسبة للاعتبارات الدينية ، فإنه من العسير على أى كاتب إسلامى أن يتجرد من القيود التى يفرضها عليه الإسلام ، ولا سيما حين يتعرض لكتابة تاريخ أمم وثنية ، ولكن الاعتبارات الوطنية بدورها قد تعرض المؤرخ للزلل أيضا . هذا إلى أن الوضع الذى وجد فيه رشيد الدين نفسه ، كان وضعا خاصا إلى أبعد حد . وذلك أنه كان فى حكم المواطن المغولى ، وموضع ثقة السلطان ووزيرا لمملكته ؛ ولذلك لم يكن من الممكن أن ينحاز إلى ذلك التطرف فى الحماس الذى قد ينحاز إليه مسلم صميم .

وإذا كان يبدو فى كل كتابه مسلما صادق الإسلام ، فإنا نراه من جهة أخرى يتجنب الإطراء غير المجدى ، ويتمسك دائما بنزاهة فى الرأى تستحق كل إجلال ، ولا سيما إذا كانت من مؤرخ . كان رشيد الدين شديد الإعجاب بالمغول ، ولذا فهو يطرى أعمال البطولة الهائلة التى تمت على أيديهم ، ويذكر دون مواربة ، ولكن دون مبالغة أيضا ، ضروب القسوة الشنيعة التى ارتكبها هذا الشعب ، وتخريب أعظم المدن وأكثرها ازدهارا ، وتذبيح

السكان العديدين دون قلق أو ندم ، كما يصور بهدوء وتحفظ ضروب التجديف التى قاموا بها فى مساجد بخارى وغـيرها من المدن ، حيث مزقوا المصاحف وألقوا بها أرضا ، وصنعوا من أغلفتها الثمينة مذاود لخيلهم .

أما مأخذ الجهل باللغة المغولية ، فإنه لا ينطبق على رشيـد الدين ، كما سبق أن أشرنا ؛ فإنه هو نفسه ، كما قلنا ، يؤكد أنه كتب بهذه اللغة ، ومن ثم فهو يعرفها معرفة عميقة . ولو لم يذكر هو هـذه الحقيقة ، لـكان لزاماً علينا أن نفترضها ، وإلا فـكيف يمـكن لرجل يحتـل المنصب الأول فى الامبراطورية المغولية أن يجهل لغة المغول التى تستعمل فى جميع أنحاء الامبراطورية ، ولا يعرف غيرها عدد لا يحصى من الأشخاص الذين يحتلون فيها أرفع الأماكن ؟ كيف يستطيع ، دون ذلك ، أن يحل المسائل المعقـدة التى تصادفه يوميا ، ويحكم فى القضايا العسيرة التى تعرض عليـه ، ويبت فيما يقابله من مهام لا حصر لأنواعها ، ويقوم بالتراسل المتواصل مع شتى الأمراء من سلالة جنـكيزخان ؟ وإذا أخذ عليه أنه كان يخلط بين الـكلمات التركية والمغولية فى بعض الأحيان ، فإن ذلك لم يـكن يحدث له إلا نادرا ، لأننا نراه على وجه العموم ينص على ما إذا كان المصطلح الذى هو بصدده من اللغة التركية أم من المغولية . هـذا ، ولا يصح أن يغيب عن بالنا أن اللهجة التى كانت تتـكلم فى فارس لم تـكن هى نفسها اللهجة التى تتـكلم على ضفاف نهرى « سلنجاه » و « أنون » ؛ إذ أنه لما وصل المغول فى حروبهم وفتوحهم

حتى أقاليم آسيا الغربية ، أخـذوا يجرون فى ركابهم جحافل من القرغيز والاويجور النيمان وغيرهم ؛ وكل هؤلاء كانوا يتـكلمون التركية . فجيوش چنـگيزخان وخلفائه كانت تتداول لغتين ، لا لغة واحدة ، ولا بد أن تـكون كل من اللغتين قد أثرت فى الأخرى عن طريق الاستعارة المتبادلة من جراء الاحتـكاك اليومى ، وقد حدث ذلك منذ عصر چنـگيزخان نفسه ، إذ أننـا نعرف أنه كان له ولد يلقب « ألوج نويان » أى الأمير الـكبير (أمـير بزرگ) . وهذا الاسم خليط من اللغتين . ولا بد أيضا أن تـكون الزيجات التى كانت تقع يوميا بين رجال من أصل مغولى ونساء من أصل تركى ، قد ساعدت على إدخال كثير من العبارات غير المغولية فى اللغة المغولية ، ولا سيما أنه لم يمض قرن ونصف قرن من الزمان حتى تلاشت المغولية أمام اللغة التركية فى الأقاليم نفسها التى كان يحتلها بعض الأمراء المغول . ففى عهـد تيمور كان السكان المغول الذين يحتلون بلاد ماوراء النهر لا يتـكلمون غير التركية . وبهذه اللغة كتبت الإجازة العلمية التى حررت فى كاپتشاك بأمر السلطان قتلق تيمور سنة ٨٠٠ ، ١٣٩٧ ـ ١٣٩٨ ، ونشرها الأستاذ دى هامر de Hammer[1]. وقبل هذه الفترة ، أى فى سنة ١٣٨٣ من التاريخ الميلادى ، عقدت معاهدة بين الجنوبيين المستوطنين كفا Caffa وبين أحد أمراء كاپتشاك وحررت باللغة الأويغورية ،

---

(١) Fundgruben des Orients جـ ٦ ، ص ٣٥٩ وما يليها .

أى بالتركية (١) . ووصف بادوتشى پيجولوتى Baducci Pegolotti (٢) الطريق الذى يتبعه التجار للوصول إلى « خطاى » فقال : « ويجب على المرء أن يصحب معه مترجمين يعرفون اللغة (الـكومانسكية) جيدا » ، مما يدل على أن هـذه اللغة ، أى اللغة التركية ، كانت منتشرة فى شمال آسيا . ولماوصل الراهب الفرنشسكانى ، بسكاليس Paschalis ، إلى سراى عاصمة كاپتشاك فى سنة ١٣٣٨م أراد أن يتعلم اللغة الشامانية قبل أن يوغل فى المسير ، لأنها هى اللغة المتداولة فى بلاد التتار والفرس وفى الخطاى وغيرها (٣) . ونجد فى اللغة المغولية التى كان يتـكلمها مغول فارس بعض العبارات التركية التى لعلها لم تـكن تستعمل إلا فى اللغة العامية . فنقرأ ، مثلا ، فى إحدى فقرات رشيد الدين (٤) هذه الـكلمات : « هولا جو ير ليفيدن وكيشوسوز يدين » (بأمر هولاكو ، تبعا لـكلام كيشو Keischou » . وكان القائد العام للجيوش المغوليـة فى فارس يحمل لقب « (بكلر بگى) Beiylerbeghi »(٥) ؛ وهـذه الـكلمة تنتمى إلى اللغة التركية بمادتها وبصيغتها على السواء . وكان الأمير « نوروز »

---

(١) أودريكو Lettere ligustiche, Oderico ص ١٨٠ ، دوريات المجمع ، قسم التاريخ والآداب القديمة ، مجلد ٣ تاريخ ، ص ١١٤ .

(٢) La Pratica della mercatura ، ص ٢ .

(٣) موشايم Historica Tartarorum ecclesiastica, Mosheim ، ملحق ، ص ١٩٤ . .

(٤) المخطوطة الفارسية رقم ٦٨ ا ، ورقة ٣٤١ ظهر .

(٥) مسالك الأبصار ، مخطوطة عربية ٥٨٣ ، ورقة ٨١ ظهر ؛ تاريخ وصاف ، ورقة ٢٢٣ ظهر و ٣٦٨ وجه .

قد وعد بيدوخان أن يبعث إليه بالأمير غازان مكبلا بالأغلال . ولما وصل إلى سيده الشاب لم يفكر فى خيانته ، بل ، على العكس من ذلك ، حثه على الثورة ، وأطلعه على ما رآه وعلم به خلال إقامته فى قصر العاهل المغولى . ولما أراد أن يتحلل من وعده لهذا العاهل ، بعث إليه بمرجل [1] مربوط ربطا محكما . والواقع أن هذا التلاعب الساخر الغريب بالألفاظ يمكن تفسيره باللغة التركية التى تدل كلمة قزان فيها على المرجل . وفترة السيطرة المغولية فى فارس هى الفترة التى دخل فيها الكثير من أسماء الحدث المنتهية بـ « ميشى » فى لغة تلك البلاد . وهذه الصيغة غريبة كل الغرابة على اللغة المغولية ؛ و إذا صح تقديرى ، فإن أصلها يرجع إلى أسماء الفاعلين التركية المنتهية بـ « ميش » ، ثم أضيفت إليها الياء لتكوين اسم الحدث ، تبعا لما هو معتاد فى اللغة الفارسية .

أما عن العبارات المغولية التى رسمت خطأ فى تاريخ مؤلفنا ، فأغلب الظن أن معظم هذه الضروب من التحريف يرجع إلى النساخ الذين كتبوا تلك الكلمات اتفاقا دون العناية بتحديد هجائها الحقيقى . ونحن نعرف أن الناشرين والشراح الأوربيين ، وهم أجانب على لغة المغول ، إذا وجدوا أمامهم عددا من الخلافات وتحتم عليهم الاختيار بينها ، لم يعرفوا أن يختاروا خيرها؟

---

(١) رشيد الدين ، ورقة ٣٥٥ ظهر ؛ ميرخند ، ج ٤ ، ورقة ٩٨ ظهر ؛ خوندمير حبيب السير ، ج ٣ ، ورقة ٤٦ وجه .

إلا عن طريق المصادفة : ولهذا كثرت لديهم الأخطاء التى من هـذا القبيل . ولـكن مثل هذا النقص لا يمـكن أن يعاب على رشيد الدين .

* * *

يوجـد بين مختلف القطع التى يتألف منها تاريخ المغول لرشيد الدين قطعتان يبدو لى أنهما تهمان القراء بوجه خاص ، وهما : حياة جنكيزخان ، وحياة غازان خان . والأولى تنطبق تمام الانطباق ، كما سبق أن قلت ، على الأخبار التى نقلها إلينا الـكتاب الصينيون . ولذلك ، ولمـا كان فى عزمى أن أعرف القراء بمجهود مؤلفنا عن طريق الإكثار من المقتبسات ، فقد رأيت أن أقدم لهم حيـاة جنـكيزخان بأسرها مقتبسة من رشيد الدين مع مقارنتها بالروايات الأخرى التى لدينا عن هـذا الأمير . أما تاريخ غازان خان الذى تتلوه قطعة يتـكلم فيها المؤلف عن أعمال هـذا الأمير ومنشآته الخالدة ، فإنه يـكون فصلا هاما ومفصلا ، وقد كنت أود أن أقدم لقرائى صورة صادقة عنه . وقد قام الأستاذ كرك باتريك Kirc Patrick بترجمة الجزء الثانى منه إلى الأنجليزية ، ونشره فى كلـكتا تحت عنوان « منشآت غازان خان » ضمن مجموعة من القطع المختارة من الأدب الشرقى ، ولـكن هـذه النشرة لم تـكن لتجعل عملنا غير مجد [1] . وذلك ، أولا ، لأن المجموعة التى نتكلم عنها لا تـكاد توجد فى فرنسا ، وثانيا لأنه لم يـكن فى متناول كرك باتريك منه إلا موجز مأخوذ

---

(١) New asiatic Miscellany مجلد ٢ ، ص ١٤٩ ومايليها .

من « حبيب السير » . أما أنا فكنت سأعتمد على الفصل بأكمله كما هو فى الأصل الذى يأسف المترجم العالم أشد الأسف من عدم حصوله عليه .

هـذه هى الخطة التى كنت قد وضعتها لنفسى ، ولـكن ظروفا مختلفة حالت دون تحقيقها . فمنذ هـذه الفترة تغيرت وجهة نظرى بصورة محسوسة . فقد أصدر الأستاذ موراجا دوسون Mouradgaa d'Ohsson تاريخا للمغول اتبع فيه تاريخ رشيد الدين بكل دقة . وترتب على نشر هذا الـكتاب القيم أن أصبحت ترجمة حياة جنكيزخان أقل ضرورة من ذى قبل ، مادامت الأخبار غير الصحيحة التى تضمنها تاريخ پتى لاكروا Pétis la Croix وغيره من الجامعين قد انزوت ، وحلت محلها أخبار أنقى منها وأصدق. ولـكن لما صح العزم على طبع مجموعة المؤلفات الشرقية فى المطبعة الملـكية ، تقرر أن يصحب كل مؤلف منها بترجمة فرنسية وتعليقات . وكنت فى أول الأمر قد تعهدت بإصدار مجلد رشيد الدين دون أن أحذف منه كلمة واحدة . ولـكن لما تفحصت ضخامة العمل الذى فرضته على نفسى ، وفـكرت فى قصر الحياة والبطء الذى تسير به الطباعة بطبيعة الحال ، أيقنت أن هذا العمل يفوق طاقتى وأننى لن أستطيع بأية حال أن آمل الوصول به إلى نهايته . فاقتصرت على نشر جزء الـكتاب الذى يعالج تاريخ المغول فى فارس. وإذا وجدت فى الوقت فسحة ، أتبعته بالملحق الذى يحتوى ، كما قلت ، على الحياة التفصيلية للسلطانين خدابنده ، أو الجايتو ، وأبى سعيد .

كانت المكتبة الملكية ، فى الوقت الذى كتبت فيه هذه المقدمة ، هى المكتبة الوحيدة فى أوربا التى تضم كتاب رشيد الدين بين ذخائرها . وهى تستحوذ على نسختين منه ، وكلاهما من القطع الكامل . والأولى منهما التى لم تقيد بعدفى الفهرس والتى أشير إليها بالرقم ٦٨ ا هى أكمل النسختين وتحتوى، زيادة عن الأخرى ، على الملحق الذى يعالج حياة ألجايتو وأبى سعيد ، كما سبق أن ذكرت . وقد قام بنسخ هذه المخطوطة التى تتكون من أربع وثلاثين وخمسمائة ورقة مسعود بن عبد الله ، وانتهى من كتابتها فى اليوم الرابع من شهر رجب سنة ٨٣٧/١٤٣٣ — ١٤٣٤ . ويحتل كتاب رشيد الدين الأوراق السبع والأربعين والأربعمائة الاولى . أما بقية المجلد ، من الورقة ٤٤٨ إلى الورقة ٥٣٤ ، فتحتوى على تكملة كتبها مؤلف مجهول الاسم بأمر شاه رخ ابن تيمور لنك .

والمخطوطة مكتوبة بخط جميل ، ولكنها ملأى بالأخطاء التى ترجع إلى الناسخ ، كما أنها كثيرا ماتهمل وضع نقط الإعجام ، مما يجعل قراءتها عسيرة . ومما يزيد فى شناعة هذا النقص أن الكتاب يحتوى على عدد كبير من أسماء الأعلام وأسماء المدن والكلمات التى ترجع إلى اللغة المغولية أو الصينية أو غيرهما . وقد كلفنى ضبط الهجاء وتحديد النطق الصحيح لجزء من هذه الكلمات مشقة لاحد لها ؛ أما الكلمات الباقية فقد اضطررت اضطرارا إلى العدول عن استخدامها .

والنسخة الثانية من كتاب رشيد الدين على جانب كبير من النقص . وهى تتكون من مائة وخمسين ورقة من أكبر قطع ، وتحتوى ، إلى جانب وصف القبائل التركية والمغولية ، على نسب جنكيزخان والجزء الأكبر من حياة هذا الأمير . وخط هذه المخطوطة لا بأس به ،ولكنها تحتوى ، فضلا عن الأخطاء التى تشترك فيها مع النسخة الأولى ، على عيب خاص يجعل الاستفادة منها عسيرة جدا ، بل شبه مستحيلة . وذلك أن جميع العناوين والكلمات التى كان على الناسخ أن يكتبها بالمداد الأحمر قد ترك مكانها أبيض . وقد قام بيتى دى لا كروا الابن Pétis de la Croix بترجمة هـذا الجزء من تاريخ رشيد الدين إلى الفرنسية ، واعتمد والده اعتمادا كبيرا على هـذه الترجمة فى دراسته لحياة جنكيزخان [١] . ولا شك أن بيتى دى لا كروا كان من ذوى المواهب النادرة ، ولكن لما لم يكن لديه إلا نص ناقص ملىء بالتحريف ، فإن فقدان كتابه لا يثير فى نفوسنا أى أسف .

واليوم توجد نسخ من هـذا الكتاب فى جهات عديدة . ففى المكتبة الإمبراطورية فى سانت بطرسبرج ، إذا صح تقديرى ، نسختان منه ، إحداها كانت بين المجموعة الجميلة التى كان المرحوم الأستاذ روسو [٢] قد كونها ، ثم نقلت إلى روسيا . وهناك نسخة أخرى فى مكتبة ڤينا ، وأخرى اشترتها

---

(١) تاريخ جنكيزخان Histoire de Genghizcan ، ص ٥٣٩ — ٥٤١

(٢) Récueil de catalogues divers, manuscrits orientaux ، ص ٤

الحكومة الإنجليزية من ورثة الأستاذ رتش ، وهى اليوم فى مكتبة المتحف البريطانى . ويبدو أن هذا السيد الكريم لم يحصل على ذلك الكتاب إلا قبل موته بزمن وجيز ؛ لأنى لم أجد أى ذكر لهذا المجلد فى الفهرس الذى نشر فى مجموعة « كنوز الشرق Mines d'Orient » .

* * *

وقد ألف رشيد الدين ، إلى جانب المجموعة التاريخية التى تكلمنا عنها ، عدة كتب أخرى . وأول ماسنتكلم عنه من هذه الكتب هو « كتاب الأحياء أو الآثار » الذى يبحث فى الاقتصاد الزراعى وينقسم ، إلى أربعة وعشرين فصلا[1] . وهذا بالتقريب مايقول المؤلف فى هذا الصدد :

« يتكلم الفصل الأول عن السنة والفصول المختلفة والبرد والحر والعلامات الدالة على الرياح والمطر . ويبحث الثانى فى الماء والأرض والطقوس الحارة والباردة . ويشير الثالث إلى نوع الأرض التى تناسب كل نوع من أنواع النبات ، والفترات التى تصلح لكل منها والوسائل التى يجب اتباعها ، وفوائد أخرى من هذا القبيل . ويدور الرابع حول كل مايتعلق بالقنوات ورى الأرض . والخامس . . . والسادس يعالج الحبوب والجذور ، وطريقة تمييز جيدها من رديئها . ويتكلم السابع عن النباتات التى يجب بذرها والتى يجب غرسها .

(١) مخطوطة عربية رقم ٣٥٦ .

والثامن عن شتى الأشجار ذات الفاكهة وغير ذات الفاكهة ، المزرعة أو البرية ، سواء أكانت مماينبت فى بلادنا أم خاصة بأجواءأخرى . و يبحث التاسع فى تطعيم الأشجار وفوائده . والعاشر فى استخدام السماد ، وفى أنواعه المختلفة،وفوائده وشتى خواصه.والحادى عشر فى أنواع الشمام والخضر والأعشاب الغذائية . والثانى عشر يذكر بعض التفاصيل عن زراعة القمح والشعير ، وعن شتى أنواع الحيوان، والفائدة التى نجنيها من كل منها . والثالث عشر فى زراعة السكر والقطن والسمسم والكتان والنيلة والقنب ونباتات أخرى من هذا القبيل. والرابع عشر فى وسائل استبعاد الجراد والفيران والنمل والأفاعى والعقارب وغيرها من الحيوانات الضارة . والخامس عشر فى كل مايتعلق بالحمام والدجاج وسائر الطيور الأليفة ، والطريقة التى يتكاثر بها كل نوع منها.والسادس عشر فى مختلف أنواع الخيل والبقر والحمير ، وفى سائر الحيوانات المستأنسة والبرية . والسابع عشر فى شتى أنواع النحل ، ومختلف أنواع السكر التى ندين بها للحيوانات أونستنبطها من النباتات مع طريقة حفظها.والثامن عشر فى العوارض التى تعرض للأشجار والفواكه والنباتات ووسائل منعها أوعلاجها . والتاسع عشر فى وسائل حفظ القمح وشتى الحبوب وأنواع السكر والنبيذ والزبيب وغير ذلك. والعشرون فى القواعد التى يجب اتباعها فى بناء المنازل والعمائر المخصصة لأعمال البر والحصون وسائر الأبنية . والحادى والعشرون فى تشييد السفن والسدود والجسور والمقابر . والثانى والعشرون فى الصفات الخاصة بكل نوع

ن أنواع الحيوان ، والمزايا التى يمكن استفادتها منه . والثالث والعشرون فى
ن استخراج المعادن وغيرها من المواد من المناجم ، مع طريقة استخدامها .
والرابع والعشرون فى طبيعة المعادن والأحجار ، وخصائص كل نوع منها ،
وضروب الفوائد التى يمكن الاستفادة بها منها » .

ولم يصل إلينا هذا الكتاب

وليست هذه الكتب المختلفة ، مهما بلغ حجمها ، إلا جزءا من إنتاج رشيد الدين ، إذ أنه كان أكثر اشتغالا بالميتافيزيقا وعلوم اللاهوت منه بتلك المسائل . وقد ذكرنا فيما سبق أن مؤلفنا كان يشعر منذ شبابه الأول بميل خاص نحو التأمل فى العقائد الدينية ، والمعنى الصوفى للقرآن ؛ ولكن تواضعه الجم وحياءه الطبيعى قد منعاه من نشر ثمرات تفكيره إلا فى وقت جد متأخر . وتنحصر أول رسالة كتبها عن المسائل الدينية فى رسالة طويلة بعض الشىء ، أراد أن يبرهن فيها على أن أمية محمد أمر مقصود من العناية الإلهية ، ودليل حاسم على صدق رسالته . ويقول رشيد الدين إن النبى أراد أن يجازيه على حسن اجتهاده ، فأنار بصيرته ، ووهبه ملكة التفكير فى أعوص المسائل الدينية بسهولة فائقة . ومنذ هذا الحين ، أعنى منذ سنة ٧٠٥ ، ١٣٠٥ ـ ٦ ، ازدادت ثقة مؤلفنا فى نفسه ، ولم يعد يخشى نشر الأفكار العديدة التى يوحى بها إليه خياله الخصب ومثابرته الطويلة .

وفى هذه الأثناء رغب السلطان ألجايتو [١] إلى رشيد الدين فى أن يفسر بعض آيات القرآن ، فسارع بالقبول وزود تفسيراته بكل ضروب البسط التى يمكن أن تحتملها . وكان قد كتب عدة رسائل فى مسائل مختلفة ، فجمعها كلها فى مجلد واحد سماه « التوضيحات » . ويتكون هذا المؤلف الذى بين أيدينا من مقدمة وتسع عشرة رسالة . ويتكلم فى المقدمة عن البواعث التى دفعته إلى تأليف هذا الكتاب . وتدور الرسالة الأولى حول تفسير اسم الله ، والثانية عن تقسيم الموجودات ، والثالثة تحتوى على تفاصيل أوسع حول الموضوع نفسه ، والرابعة فى تفسير الآية القرآنية : « . . . قَالُوا آمَنَّا . . . » [٢] ، والخامسة فى تفسير الآية : « وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ » [٣] ، والسادسة فى تفسير الكلمات القرآنية : « أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ؟ » ، والسابعة فى تفسير سورة : « قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ » [٤] . وتشتمل الثامنة على ذيل للتفسير السابق ، والتاسعة فى الرد على المطاعن التى وجهها أعداء المؤلف إليه ، وفى العاشرة مناقشة عميقة لمسألة المعراج ، والحادية عشرة فى تفسير الحديث : « الأرواح جنود مجندة ... » ، وتتكلم الثانية عشرة عن نسب النبى ، وعن تفسير قوله تعالى : « إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ... » [٥] ، وتقدم الثالثة عشرة عرضا واضحا لمسألة أمية النبى محمد ،

---

(١) مخطوطة عربية رقم ٣٥٦ ، ورقه ٥٥ ظهر ، وورقة ٦٩١ وجه .
(٢) سورة المائدة ، آية ١١٥ .
(٣) سورة الإسراء ، آية ٨٦ .
(٤) سورة الكافرون ، آية ١ .
(٥) سورة الكوثر ، آية ١ .

وفى الرابعة عشرة رد على منتقدى الإمام الغزالى ، والخامسة عشرة تبحث فى سمو العقل والعلم ، والسادسة عشرة . . . والسابعة عشرة تتكلم فى رؤيا رآها المؤلف ، والثامنة عشرة تبحث فى الإحسان ، وأخيرا تشتمل التاسعة عشرة على مدح للعلماء . وكان فى عزم رشيد الدين أن يكتب تفسيرا شاملا للقرآن ، يبسط فيه كل آية بأوسع تفصيل ، فيقول فى هذا الصدد : « كان هذا عزمى ، ولكنى لم ألبث أن أدرك أن تفسير هذا الكتاب المقدس بحر لا شاطىء له ، وأنى إذا انغمرت فى عبابه ، فقد وجب على أن أبذل كل جهد لعبوره فى أقرب مدة ، والوصول إلى شاطئه فى أسرع وقت ، ولذلك رأيت أنه يجدر بى اتباع طريق أقصر حتى أستطيع الوصول إلى هدفى فى أوجز فترة . وفى الحقيقة إذا كان للإنسان أن يفخر بإتمام شىء ما ، فإنه لا يجوز أن يستغرق منه هذا الشىء أكثر من بضع سنين . فكيف يصح لنا أن نأخذ على عاتقنا عملا يستغرق حياة طويلة ، ونحن لانستطيع أن نقدر لأنفسنا فى الوجود إلا أقصر مدى ؟ هذا ، وإذا مد الله فى عمرى ، استطعت أن أجنى ثمار ما أنجزته فى زمن وجيز . أما إذا شرعت فى تأليف كتاب ضخم ، ولم يهبنى الله من طول الحياة ما يكفى لإتمامه ، فإن عملى يظل ناقصا فيعتريه الإهمال ويخيم عليه النسيان . وذلك فضلا عن أنه من الأكيد أن الإنسان دائما على أبواب الموت ، ولا يجوز له أن يعول على غير اللحظة التى هو فيها .

ولذلك فإنى لو أردت القيام بتفسير كامل للقرآن ، لوجدت لزاما على أن

أقوم بتأليف كتــاب كبير ، فى حين أنى قد لا أستطيع أن أفى لنفسى بتوفير الفراغ الذى يلزم له . نعم يمكن الإنسان أن يقول نفس هذا القول فيما يتعلق بتفسير آية واحدة ؛ ولـكن مما لا شك فيه أنه يكون أقرب إلى الصواب حين يأمل فى إتمام عمل يستغرق وقتا قصيرا مما لو زج بنفسه فى عمل يستغرق السنين الطوال . وقد حدت بى هذه الأفـكار وأمثالها إلى أن أختصر طريقى جهد الطاقة . ولما أنعمت النظر فى كتب المؤلفين والمفسرين المتبحرين فى العـلم والمشهود لهم بالسبق ، وجدت أن الأواخر لم يقوموا ، فى غالب الأحيان ، إلا بتـكرار تفاسير الأوائل مع صوغها فى عبارات جديدة . فلما تيقنت من ذلك، قلت لنفسى : إنى إذا خطوت خطوهم ، أنفقت فى عملى وقتاً طويلا دون أن تـكون له فائدة تذكر . وإلا فأى فائدة يجنيها المرء من قراءة كتابى ، إذا قصرت جهـدى على تـكرار الآراء السديدة التى تطويها كتب القــدامى فى بطونها ؟

وبعد ، فهذه هى الطريقة التى رأيت اتباعهــا : إذا طرأت فى ذهنى فـكرة تتمشى مع القعل السليم وتتفق والسنن الصحيحة ، طرحت بها فورا على الورق ، مع تجنب الانسياق فى مناقشات طويلة ؛ ولـكنى ، من جهة أخرى ، رأيت أنى لو أهملت آراء المفسرين الذين سبقونى إهمالا تاما ، لجاء كتابى ناقصا ، وقصرت عن بلوغ الهدف الذى رسمته لنفسى . والحقيقة أن ملاحظات هؤلاء العلماء مختلفة النواحى ، فبعضها يهتم بمعنى الجملة، وبعضها يعنى باشتقاق

الكلمات ، و بعضها بصيغها وترتيبها فى الجمل المختلفة ، و بعضها بالمشاكل النحوية ، والبعض الآخر يقصر همه على الدلالات الحقيقية والمجازية . وكل منها جيد فى بابه ، مفيد لقارئه ، بل و بعضها ضرورى لابد منه لحسن فهم النص . وقد استقر رأيى ، بعد كل هذا التفكير ، على أن أبدأ فى تفسير الآية بجمع آراء العلماء السابقين وترتيبها تبعا للنظام الذى ساروا عليه ، ثم أتبعها بأفكارى الخاصة .

***

هـذا هو المسلك الذى سلكه رشيد الدين فى شتى مؤلفاته الدينية والميتافيزيقية. فلم يكد ينتهى من الكتاب الذى تكلمنا عنه حتى بدأ عدة كتب أخرى أنهاها بسرعة لايكاد يصدقها العقل . وأول ماسار فيه من تلك الكتب هو « مفتاح التفاسير » . وهو ينقسم إلى قسمين ، أولها يشتمل على رسالتين : يبرهن فى أولاهما على كمال بلاغة القرآن ، وعلى أن تفسير هذا الكتاب المنزل يفتح الطريق إلى آراء وأفكار لا حصر لها . وتبحث الثانية فى المفسرين ، وطبقاتهم، والقواعد التى يجب عليهم اتباعها .

و يتكون الجزء الثانى من ست رسائل : الأولى تعالج مسألة الخير والشر ؛ والثانية فى الجزاء على الأعمال الصالحة ، والعقاب على الأعمال الطالحة، وأنواع الصبر المختلفة ؛ و ينحصر موضوع الثالثة فى الكلام على طول الحياة البشرية وقصرها ، والإسراع أو البطء فى نهاية أعمارنا ؛ وتهدف الرابعة إلى

حل مسألة القضاء والقدر ؛ والخامسة تحتوى على تفنيد التناسخ ، والبرهان التام على بعث الأجسام ؛ والسادسة فيها مناقشة للكلمات : الرعاية الإلٰهية ، والفلاح ، والسعادة ، والحظ ، والطالع ، ثم للكلمات التى تدل على المعانى المضادة لتلك .

وقد بدأ الكتاب المسمى « بالسلطانية » فى يوم الثلاثاء التاسع من شهر رمضان سنة ٧٠٦، ١٣٠٦ – ٧ ، عقب اجتماع عقد لدى السلطان ألجايتو [١] .

وهو لا ينقسم إلى رسائل ، بل يتكون من متن وذيل . وقد سبق المتن بمقدمة فى مدح السلطان ألجايتو وعرض للأعمال الجليلة التى قام بها . ثم يتلو ذلك بحث عميق حول كلمات : الوحى ، والإلهام ، والمعجزة ، والرسالة الإلٰهية ، والنبوة ، وحول الأسباب التى جعلت بعض الأنبياء يلقبون بـ « أولى العزم » ، ومميزات خاتم النبيين ، والفروق التى توجد تلك الدرجات المختلفة . ويتلو هذه القطعة بحث آخر فى أن الصالحين سيخلدون فى الجنة ، وأن بعض أهل النار لن يمكثوا فيها أكثر من أيام فى حين أن الآخرين سيتلظون بجحيمها أبد الآبدين . أما الذيل فينقسم إلى قسمين ، ويحتوى على تفاصيل مسهبة حول الفوارق التى توجد بين الأنبياء والصديقين والخلفاء ، ومع ذلك أنساب كل طائفة من هؤلاء وأولئك .

ويتكون كتاب « لطائف الحقائق » من أربع عشرة رسالة . فى الأولى منها يتكلم المؤلف عن رؤيا رآها فى الليلة السادسة والعشرين من شهر

---

(١) مخطوطة عربية رقم ٣٥٦ ، ورقة ٢١٤ وجه .

مضان سنة ٧٠٥ ، ١٣٠٥ ، ورأى فيها أنه قُدم للنبى محمد (صلى الله عليـه سلم) ؛ والثانية تعالج الأحاديث الغامضة وتبرهن على أن الرجل الملهم يستطيع ، ى بعض الظروف ، أن يـكتب بسهولة وسرعة تبلغ حد الإعجاز ، والثالثة تكلم فى تفسير الآية القرآنية : « قل لو كان البحر مدادا . . . » ؛ والرابعة بحث فيما إذا كانت الأرض مسطحة أم كروية ؛ وتعالج الخامسة مسألة البعث تفسير السبب الذى من أجله يبعث الناس اثنين اثنين معا ؛ والسادسة تتكلم عن غفران الله ومسائل أخـرى متعلقة به ؛ وتحتوى السابعة على الإجابة على ثلاثة أسئلة متعلقة بوحدانية الله . . . الخ ؛ والثامنة عن معجزات النبى ؛ التاسعة التى يدور موضوعها الأساسى حول غفران الله تعرض وجوها جديدة لما قيل فى السادسة ؛ والعاشرة تتكلم فى درجات الـكمال المختلفة التى يمكن للنفس أن تصل إليها ، وتنتهى ببيان فضل درجة خاتم النبيين وآخرهم ؛ وفى الحادية عشرة حل لبعض المسائل ؛ وفى الثانيـة عشرة استعراض للمزايا التى نستطيع جنيها من مختلف الظروف ، والحسنات التى ننالها ؛ وفى الثالثة عشرة جواب على سؤال اقترحه السلطان حول ماورد فى الحديث من أنه : « من قال لا إله إلا الله دخل الجنة » ؛ والرابعة عشرة تبحث فى تفسير الأعداد .

تـكون الـكتب الثلاثة التى تـكلمنا عنها ، مضافا إليهـا كتاب « التوضيحات » ، مايسمى « بالمجموعة الرشيدية » .وتوجد بالمـكتبة الملـكية مجموعة رائعة منها باللغة العربية .وهو مجلد من القطع الـكامل ذو حجم هائل ،

وخط جميل ، وقد شكل تشكيلا تاما . ويحتوى على ثلاثمائة وسبعين وست صفحات ، وقام بنسخه، فى سنة ٧١٠، محمد بن محمد المعروف بـ «زود نويس» ، أى سريع الكتابة « ونقرأ على رأس المجموعة شهادات لسبعين من علماء المسلمين يقررون فيها أن ما احتواه هـذا المجلد يطابق أنقى مبادئ الاسلام ، ويوجهون أسمى آيات المديح إلى مؤلفه . ونجد هذه الشهادات بأسرها مكتوبة بالعربية فى مخطوطة فارسية تحتوى على قطعة من ترجمة المذكرات التى كان السلطان بابر [١] قد كتبها بالتركية . أما كتاب « لطائف الحقائق » الذى يكون جزءا من المجموعة آنفة الذكر ، فإنه يوجد باللغة الفارسية بين المخطوطات التى أحضرها من الهند المرحوم السيد « أنكيتل دى پرون Anquetil de Perron . وقد أخطأ هذا العالم،حين أعلن أن هذا الكتاب من تأليف سيد على الهمدانى [٢] . وقد عثرت بين مخطوطات مجموعة المرحوم الأستاذ ريو التى توجد الآن فى مكتبة سان بطرسبورج الامبراطورية على مجموعة من الخطابات التى كتبها رشيد الدين و بعث بها إلى أصدقائه وأبنائه ، وعددها خمسة وعشرون خطابا [٣] .

***

---

(١) مخطوطة فارسية رقم ١٠٧ ، ورقة ١ — ٧٠ .
(٢) زند اوستا الجزء الأول من المجلد الأول ، ص ٥٣٣ .
(٣) فهرس المخطوطات العربية ، ص ١١ .

وهكذا كان رشيد الدين يشتغل بتفسير القرآن ، ويعالج المسائل التجريدية البحتة فى الأخلاق والميتافيزيقا . وفى الوقت الذى كان يجب أن توفر له هذه المؤلفات نفسها تقدير المسلمين العاملين جميعا وعرفانهم ، نراها تجر عليه عاصفة من الهجوم تسبب له أبلغ ضروب الحزن والألم . ولندع رشيد الدين نفسه يعبر عن حنقه فى الرسالة التى خصصها لسرد هـذه الحادثة [١] : « مؤلف هـذا الـكتاب ، العبد الحقير فضل الله رشيد الدين ، يعرض على إنصاف أعظم علماء الإسلام تلك المفتريات الظالمة التى رماه شخص جاهل حقود ، أراد بزيفه أن يبهر العامة ويشق طريقه نحو الجاه والمال . وقد بلغت به الجرأة أن شمل بمفترياته طائفة من جلة العلماء ذوى الشهرة الراسخة الذين يعتبرون اليوم من عمد الدين ، فنسب إليهم نوايا لم يعرفوها ، ورماهم بالمروق من الدين . وأراد بذلك أن يحط من قدرهم فى نظر المسلمين ، وأن يجعلهم موضعا لأقذع حديث وأمر نبذ ، بينما يحظى هو بطيب الأحدوثة وذيوع الصيت، إذ يوهم الملأ بوثوقه من قوته إلى حد أنه استطاع أن يصدر آراء تناقض ماقال به فطاحل العلماء . وسنورد هنا الاتهامات ، ونفندها بأدلة مقنعة تتفق مع العقل السليم وصحيح الأثر . ونرجو من ذوى العلم فى جميع الأمصار أن يتأملوا هـذا الأمر بعناية فائقة ، وأن ينتقموا لنا وللعلماء الذين أشرنا إليهم من مفتريات هذا الجاهل . ولنا أن نأمل فى أن كل من يقرأ هـذه الرسالة منهم يسارع بالرد على المسائل

(١) مخطوطة عربية رقم ٣٥٦ ، ورقة ١١٩ ظهر ووجه ، ١٢٠ ظهر ووجه ، ١٢١ ظهر .

التى تنطوى عليها ، متبعا الصدق وقواعد الإنصاف وساعيا جهده فى التمييز بين الحق والباطل .

وبعد أن عرض رشيد الدين أسلوب حياته حتى تلك اللحظة وميله دائما إلى التفكير فى عقائد الإسلام والمهام العديدة التى كانت تستغرق كل وقته ، واصل كلامه على هذا النحو قائلا : ظللت منذ أن اعتلى السلطان ألجايتو العرش ، لاأجد أية فرصة لتسجيل فكرة من الأفكار التى طرأت فى ذهنى عن المسائل المتعلقة بالدين . وكنت فى هذه الفترة قد بدأت بعرض نتائج تفكيرى ، أحيانا ، فى اجتماعات أعقدها مع رجال من ذوى الكفاءة النادرة . وذات يوم ذهبت فى زيارة « لتاج الدين مؤمنى » الذى شغل منصب الوزارة مدة طويلة بجدارة مقطوعة النظير ، ثم هجر الجاه والمجد والثروة ، ليلجأ إلى تلك العزلة التى يقيم فيها منذ أربعة وعشرين عاما ، لايشغله فيها غير التفكير والانكباب على العبادة . واتفق أن جرنا الحديث إلى الكلام عن أمية محمد ، فطرأت فى ذهنى فكرة عرضتها على تاج الدين ، وهذه هى فحواها : لقد أطال العلماء القول حول هذا الموضوع ، ومما لاريب فيه أن آراءهم فائقة . غير أنه يبدو لى أن تعليلاتهم غير كافية ، حينما يتعلق الأمر ، بصفة خاصة ، بكائن سام كالنبى . وأدت بى هذه الملاحظة إلى النظر فى الأمر بإمعان ، فألهمنى الله طائفة كبيرة من الفكر ، كلها تلتقى لدى هدف واحد ، وهو إظهار ميزة هذه الأمية . وعضدت رأيى بأدلة مفحمة ، كفيلة بإقناع أعصى العقول وأشدها

نكارا . فأضفت أفكارى إلى أفكار العلماء الذين سبقونى ، وجمعتها كلها
ى مجلد واحد ؛ وأطلعت تاج الدين على عملى فرضى عنه كل الرضاء ، ثم قال
ى : لقد جئت بفكرة جديدة لم يسبقك إليها أحد ، و بينت حقيقة ذات أهمية
عظمى . فشجعتنى هذه الشهادة ، وأقبلت من فورى على تحرير رسالتى عن
مية النبى . وفى هذا الحين كان يوجد فى تبريز عدد كبير من العلماء ، بعضهم من
أهل هذه المدينة والبعض الآخر ممن وفدوا عليها من أقطار بعيدة كمصر والشام ،
وكان من بينهم قاضى قضاة ذائع الصيت بعث به مليكه فى رسالة خاصة . فلم
يكد هؤلاء الأفاضل يسمعون برسالتى ، حتى طلبوا منى الإذن بنسخها وحملها
إلى بلادهم ، ليقدموها هدية لعلماء الإسلام .

ولما كان من شأنى أن أكون دائما مقتصدا فى كلامى ، حريصا على
ألا أحاكى الكافرين الذين يتواصون بالكذب ، لم أدع مطلقا أنى تلقيت
وحيا فى المنام أو فى اليقظة ؛ ولكن ما أستطيع أن أؤكده عن خبرة ومعرفة ، أنى
منذ اللحظة التى بدأت فيها بتحرير هذه الرسالة ، شعرت بنور منبعث من النبى
يضىء جوانب ذهنى ويهبنى القدرة على التفكير فى حقائق الدين والوصول
إلى أطيب الثمار . واستطعت ، بفضل هذه الهبة الثمينة التى كانت فى تزايد مستمر ،
أن أنفذ إلى غور بعض الأسرار الربانية وأن أكتشف ، حول تفوق محمد ، عدة
اكتشافات جديدة لم يفطن إليها أحد ممن سبقونى . وهذا الذى أقرره هنا
حقيقة لا ريب فيها ، و يستطيع من شاء أن يحكم على صدقه بالمؤلفات الضخمة

الثلاثة التى أنجزتها، والتى تضم بين دفاتها جحفلا من الأفكار البكر والمناقشات العميقة حول أهم نقط الدين .

« ومن اليسير ، إذن ، أن يدرك المرء أن الأنوار التى تطلبها تأليف هذه الكتب كانت هبة من الله ، وأثرا من آثار رعاية رسوله . وهذا ماأقر به العلماء الذين تكلمت عنهم ، وقرروا بالإجماع أنه لايمارى فى هذا الامر إلا جاهل حسود أحمق .

« وبالرغم من أن هذه المؤلفات قد كتبت فى فترة جد وجيزة ، فقد حازت إعجاب عدد كبير من العلماء الذين أجمعوا على الشهادة بأن كثيرا من الكتاب البارزين لم يستطيعوا أن يصلوا بعد البحث الطويل والتفكير العميق إلى ماوصلت إليه أنا فى ذلك الزمن القصير .

« ولكنا نعرف بالتجربة أن كثيرا من الناس الذين جاءوا إلينا فى فترات مختلفة يلتمسون مطالب غير عادلة أولا أساس لها ، ولم تحقق لهم رغباتهم لاستحالة تحقيقها ، امتلأت نفوسهم بالحقد علينا ، وحصروا همهم فى الانتقاص من قدرنا ، فراحوا يشيعون عنا المفتريات ويكيلون لنا زائف التهم . ولما كان سلوكنا ، ولله الحمد ، لايتيح لهم أى مطعن فى طهارته ، فقد راحوا يتهموننا بأننا ندين باليهودية ، بالرغم من أنه لم يبد علينا نحو هذا الدين إلا النفور والبعد الشديد . وكنا حين نعلم بهذه المفتريات المغرضة نألو على أنفسنا ألا نرد عليها ، تاركين مجازاة أصحابها إلى الله ورسوله . ومع ذلك فإنه يحسن

بنا هنا أن نوجه النظر إلى ظاهرة فى غاية الغرابة : وهى أنهم كانوا ينظرون إلى ، قبل أن أكتب شيئا عن تفوق النبى وأبحث بعض المسائل الدينية الهامة ، على أنى مسلم صادق الإسلام ، ولم يطعن أحد فى نقاء دينى . أما اليوم ، وقد بينا بالحجج الدامغة مقام النبى محمد وسموه على جميع الأنبياء ، وفندنا بالحجج القاطعة مزاعم اليهود والنصارى ، و برهنا لهم أن دينيهما قد نسخا، وأن الإسلام هو الدين الحق الوحيد ؛ أما الآن وقد حظيت مؤلفاتنا بالرضاء الشامل واستحقت ثناء أجل العلماء فى عصرنا ، فقد قام بعض الجهلة بالتهجم علينا واتهامنا بمفتريات من الأولى أن توجه إليهم هم أنفسهم . وكان من أيسر الأمور علينا أن نعاقبهم ، ولو عاقبناهم لما كان فى سلوكنا شىء لا تعضده مبادىء القرآن الكريم والحديث الصحيح وفتاوى الفقهاء ؛ ولكننا رأينا أن خير انتقام لنا هو فشل هؤلاء المغتابين فيما قصدوا إليه، وأنهم لم يجنوا من سوء قصدهم إلا العار الأبدى والتردى فى وهدة الكفر واستحقاق جهنم التى تنتظرهم يوم القيامة .

« أما الرجل الذى تكلمت عنه فى بداية هذه الرسالة والذى لا أرغب فى ذكر اسمه ، فإنه لم يقم بمهاجمتى إلا مدفوعا بهذه البواعث : وذلك أننا لما أخذنا فى تنفيذ وصية المغفور له السلطان غازان خان ، عينا عددا من العلماء وجعلنا لهم الحق فى نصيب سنوى من ثمرة الأوقاف الخيرية لهذا الأمير . ولما كانت هذه الأنصبة أضخم من جميع الأنصبة الأخرى التى من هذا القبيل ، فقد حرص الجاهل الذى نتكلم عنه على أن يفوز منها بنصيب ، ووسط إلى عددا

من الاشخاص ليكلمونى فى هذا الصدد. فأجبتهم بأن الاختيار قد تم وانتهى، وأنه لوجاءنى قبل ذلك لاستطعت أن أجيبه إلى طلبه ، ولكن القائمة الآن قد تمت وأغلقت . وقلت إن جميع الأشخاص الذين شملتهم ، كلهم من العلماء المتازين ، ولذا لايصح لى أن أعمل على حرمان أحد منهم من شىء يستحقه بكل جدارة . ثم أضفت قائلا : هذا فضلا عن أنى أعلم علم اليقين أن الشخص الذى ترجوننى من أجله ، وإن كان من سلالة أسرة جليلة ويظهر الكثيرمن الورع والتقوى ، فإنه يقرض ماله بالربا ويرتكب أفعالا يحرمها دين الإسلام. ورجل هذا سلوكه، لايصح لهأن يتطلع إلىإحسان خصص لأعمال البر وحدها، ولاسيما إذا لم يكن فى حاجة إليها ، وكانت المدينة ملأى بالفقراء . ونزيد على ذلك أن أخاه الأكبر قد جاءنى هنا مرارا عديدة يشكو إلى منه مر الشكوى، ويقص على أفعاله التى يندى لها الجبين . فبعد كل هذا ، كيف يتأتى لرجال أفاضل أن يهتموا هذا الاهتمام بشخص لاذمة له ولادين ؟ أناأعتقد أنه من الأولى أن ندعوه إلى الإقلاع عن هذه الحياة التى انغمس فيها حتى الآن . فإذا ارعوى عن غيه وسار فى طريق الفضيلة ، ثم ترك أحد الذين تضمهم القائمة مكانه شاغرا ، استطعت أن أمنحه إياه عن طيب خاطر . ولما نقل هذا الحديث إلى أسماعه ، امتلأت نفسه غلا علىّ ، وعلى أولئك الذين أوصوا بمن أدرجنا أسماءهم فى قائمتنا وتوسطوا لهم فى الحصول على هذا التكريم . ولما عجز عن إيجاد وسيلة للانتقام ، هداه وهمه السقيم إلى أن يشيع ضدنا ريبا مختلفة لاأصل لها .

« وكان السلطان ألجايتو ، ذلك الأمير المستنير ، يكرر لى دائما ، فى أثناء الأحاديث التى كانت تجرى بينه وبينى ، أن العالم هدف دائم لهجوم الجاهلين والحاسدين ، وأنى لابد أن أكون عرضة لذلك ، ما دمت أحتل منصبا هاما وأملك ثروة ضخمة ، ويقول : لذلك يجب أن تراعى فى مؤلفاتك وأحاديثك أقصى الحذر ، حتى لاتفتح لعدوك أية ثغرة للطعن فيك . وأجبته بأن الكاتب لايمكن أن يعدم الحاسدين والطاعنين ، وأن الأنبياء أنفسهم وأجلة الأئمة المسلمين لم ينجوا من أحط الاتهامات ، وأن الغزالى والإمام فخر الدين الرازى ، وهما من أعلم أهل الأرض وممن انتشرت كتاباتهم الرائعة فى كل مكان ، لم يسلما من كيد الحاسدين ودس الجاهلين الذين نجحوا فى العمل على إحراق جزء من مؤلفاتهما ؛ ولكن ذلك لم يمنع ذوى العقول المنيرة أن يعملوا منذ هذه الفترة على تلقى نتائج قرائح هذين العالمين الكبيرين ببهجة لاتعادلها بهجة ، حتى أن الكتاب الواحد من كتبهما يبيع فى بعض الأحيان بخمسمائة و بألف دينار ذهبى . وأضفت أن هذا الشىء نفسه قد وقع لعدد كبير من العلماء ، وأن السوء الذى ينجم عن المكائد والأعمال الخبيثة لابد أن يرتد إلى مرتكبه . هذا ولما كانت مدينة تبريز مقر الملك وملتقى لجحافل المشاهير والرجال الممتازين بالعلم والنورانية وفطاحل القضاة ، فإنى أضع تحت أيديهم مؤلفاتى ، لكى يقرؤوها و يفحصوها بكل عناية . والحقيقة التى لامراء فيها أنه لايمكن لرجال كرسوا السنين الطوال من حياتهم لتحصيل العلوم وسبر أغوارها إلا أن يكونوا

قضاة عدولا مستنيرين ، ولا يسع عاقلا أن يظن فيهم السكوت على فكرة أو عبارة تصيب حقائق الدين الأساسية بأقل غبار . ولست أشك فى أنهم إذا وجدوا فى مؤلفاتى خطأ أو إهمالا ، فلن يتوانوا عن تصحيحه ، وأن مؤلفاتى ستصبح بعد فحص هؤلاء الرقباء الأجلاء لها جديرة بدخول مكتبة السلطان .

ولما وافق ألجايتو على اقتراحى ، أرسلت من فورى إلى تبريز كتاب «التوضيحات» الذى يحتوى على تفسير بعض آيات القرآن ، ومعه عدة رسائل تدور حول المسائل الميتافيزيقية . وكتبت إلى كبار علماء هذه المدينة أرجوهم أن يقرأوا كتابى ويصححوا كل ما يجدون فيه من خطأ أو ضلال . ولما أتموا قراءته ، كتب كل منهم إلىّ شهادة مفصلة مفعمة بالمديح عبر فيها عن رضائه عن طريقتى ، وشهد بحقيقة آرائى، وحثنى على تكريس أوقات فراغى لتأليف مثل هذا الكتاب . وكان من بين علماء تبريز الذين وجهت إليهم رسائلى هذا الطاعن نفسه الذى قرأ كتابى وأقره كما فعل الآخرون . ولما رد إلى الكتاب مصحوبا بشهادات هؤلاء الأعلام ، عرضته على ذوى العلم والقضاة الذين كانوا فى البلاط السلطانى ، فرضوا عنه جميعا دون استثناء ، ووجهوا إلى عملى أسمى آيات التكريم ، واستهلوا شهاداتهم بعبارات تجمع بين روعة البلاغة ورقة المديح . هذا إلى أنهم قد أكدوا ، فى حضرة السلطان ، كل ما كتبوه عنى بهذا الصدد ، وقدموا له تقريرا مشرفا عن جودة كتابى وامتياز الآراء التى احتواها . ولما عقد الرجل الذى تكلمت عنه عزمه على مهاجمتى ، سعى لدى

كثير من العلماء ليحملهم على معاونته فى جهوده . ولكنه لما لم يجد أحدا يتابعه فى عدوانه ، ذهب ذات يوم إلى مجلس وعظ للإمام جلال الدين البخارى ، وإن لم يكن من عادته قبل هذه الفترة أن يذهب إلى مثل تلك الجامع . وكان قد حمل معه بضع جمل صنعها بنفسه وزعم أنها صادرة عنى ، فناولها إلى أحد الحاضرين ورجاه أن يسأل الواعظ رأيه فيها . ولما لم يكن فى وسع البخارى أن يجيب إلا على السؤال الذى وجه إليه ، فقد أعلن استنكاره للآراء التى عبر عنها . ولكن أحد العقلاء استوقفه لدى نزوله من فوق المنبر وقال له : ياسيدى ، أسمعت قط مثل هذه الأفكار تصدر عن رشيد الدين ، وهل قرأت شيئاً من هذا القبيل فى الكتاب الذى أصدره حديثا ؟ فأجابه البخارى بالنفى . ورد عليه ذلك الرجل قائلا : إذن كيف جاز لك أن تصدق أقوال نمام ، وتقول ماقلته فى جمع عديد ؟ وفى نفس الوقت أحضر له كتابى ، فقرأه البخارى حتى آخره ، وسر به إلى أقصى حد . وقال : معاذ الله أن يتعرض مؤلف مثل هذا الكتاب للهجوم والنميمة والنقد الجائر ! أما من جهتى ، فإنى لم أكن سيىء النية فى كل ما قلت ، ولم أفعل إلا أن أجبت على سؤال وجه إلى . ولم يكتف بذلك ، بل صعد المنبر مرة أخرى وسحب الكلام الذى أعلنه فى الجلسة السابقة معتذرا بأن الذى وجه السؤال والذى أملاه عليه قد غررا به ؛ لأنهما مسخا معنى الفقرة مسخا تاما ؛ وفى نفس الوقت أشاد بكتابى أيما إشادة . ولما رأى خصمى أن محاولته قد فشلت ، صعد هو المنبر وألقى على الجمهور حديثا مفعما بالمفتريات الشنيعة

يرميني فيها بالكفر، أنا وجميع العلماء الذين حبذوا عملي وسجلت شهاداتهم في رأس كتابي. وكان يأمل، حين تستر وراء أدلته الخداعة الغامضة وعرض الأمر على مستمعيه بصورة مضللة، أن يخدعهم ويثيرهم على هؤلاء العلماء وعليّ ويقدمنا طعمة سائغة لأخش الأقوال، وأن يحصل في نفس الوقت على حسن الأحدوثة وذيوع الصيت لنفسه. ورأى بعض ذوي العقول الراجحة أنه لا يمكن أن يكون هذا العمل إلا نتيجة الغل والحسد، فاستدعوا هذا المغتاب للمثول أمام عدد من ذوي الشخصيات البارزة، وأرغموه على توضيح ماقاله وعلى بيان البواعث التي دفعته إلى القيام بهذا العمل والإدلاء بما لديه من أدلة تثبت صدق ماادعى. فأنكر ماسبق له أن قاله، وأجاب بحديث مصنوع مليء بالزيف والزخرف. ولما لم يكن هناك عالم أو شخص آخر يستطيع الكلام باسمي ويرغمه على إيضاح موقفه بصورة قاطعة، فقد انتهى الاجتماع دون الوصول إلى نتيجة.

ولما أخبرت بمفتريات خصمي، أدركت على الفور أن حقده عليّ منبعث عن رفضي لطلبه. ومن حيث إني أعلم أن فطاحل العلماء في كل عصر لم يسلموا من مفتريات الحقد والنميمة، رأيت أن أحتقر كلام هذا الخصم ومساعيه، وألا أظهر أي اكتراث بها؛ ولكن كبار الرجال المعروفين بألمعيتهم وعظماء الفقهاء أجمعوا على أن السكوت في هذا الظرف الذي أريدَ فيه الحط من قدر العلم وذويه يعتبر جريرة لا تغتفر ويخالف مبادئ الدين؛ فاجتمعوا

وحرروا مذكرة عرضوا فيها الأمر على حقيقته ، وسجلوا فيها كلماتي بنصها وكلام خصمي وفندوه بنداً بنداً . وختموا كلامهم بالقول بأن الرجل الذي يجرؤ على إصدار هذه المفتريات يجب أن ينظر إليه على أنه نجس وكافر . وأحضروا إليّ هذه المذكرة مذيلة بتوقيعاتهم . وطلبوا إليّ أن أضعها في ذيل رسالتي ، وأن أترك مكانا أبيض لكي أتيح الفرصة لذوي العلم في جميع المدن وفي كل العصور ليسجلوا فيه آراءهم ، ثم قالوا : وذلك لأنا مقتنعون بأنهم جميعاً، دون استثناء ، سيشاركوننا رأينا، وسيجيبون نفس جوابنا على الأسئلة المعروضة عليهم .

***

وقد ألف رشيد الدين ، فضلا عن الكتب التي تكلمنا عنها ، مؤلفاً لم يصل إلينا ، وعنوانه « بيان الحقائق » . وهو يتكون من سبع عشرة رسالة يفصل لنا المؤلف مضمونها على النحو التالي :

الرسالة الأولى في سؤال للسلطان ألجايتو ؛ الرسالة الثانية في نصيحة السلطان ؛ الرسالة الثالثة في سوءات العلماء ؛ الرسالة الرابعة في تفسير آية : « وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا . . . » ؛ والخامسة في تفسير الآية : « وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ » ؛ والسادسة في تفسير سورة : « إِنَّا أَنْزَلْنَاه » ؛ والسابعة في بيان حقيقة الألوان ، تفسير آية : « اللهُ نُورُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ » ؛

الرسالة الثامنة . . . ؛ الرسالة التاسعة فى بيان فوائد زيارة المشاهد [1] ومقابر الأكابر ؛ العاشرة فى نصيحة الإخوان ؛ الرسالة الحادية عشرة فى تحقيق سبب الجدرى، والاعتراضات على ما قاله الأطباء ؛ الثانية عشرة فى بيان حقيقة الحرارة وأنواعها ؛ الثالثة عشرة ذيل نفائس الأفكار فى بيان دوام الخلود فى الجنة والنار ؛ الرسالة الرابعة عشرة فى بيان حقيقة الخرقة [2] ، ومناسبة نسبتها

---

(١) كلمة مشهد تقابل الكلمة الإغريقية الكنسية المرادفة للكلمة اللاتينية : Martyrium (انظر دى جانج Glossar mediæ et infinæ graecitatis ، De Gange مجلد ١ ، مجموعة ٨٨٣ ، ٨٨٤ ؛ Suiceri Thesaurus ecclesiasticus مجلد ٢ مجموعة ٣١٩، ٣٢٠؛ ورسڤيد ، Rasweyde، Onomasticon ad vitas Patrum. ص ١٠٨٣ ؛ دى جانج Clossar. ad scriptores mediæ et infinæ latinitatis مجلد٣، مجموعة ١٦٧٨ ؛ ٤٧١ Godex Theodosiamus كتاب ٩ ، قسم ٧ ، مجلد ٣ ص ١٥٢ ؛ ثم ملاحظات جد فروا Godefroy ، (على هامش ص ١٥٣ من هذا الكتاب) . وهو يدل على المكان الذى دفن فيه رجل مات وهو يحارب فى سبيل الدفاع عن الدين الإسلامى . ويطلق الشيعة هذا الاسم بوجه خاص على الأضرحة المقامة تكريما لذكرى أئمتهم .

(٢) فى المخطوطة « الحرفة » ، ولكنى رأيت أن أقرأها (الخرقة) ، وتدل كلمة الخرقة على رداء من النسيج الخشن يتميز الصوفيون بلبسه وينتقل بينهم من الشيخ إلى مريده . وكثيرا ماتذكر الكلمة بهذا المعنى فى الگلستان لسعدى وفى غيره، ونقرأ فى الكامل لابن الأثير (المخطوطة ، جزء ٦ ، ص١٣٠) « لبس خرقة التصوف » ؛ وفى تاريخ قضاة مصر للسخاوى (مخطوطة عربية رقم ٦٩٠ ، ورقة ٥ وجه وظهر) : « لبس الخرقة الصوفية » ؛ وفى (ورقة ٩٩ وجه) : « لبس الخرقة » ؛ وفى ورقة (١٠٩ ظهر) « لبس منه الخرقة الصوفية » . ويمكننا أن نرى تفاصيل واسعة عن هذا النوع من اللباس فى الكتاب العربى المسمى « عوارف المعارف » (مخطوطة عربية رقم ٢٧٥ ورقة ٣٧ وجه وما يليها) . ويميز المؤلف نوعين من الخرقة . الأولى تسمى « خرقة الإرادة » ، ويلبسها المبتدئون . والثانية تسمى « خرقة التبرك » ويلبسها الأشخاص الذين يحا كونهم فى ممارسة رياضات الحياة التأملية .(المرجع السابق ورقة ٣٩ ظهر) . ويعتقد بعض المتصوفة أن الخليفة على كان أول من لبس الخرقة وأنه خلعها على الحسن البصرى. =

إلى أمير المؤمنين عليه السلام ؛ الرسالة الخامسة عشرة فى شرح حديث : « أنا مدينة العلم وعلىّ بابها » ؛ الرسالة السادسة عشرة فى شرح المعقول والمنقول ؛ الرسالة السابعة عشرة فى الناسخ والمنسوخ .

***

يجدر بنا ، بعد أن تكلمنا عن مؤلفات رشيد الدين ، أن نبين الاحتياطات التى اتخذها ليمنع ثمرة عمله و بحثه من أن تندثر إلى غير رجعة ، ويحل بها نفس المصير الذى حل بالكثير من الكتب الممتازة التى يأسف لضياعها كل من يعلقون شيئا من الأهمية على الثقافة والأدب . فلكى يتجنب رشيد الدين مثل هذه الكارثة ، لم يهمل اتخاذ أى إجراء توحى به الحيطة . ولدينا الدليل على ذلك فى وصية له نجدها على رأس مجموعة كتبه الدينية ، وهذه خلاصتها :

هذا مايقوله [1] . . . فضل الله رشيد الدين بن أبى الخير . . . وأنه قد صنف غير هذا كتبا أخر فى كل فن ، وقد كتب من كل منها نسخا كثيرة مفردة ؛ وكثير من الفضلاء قد طالعوها واستكتبوها لأنفسهم . وأيضا قد

= (انظر مالكولم Malcolm ، تاريخ فارس History of persia ، ص ٣٩٤–٣٩٦ ؛ والسيد البارون ـ سلفستردى ساس « پند نامه » أى كتاب النصائح ، ص ٦٣ ؛ ملاحظات على المخطوطات ومقتطفات منها Notices et extraits des manuscrits ، مجلد ١٢ ، ص ٣٠٥ ، ٣٠٦) . ولما كان المتصوفة يعتبرون عليا أعظم متبع لمذهبهم ، فإنهم يلقبونه بـ « شاه ولايت » ، أى ملك الأولياء . انظر دولتشاه (تذكرة الشعراء ، مخطوطة فارسية رقم ٢٥٠ ورقة ١١٠ وجه) ؛ وخوندمير (حبيب السير) وغيرها .

(١) المخطوطة العربية رقم ٣٥٦ ، ورقة ١ وما يليها .

أمرنا بنسخ توضع فى المسجد الذى أقمناه فى تبريز ، والذى هو جزء من الربع الرشيدى ، لينسخ منها من أراد . وأيضا ، جعلنا بعضها فى جلد واحد مجموعة ، و بعضها مفردا ، كما يجىء تفصيلها . وأيضا ، لما أردنا أن نضع صور الأقاليم على قاعدة الحكماء ، على وجه أقرب إلى الفهم وأبين ، وأن نضبط المواضع التى لم يضبطها أحد كما ينبغى ، وأن نبحث عن الولايات على وجه يستند إلى مشاهدة الثقات وأرباب الخبرة والعيان وكما هو الواقع ، بحيث يقع المطالع المتأمل فيها على أحوال المسالك والممالك أكثرها ، وكان من الضرورى أن تكون أوراقها أكبر ليحصل الغرض المذكور أسهل وأيسر ، فلا جرم جعلنا أوراقها بحيث كل منها مقداره ستة أطباق من القطع البغدادى المعهود [1] . ولما تيسر مثل ذلك القطع الكبير ،

---

(١) كلمة قطع تستعمل لدى كتاب العرب فى غالب الأحيان بمعنى صحيفة من الورق نفسه ، فنقرأ فى السلوك للمقريزى (مخطوطة عربية رقم ٦٧٢ ، مجلد ١ ، ص ٥٦٢ : « الكتاب هو من قطع نصف البغدادى » وفى كتاب خليل الدهرى (مخطوطة عربية رقم ٦٩٥ ورقة ٤ ظهر) : « الكتاب مشتمل على ستين كراسة من قطع الكامل » . وفى كتاب الإنشاء (مخطوطة عربية رقم ١٥٧٣ ، ورقة ١٢٠ ظهر) : « أكبر ما يكون من قطع الورق » . وأيضا : « ماوضع فى الفوطة من القطع الكامل » . وفى تاريخ مصر لأبى المحاسن (مخطوطة عربية رقم ٦٦٣ ، ورقة ٤٩) : « الكتاب مكتوب بخط غليظ فى نصف قطع البغدادى » . وأخيرا نجد عبارة «قطع البغدادى» فى تاريخ مصر الذى يملك السيد مارسل مخطوطة منه ، وتفضل بإعارتى إياها . (انظر ورقة ١٠٦). ويذكر السخاوى فى تاريخه عن قضاة مصر (مخطوطة عربية رقم ٦٩٠ ورقة ٨ ظهر) كتابا يتكلم فى أمور مختلفة ، ويتكون من أربعين مجلدا . وكانت هذه المجلدات مكتوبة على لوحات مربعة من ورق بلاد الفرنجة ومصر . وكانت خمسة من هذه المجلدات مكتوبة على أكبر مايكون من =

=القطع ، وتتكون من نصف قطع الشام ، وكانت ثلاثة منها أو أقل مكتوبة على قطع الكامل .

ويقول ابن خلدون فى المقدمة « . . . . وكانت السجلات ، أولا ، لانتساخ العلوم وكتب الرسائل السلطانية والإقطاعات والصكوك مع ذلك ؛ فاقتصر على الكتابة فى الرق تشريفا للمكتوبات وميلا إلى الصحة والإتقان . ثم طما بحر التأليف والتدوين ، وكثر ترسيل السلطان وصكوكه ؛ وضاق الرق عن ذلك ، فأشار الفضل بن يحيى بصناعة الكاغد . وصنعه وكتب فيه رسائل السلطان وصكوكه . واتخذ الناس من بعده صحفا لمكتوباتهم السلطانية والعلمية . وبلغت الإجادة فى صناعته ماشاءت » . ونجد فى كتاب « الإنشاء » الذىأشرت إليه من قبل تفاصيل واسعة عنهذا الموضوع ، نلخصها فيما يلى (انظر المخطوطة العربية رقم ١٥٧٣ ، ورقة ١٧٦ وجه وما يليها) . : « كلمة ورق اسم الواحدة منها ورقة وتجمع على ورقات ، ثم جاء جمع آخر هو أوراق ؛ ومن الكلمة اشتق لفظ « وراق » . والقرآن يستخدم للدلالة على الورقة كلمة « قرطاس » (فى الآية) : « ولو أنزلنا عليك كتابا فى قرطاس » . (سورة ٦ آية ٨) ؛ والجوهرى يكتبها « قرطس » دون ألف . ويستعمل أيضا كلمة صحيفة للدلالة على نفس المعنى فى قوله : « إن هذا لفى الصحف الأولى » (سورة ٨٧) . وتجمع صحيفة على صحائف . وسمى الكتاب مصحفا ، لأنه يجمع صحائف عديدة . ويسمى الورق أيضا « كاغدا » و « طرسا » و « مهرقا » . ويؤكد الجوهرى أن هذه الكلمة الأخيرة من أصل فارسى واتخذت الطابع العربى . ويسمى أيضا سجلا ، كما فى الآية القرآنية : « يوم نطوى السماء كطى السجل للكتب » (سورة ٢١ ، آية ١٠٤) ، كما أن القرآن أيضا يسمى الجلد بالرق فى قوله « فى رق منشور » (سورة ٥٢ ، آية ٣) .

« ويجدر بنا أن نعرف أن الشعوب القديمة كانت تستعمل مواد مختلفة للكتابة : فالصينيون كانوا يستعملون ورقا مصنوعا من الحيش والكلأ ؛ وعنهم تعلم العالم صنع الورق . وكان الهنود يكتبون على نسيج من الحرير الأبيض والجلود المدبوغة والأحجار البيضاء الرقيقة المعروفة باللخاف ، وعلى عسيب النخل وعظام كتاف الجمال والغنم . (أعتقد أن هذا الكلام لابد أن يكون قد داخله خلط أو سقط ، وأن هذا الذى ينسب إلى الهنود يراد به الفرس) . ولما كان العرب يجاورون هذا الشعب ، فإنهماتبعوا طريقته وظلوا يتبعونها حتىعهد النبى . فإن رسول الله كان يستخدم الجلود دائما تقريبا لكتابة رسائله . وقد أجمع الصحابة على كتابة القرآن على الرق ، إما لأنه أكثر من غيره مقاومة للبلى ، وإما لوجوده لديهم بكثرة . ولما ولى معاوية بن أبى سفيان الخلافة ، اقتصر على استخدام الرق فى ديوانه ، لكى عيز المكتوبات الصادرة منهعنغيرها . وقد بقى الحال علىهذا المنوال حتى عهد الرشيد . =

= وفى هذه الفترة كان الورق قد شاع، فأمر الرشيد بالاقتصار على استخدامه ، لأنه يمكن محو الكتابة التى على الرق والمواد الأخرى التى من قبيله وإحلال غيرها محلها ، فى حين أنه لا يمكن محو ما كتب على الورق دون أن يترك ذلك آثارا ظاهرة . ومنذ ذلك الحين انتشر استعمال الورق فى جميع الأقطار . وكان يصنع الورق من نبات القنب الذى تبلغ أقصر سيقانه طول عود القصب الفارسى . وهو يسمى أيضا الخندريس كما تسمى بذوره بالشدانق . وهذا النبات ينمو أيضاً فى بلاد الفرنجة كما ينمو فى بلاد الشرق . وقد تكسر أعواد القنب وتبرى حتى تدق ، ثم تصنع منها حبال تستخدم فى توجيه السفن . وحينما تفقد قوتها تباع لمصانع الورق لتصنع منها هذه المادة . وتتوقف جودة الورق على رطوبة الأرض التى يصنع عليها ، والفصل من السنة الذى يصنع فيه ، وكذلك على درجة نقعه فى ماء الجير والعناية بغسله ونقاء الماء الذى يستعمل فى ذلك ونضج النبات المستعمل ومقدار صقل الورق نفسه بحكمة من الجهتين بالزجاج . وأجوده ماصنع فى فصل الربيع . وهناك عدة أنواع من الورق . والذى يستخدم منه فى الدواوين على ثلاثة أنواع : النوع الأول الورق البغدادى الذى يرد من مدينة بغداد، وهو أندر الورق . ولا يستخدم إلا فى الإقطاعات والصكوك والولايات والرسائل السلطانية . فقد كان الأمراء فيما مضى لا يكتبون رسائلهم إلا عليه ، ولكن ندرته المتزايدة وجهت الأذهان إلى إنشاء مصنع فى دمشق كان إنتاجه يكاد يضاهى ورق بغداد . والنوع الثانى هو ورق الشام الذى يصنع فى دمشق ، والموجود منه ثلاثة أصناف: أولها الورق الحموى الذى احتفظ بهذه التسمية ، لأنه كان فى بادئ الأمر يصنع فى مدينة حماه ، ولكن مصنعه نقل بعد ذلك إلى دمشق . وهو لايستعمل فى الدواوين إلا قليلا . والثانى ورق الشام المشهور فى هذا القطر ، والورقة منه تسمى «الفرخة» ، والدست يسمى « الكفة » ؛ وهو يستخدم فى دواوين الشام والأقطار الشرقية واليمن وبلاد الروم (آسيا الصغرى) والحجاز . ولا يستخدم هذا الورق فى الديوان السامى إلا فى نسخ التذاكر وبما هو من قبيلها . وقد يستعمل فى ديوان الرسائل ، ولكن من أجل السجلات فحسب ، ومع ذلك فقد كانت تستعمل أحيانا فى المراسلات والأوامر السلطانية بالتولية : غير أن ذلك لم يكن يحدث إلا فى أثناء الرحلات التى يقوم بها رجال الديوان فى صحبة السلطان وعند انعدام الورق المصرى ، بل وفى هذه الحالة كان على كاتم السر أن يطلب الإذن من السلطان ، وأن يصدر السلطان إليه أمره الصريح بذلك ؛ إذ أنه كان للورق المصرى مكانة خاصة فى كل الأقطار وفى قصور الملوك جميعاً . وكان كافل السلطنة وحاكم كرك هما وحدهما اللذان لهما الحق فى استخدام الورق الأحمر فى خطاباتهم إلى القصر . الصنف الثالث ورق الطير الذى يسمى أيضاً ورق البطائق . وهو ضيق الهامش إلى أقصى حد ، ولا يستخدم إلا فى كتابة البطائق التى ترسل تحت أجنحة الحمام . أما النوع الثالث =

= من الورق فهو الورق المصرى ، ويعرف منه ثلاثة أصناف : الصنف الأول هو الورق المنصورى الذى يعتبر أوفى الأوراق وأرحبها حجما ، ويستخدم فى كتابة دروج الولايات وفى المراسلات الرئيسية لديوان الرسائل . والورقة منه تسمى فرخة . وكل خمس وعشرين ورقة منها تكون دستا ، فإذا اجتمعت خمسة دسوت كونت رزمة . وفيما مضى كانت الورقة الواحدة تسمى طومار — والجمع طوامير ، وهى كلمة مشتقة من « طمر » بمعنى أخفى ، وذلك لأن الخطاب المسمى « درجا » كان يطوى حتى لا تمكن قراءة محتواه . أما من جهة الحجم ، فإن هذا الورق يشتمل على صنفين . أولهما ما كان يستخدم فى بغداد لعهد الخلفاء ، وينقسم إلى خمسة أقسام . فيذكر محمد بن عمر المدائنى فى « كتاب القلم » أنه كانت تستخدم ثلثا الورقة للكتابة إلى الخلفاء ونصفها للكتابة إلى الأمراء ، وثلثها للكتابة للرؤساء والكتاب ، وربعها إلى التجار ومن فى درجتهم ، وسدسها بالنسبة إلى العدادين والمساحين . ويقول المؤلف إن هذا هو أصل الأحجام التى لاتزال تستعمل فى عصره ، وثانيهما ما كان يستخدم فى دواوين الرسائل حتى عهد المؤلف ، وينقسم من حيث الحجم إلى تسعة أقسام ، الأول الطومار الكامل الذى كان الدرج منه ذراعا ونصف ذراع من ذلك الذى يستخدم فى قياس النسيج ، وكان أول صنعه فى عهد الملك المؤيد شيخ ٨١٥ ، ١٤١٢ — ١٣ على نهج الورق البغدادى ، وهذا هو الورق الذى تلقى عليه شيخ أمر ولايته من قبل الإمام المستعين بالله أبى الفضل العباسى ، وذلك أن هذا الأخير ، حينما كان خليفة وسلطانا فى آن واحد ، كان قد منح « شيخا » جميع الحقوق فيما عدا حق الخلافة ، وذلك قبل أن يخلع على شيخ لقب السلطان رسميا . ومنذ ذلك الحين أصبحت جميع الوثائق التى من هذا القبيل تكتب على الطومار الكامل . القسم الثانى هو الورق الذى فى حجم البغدادى ، أى الذى عرضه ذراع واحد مما يستعمل فى قياس النسيج . وهذا هو الورق الذى كان أمراء مصر ، منذ بداية العصر التركى ، يكتبون عليه العهود ، كما كان خانات إيران وتوران يكتبون عليه رسائلهم . أما الرسالة التى كتبت فى سنة ٨٣٢ ، ١٤٢٨ — ٢٩ لمحمد خان عاهل خوارزم ودشت قابتشاق فقد كانت على الورق المنصورى الذى يقل أصبعين عن حجم الكامل ، وذلك لعدم وجود الورق البغدادى . القسم الثالث الورق البغدادى الناقص الذى ينقص أربع أصابع عن قطع البغدادى الكامل . وهو الورق الذى كان يستخدم فى مصر لدى سلاطين دولة المماليك الثانية : وعليه كتب أمر ولاية الناصر فرج حينما جلس على العرش لتعذر الحصول على البغدادى فى هذا الأوان . ومنذ ذلك الحين اتخذه سلاطين مصر لمراسلاتهم . القسم الرابع الورق المسمى بالثلثى ، أى الذى يبلغ ثلثى القطع المنصورى الكامل ، وعرضه ثلثا ذراع . وهو الذى يكتب عليه تقليد النائب الكافل بالشام وكبار الحكام ومناشيرهم وتقليد صاحب ديوان الإنشاء والوزير والأستادار والكتخدا والعارض وقضاة القضاة =

= الأربعة وحاكم الإسكندرية . والقسم الخامس يشمل الورق الذى قطعه نصف القطع المنصورى الكامل ، وعرضه نصف ذراع . ويستعمل لكتابة بعض رسائل التقليد والتفاويض ومعظم المساميح وأوامر السلطان لأمراء الطبلخانة ومقدمى الألف المعينين بالشام والرسائل الموجهة للطبقة الثانية من الملوك وأصحاب المناصب الدينية والإدارية وشيخ المشايخ وكبار رجال الدين والإدارة بمملكة الشام ومدينتى دمشق وحلب . والقسم السادس يبلغ قطعه ثلث قطع المنصورى : فعرضه ثلث ذراع . ويستخدم فى كتابة الجزء الأكبر من الحواشى والمساميح والبراءات الصغيرة الموجهة إلى حكام الحصون وأمراء الطبقة الثالثة ومن فى درجتهم مثل أمراء الفرس الذين كانوا فى خدمة ملك الفرس ، وكذلك يستعمل فى كتابة تفاويض الأمراء العشراوات ورجال الدين والإدراة من الطبقة الثالثة . ووراق الديوان هو الذى يحتفظ بهذا الورق ويجمعه . ولا يخرج ورقة واحدة من الحزمة إلا إذا عرف أنها ستوجه حقيقة إلى الشخص المرسلة إليه ، ولا يفعل ذلك إلا بأمر رئيس الديوان . وحجم الورقة يتناسب مع سمو المكان ، لا مع الشخص الذى يشغله . والقسم السابع ينحصر فى الورق العادى أو قطع العادة ، كما يسميه المؤلف ، ويبلغ اتساع الورقة منه ربع ذراع وقيراطا . وهو يستخدم فى كتابة التواقيع والرسائل الصغيرة والبراءات الخاصة بقواد جنود الحلقة وبراءات الأمراء الصغار بأقاليم الشام والتركمان الذين يرسلون لمحاربة الكفرة وبعض المساميح وأوامر العفو وصيغ الخطب المنبرية وأوراق الحلف والطريق باستثناء ما كان يوجه منها إلى الملوك . ويعتبر استخدام هذا النوع من الورق أكثر شيوعا فى فروع الديوان المختلفة . القسم الثامن ورق الملطفات ويستعمل لهذا الغرض فى معظم الأحيان ورق الطير (الورق الخفيف) ، ولكن اتساعه غير محدد بصورة ثابتة ، بل يترك ذلك لتقدير رئيس الديوان الخاص الذى يراعى فيه توفير الحذر والمحافظة على السر . والقسم التاسع ورق البطائق التى ترسل تحت أجنحة الحمام ، ويبلغ عرضه ثلاث أصابع متلاصقة متوازية ، وحجمه ثابت لايتغير، سواءأ كان الملك هو الذى يكتب عليه بيده أم غيره، وهو من ورق الطير الذى يحفظ فى دواوين البطائق . ورئيس الديوان الخاص هو الذى يدفع ثمنه من حاصل مصبغة الحرير الموجودة بالقاهرة . وهناك وراق، مهنته أن يكتب فى ديوانه على كل نوع من أنواع الورق ، ويعمل معه أشخاص بعدد أنواع الورق من كل صنف ، ورئيس هذا الديوان يسمى « الدواتدار » .

وكان يصنع فى بعض بلاد الامبراطورية الإسلامية ورق آخر غير ورق بغداد . فكثيرا مايرد على لسان الكتاب مثلا ذكر ورق « سمرقند » .

ويقول مؤلف كتاب الفهرست : « فأما الورق الخراسانى ، فيعمل من الكتان . ويقال إنه حدث فى أيام بنى أمية ، وقيل فى الدولة العباسية . وقيل إنه قديم العمل ، وقيل إنه =

أردنا أن تكتب جميع مصنفاتنا فى جلد واحد ليبقى تذكرة منا لمن بعدنا . ولكى يعم نفعه العرب والعجم ، جعلنا كل ماهو بلغة الفرس معربا ، وكتبنا منها نسخا عربية مفردة ومجموعة ، وضمنا منه نسخة فى المجلد الكبير . وفى هذا المجلد الكبير أيضا ، جعلنا كل ماهو بلغة الفرس معربا ليعم نفعه . وسمينا المجموع « بجامع التصانيف الرشيدى » .

= حديث . وقيل إن صناعا من الصين عملوه بخراسان على مثال الورق الصينى . فأما أنواعه : فالسليمانى والطلحى والنوحى والفرعونى والجعفرى والطاهرى .

أقام الناس ببغداد سنين لا يكتبون إلا فى الطروس ، لأن الدواوين نهبت فى أيام محمد بن زبيدة (الأمين) . وكانت فى جلود ، فكانت تمحى ويكتب فيها ، قال : وكانت الكتب فى جلود دباغ النورة ، وهى شديدة الجفاف ؛ ثم كانت الدباغة الكوفية تدبغ بالتمر وفيها لين (*) » .

ويذكر ابن أبى أصيبعة (مخطوطة عربية رقم ٧٥٧ ورقة ١٢٠ ظهر) بعض التفاصيل عن الورق الذى استخدم فى كتابة مؤلفات حنين بن إسحاق .

أما كلمة وراق التى قابلناها أكثر من مرة فى النصوص السابقة ، فإن عبد اللطيف البغدادى يستعملها بمعنى صانع الورق ، (Historæ Aegpti Compendium ص ١٤٦) . وهناك كتاب غيره ينسبون إليها معنى مختلفا بعض الشىء . فيذكر ابن خلدون فى المقدمة أن الوراق هو الشخص الذى يعمل فى نسخ الكتب وتجليدها وتصحيحها . ويقول المقريزى فى كتاب السلوك : « . . . كانوا أولا فى دمشق وراقين يورقون المكاتيب » . ويرد على لسان ابن خلكان (مخطوطة عربية رقم ٧٣٠ ، ورقة ٤١١ وجه) ذكر النحاة والنسابين والقراء والمؤرخين والوراقين المشهورين ، والكتاب المجلين . ويقول فى موضع آخر (ورقة ٤٢١ ظهر) : « كان على ، والوراقون يكتبون » . وكثيرا ما ترد هذه الكلمة فى كتاب الأغانى . ومن هنا جاءت كلمة « الوراقة » للدلالة على فن الوراق ومهنته . فنقرأ مثلا فى المنهل الصافى لأبى المحاسن (ج ٤ ، مخطوطة عربية رقم ٧٥٠ ، ورقة ١٤ وجه) : « برع فى معرفة الوراقة » . ويقول ابن خلدون : « الكتابة وما يتبعها من الوراقة » ، كما يقدم لنا عن هذه المهنة بعض التفاصيل المسهبة . ويقول المقريزى : « ... إذا فرغوا من الوراقة ... » والفعل منه « ورق » ، ويستعمل منه المزيد بالهمزة أى اشتغل بنسخ الكتب وتجليدها . يقول المقريزى : « يورقون المكاتيب » . ويقول الأغانى : « كان يورق لإسحاق » .

(*) النص عن طبعة التجارية ، ص ٣٢ ، القاهرة .

وبعد أن قدم لنا رشيد الدين فهرستا عاما مفصلا لجميع مؤلفاته ، أخذ يواصل كلامه ، فقال : « وقد رأينا أن نضيف إلى مجموعتنا كتبا مفردة غير مشتملة على مجلدات ، ولم تكن لها نسخ موجودة فى هذه الممالك إلى الآن . وقد سعينا فيها سعيا كثيرا حتى حصل نسخها ، ونقلت من لسان أهل « الخطا » إلى لغة الفرس ثم إلى لغة العرب :

الكتاب الأول : طب أهل الخطا من العلميات والعمليات .

الكتاب الثانى : الأدوية المفردة الخطائية مما هى مستعملة عندنا ومما ليس بمستعمل .

الكتاب الثالث : الأدوية المفردة من القسمين المذكورين .

الكتاب الرابع : فى السياسات وتدبير الملك وصلاحه على ماجرت به عاداتهم » .

وهكذا بعد أن استكتب المؤلف عدة نسخ من كتبه ، مفردة ومجمعة ، بالفارسية وبالعربية ، وبعد أن استكتب ذلك المجلد الضخم الذى كان يضم كل مؤلفاته بالفارسية والعربية ، وضع هذه النسخ جميعها فى البناية الرحبة التى أعدها لتكون مدفنا له بين العمائر العديدة التى أمر بتشييدها جميعها خارج مدينة تبريز ، وعرفت باسم الربع الرشيدى . وجعل لكل إنسان الحق فى أن ينسخ منها ماشاء ، وفضلا عن ذلك أمر بأن يؤخذ من حاصل أوقافه ما يكفى لكتابة نسخة فى كل عام من مجموعة مؤلفاته كلها على قطع بغدادى كامل

لترسل إلى إحدى المدن الإسلامية الرئيسية. وسنذكر هنا بالنص وبغير تعديل، عقد الوقف الذى أصدره رشيد الدين :

« ومن جملة الشرائط التى اشترطها المصنف ، عز نصره ، فى وقفية أبواب بره الموسومة بالربع الرشيدى .. هى أن المتولى لتلك الأوقاف يستكتب كل سنة نسخة مكملة من مصنفاتى ـ من صورتين : واحدة بالعربية وواحدة بالفارسية. (أما) كتاب جامع التواريخ ، (فإن) عدد مجلداته موكول إلى رأى المتولى وعلى حسب المصلحة بحيث لا يندرس سريعا . .

فيستكتب بموجب ما شرحناه كل سنة نسخة مكملة على قرطاس فى غاية الجودة واللطافة بقطع كبير بغدادى بخط مليح صحيح ، ثم يقابل بنسخة الأصل الموضوعة فى الربع الرشيدى على وجه لا يبقى فيه غلط (أ) وتصحيف . وينبغى أن تكون هذه النسخ بأسرها متكلفة على منوال النسخ الأصول ، وأن تكون جلودها من أديم أو ما شاكله . وأجرة الكتابة ووجه المصالح تجعل من نصف حاصل موقوفات المسجد المتعلقة بأبواب برنا هذه . ويجب أن يختار المتولى الناسخين السريعى الكتابة ، الجيدى الخط ، الفضلاء الأدباء ، بحيث تتم جميع النسخ التى يجب كتابتها فى السنة بتمام تلك السنة مجلدة مذهبة مهذبة ، لئلا يقع التأخير والإهمال . ومواضع أولئك الناسخين ومساكنهم ، إنما يعينها المتولى من جملة أبواب البر التى لم تتعين لطائفة معينة أو لأمر معين . وإذا تمت تلك النسخ ، أحضر جميعها فى صفة الروضة ، ويوضع كل منها على مرفع بين المنبر والمحراب . ويدعى للمصنف بهذا الدعاء : اللهم ياملهم

الأسرار ويامعلم الأخبار والآثار، كما علمت عبدك المفتقر إلى رحمتك الواسعة ، رشيد الطبيب ، لتصنيف هـذه الـكتب المشتملة على التحقيقات المقوية لقواعد الإسـلام ، والتوقيعـات الممهدة لبيان الحـكم والأحكام ، المفيـدة للمتأملين فى بدائع المصنوعات ، النافعة للمتفـكرين فى غرائب المخلوقات ، ووفقته أيضاً لأن وقف بعض أملاكه ، شارطا أن يتخذ من مالها نسخ من هذه الـكتب ، لينتفع بها المسلمون من أهل البلدان فى كل حين وأوان : فتقبل، اللهم ، كله منه قبولا حسنا ، واجعل سعيه مشكورا وذنبـه مغفورا واغفر للساعين فى إتمام هذا الخير ، والمستفيدين بهذه الـكتب ، والناظرين فيها ، والعاملين بما فى مطاويها ، وآته الحسنة فى الدنيا والآخرة ، إنك أهل التقوى وأهل المغفرة .

وأيضاً يكتب فى آخر كل نسخة من تلك النسخ هذا الدعاء المذكور ، ثم يكتب بعد ذلك ، هذا التحميد وهذه الـكلمات :

أما بعد حمد الله الملك العلام ، الدائم نعمه بلا انقطاع وانصرام ، والصلاة والسلام على نبيه المبعوث إلى كافة الأنام ، محمـد وصحبه الـكرام : فإنه يقول العبد الضعيف المحتاج إلى رحمة الله تعالى ، فضل الله بن أبى الخير بن عال الهمدانى ، المشهور بالرشيد الطبيب ، جزاه الله خيرا : إنى ، بتوفيق الله وحسن تيسيره ، صنفت هذا الـكتاب تبصرة لمن تبصر ، وتذكرة لمن أراد أن يذكر. واستـكتبت هذه النسخة من حاصل ما وقفته من أملاكى ، وشرطت أن

يتخذ كل سنة من حاصلها نسخة من هذا الـكتاب وسائر الـكتب التى هى من مؤلفاتى ، ليـكون وقفا على المسلمين من بلدة كذا . والمأمول من كمال أفضال العلماء المحققين ، أن يشرحوا و يبينوا للمبتدئين ما يتعسر منه عليهم ، بحيث يقفون على جميع ذلك وقوفا تاما ، ولا يبقى لهم فيها شك وارتيـاب . و إن وجدوا فيها سهوا أو غلطا أصلحوه ، تفضلا وتـكرما . ثم يكتب المتولى على ظهر ورق كتب عليه هذه الـكلمات : إن هذا الـكتاب الفلانى إنمـا كتب لا هل البلدة الفلانية فى أيام دولة فلان ، ليكون وقفا عليهم ، ثم على عموم المسلمين الذين يسكنون هناك .

ويجب على كل متول أن يكتب نسبته أبا عن جد إلى الواقف ، لئلا ينسى الناس الواقف فى الدعاء . ثم تعرض تلك النسخ على قضاة تبريز ، ليثبتوا صورة الحال على مكتوب ، ويشرفوه بتوقيعهم ويسلموه إلى المتولى . وينبغى أن يكون عند كل قاض من قضاة تبريز مكتوب مشتمل على هذه المعانى . ويجب أن يكون خط المتولى والمشرف والناظر الذى هو شبيه نائب للمتولى ، أو خط نواب هؤلاء على ذلك المـكتوب ، ليكون هذا الأمر مضبوطا كل سنة ، لا يتطرق إليه وهن ولا خلل .

الشرط الآخر أن هذه النسخ ، بعد تمامها ، إنما يبعثها المتولى لتلك الأوقاف إلى بلدة من معظمات بلاد الإسلام : العربية إلى بلاد العرب ، والفارسية إلى بلاد العجم . ويبتدئ من البلاد بمعظمها ثم بما هو دونها على

وفق رأيه ، ليكون وقفا على أهل تلك البلدة بالموجب المذكور . وإذا حملت تلك النسخ إلى تلك البلدة ، يجب أن توضع فى مدرسة لها مدرس مشار إليه بفنون العلوم باختيار قضاة تلك البلدة وأئمتها وعلمائها ليقرأ المتعلمون الراغبون فيه على ذلك المدرس . وإن شاء أحد منهم أن يستنسخها ، دفعها إليه ذلك المدرس بعد أن يأخذ الرهن ، وكذا إن أراد استعارتها لأجل المطالعة ، أخذ الرهن أيضا .

وكلما فرغ المتولى من بعث جميع النسخ إلى جميع معظمات البلاد ، استأنف العمل . ويبعث مرة أخرى على الترتيب الأول . وعند كل بعث ، توضع النسخ فى الصفة الكبيرة التى هناك فى الروضة ، بين المنبر والمحراب على مرفع ، ويقرأ الدعاء المذكور على القاعدة المذكورة . ويجب أن يكتب على ظهر كل نسخة يراد بعثها إلى بلدة هذه الشرائط التى ذكرناها . ومصالح هذه النسخ وما يحتاج إليها وأجرة كتبتها ، إنما يعينها المتولى فى كل زمان على مايرى فيه المصلحة .

وأيضا قد شرطنا أن يستنسخ المتولى من جملة هذه الكتب ، دون الأصل الموضوع فى قبة الربع الرشيدى ، من الكتاب الموسوم بالمجموعة الرشيدية وكتاب بيان الحقائق وكتاب الآثار والأحياء ، من كل منها نسخة فارسية ونسخة عربية ، غير ماشترط استنساخها للبعث إلى البلدان .

وهذه النسخ تكون دائما عند المدرس الساكن فى روضة الربع الرشيدى ،

وهـذه النسخ تـكون دائمـا عند المدرس الساكن فى روضة الربع الرشيدى ، ويدرس كل يوم منها شيئا . وكل فقيه يكون فى تلك البقعة يجب أن يـكتب من تلك الـكتب نسخة بقطع كبير بغدادى ، إن شاء بالعربية ، وإن شاء بالفارسية . ويجب أن يكتبها ذلك الفقيه فى مدة شرط إقامة الفقهاء فيها ؛ فإن أتمها قبل الميعاد المذكور ، أو يكتب أكثر من واحدة ، كان سعيه أجمل . وكل فقيه يقصر فى كتابتها ، وجب على المتولى أن يخرجه من تلك البقعة ، وينصب مكانه فقيها آخر غير مقصر . وإذا تمت تلك النسخ ، كانت ملـكا لذلك الفقيه ، ولامنازعة لأحد فى ذلك ؛ إن شاء وهبها ، وإن شاء باعها ، وإن شاء حفظها لنفسه . وكما أنا أجزنا ورخصنا فى الاستنساخ من نسخة الأصل الموضوعة فى القبة بشرط ألاتخرج من الربع الرشيدى ، فـكذلك أجزنا أن يستنسخ الراغبون من هذه النسخة التى عند المدرس، لـكن بالشرط المذكور ، وهو ألاتخرج من الربع . والفقهاء والساكنون فى البقعة مقدمون على غيرهم إذا أرادوا الاستنساخ .

فهذه الشرائط كانت قـد سقطت من القلم ، وقد كتبناها على سبيل الإلحاق . « فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ » .

وحكم هذه الشرائط المذكورة هو حكم سائر الشرائط التى سبق ذكرها من أنها يجب على المتولى تقديمها على سائر التصارف . وكل متول لا يسعى فى

ذلك بموجب تلك الشرائط ، كان ذلك مخلا بتوليته ؛ فمن أبطلها أوسعى فى إبطالها أو إبطال شيء منها،فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين . فليطلب الراغبون فى مطالعة هذه الكتب نسخها من أبواب برنا الموسومة بالربع الرشيدى ، ولينتفعوا بها إن شاء الله تعالى . وليعلم أن المخدوم المصنف ، عزالله أنصاره ، لما صنف هذه الكتب وأشار إلى كتابة نسخ كثيرة منها ، فالناسخون قد اتفق لهم فى بعض المواضع تصحيفات وأغلاط ، ولم يمكن للمصنف ، زيدت أقداره ، أن يفرغ لها اشتغالا بمهام الممالك وتدبير الأقاليم . وهذا لملازميه المشتغلين بخدمته ، فمن حصل له الوقوف على دقائق تلك المصنفات ، فصدرت الإشارة العليا بأن الناسخين يقابلون تلك النسخ ؛ ولا يخفى أن أكثرهم قاصرون عن درجة العرفان ، فتصرفوا فى بعض المواضع بإلحاقات من تلقاء أنفسهم ، وعلى شهوة منهم ؛ ولذلك وقع فى بعض المواضع تحريفات وتصحيفات . ونحن إنما كتبنا هذا المعنى ، لئلا ينسب المطالعون لهذه الكتب تلك التحريفات إلى المصنف زيدت أقداره . والدليل على براءة ساحة المصنف ونزاهة جنابه ، ضاعف الله جلاله ، عن ذلك ، أنه لايخفى على من له أدنى تمييز ومعرفة أن المؤيد من عندالله بأمثال تلك الحقائق ، والمخصوص من فضل الله بأشكال هاتيكم الدقائق ، لايصدر من جانبه شيء غير مفهوم أوكلام غير منظوم . نعم ، لووجد فى كليات هذه المباحث وأصولها نكت أوشبه ، فالجواب عنها إنما يلزم المصنف ، دام ظلاله . وكل ماسوى

ذلك ، فهو من غلط الناسخ وتحريفه وسهوه وتصحيفه . والدليل على ذلك أنا وجدنا فى بعض النسخ تحريفا يخالف تحريف نسخة أخرى ، ومن البين أن ذلك إنما يكون من اختلاف الناسخين . وقد أصلحنا منها ما أمكن إصلاحه ؛ فإن كان شىء من ذلك باقيا ، فليصلح أو يعذر « والله المستعان » . .

تركت رشيد الدين يتكلم بنفسه وحرصت على الاحتفاظ بنص عباراته ، لكى أبين للقارىء مقدار الاحتياطيات التى أخذها مؤلفنا لمنع مؤلفاته من الضياع . فإنه لم يهمل شيئا مما يمكن أن يساعد على تجنب مثل هذه الكارثة ؛ وكان يبدو أن تلك الضروب من العناية الفائقة لا يمكن أن تخطىء مرماها ، وأن مؤلفات رشيد الدين ، وقد قدر لها أن توضع فى كل المكاتب العامة بالعالم الإسلامى ، وأن يدرسها جميع المتعلمين فى هذا العالم ، لا بد أن تصل إلى أيدى الخلف . ولكن هذه النوايا الحسنة كلها لم تحقق بالدقة الواجبة .

فقد فقدنا الجزء الأكبر من مؤلفات هذا المؤرخ العالم . ولم تنل كل تلك الاجراءات التى اتخذها من النجاح أكثر مما نالت الاحتياطات التى اتخذها الإمبراطور تاسيت Tacite لضمان الاحتفاظ بمؤلفات قريبه العظيم . فإن عوادى الزمن ووحشية البشر ، هذين الوبائين اللذين حالا بين الكثير من ذخائر العصور القديمة وبين الوصول إلينا ، قد امتد أثرهما التخريبى أيضا إلى مؤلفات رشيد الدين .

مقدمة
رشيد الدين فضل الله
لكتاب
جامع التواريخ

جامع التواريخ

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرست كتاب السير والتوراريخ ، وفذالك حساب البيانات يجب أن يفتتح بالحمد والثناء لله تعالى خالق العالم . وكذلك عنوان كتاب الروايات ، وطراز لباس الحكايات ينبغى أن يبدأ أيضا بالصلوات والتحيات على الروضة المطهرة ، خاتم النبيين ، وعلى خلفائه الراشدين ، وعموم آله وأصحابه والتابعين . « سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ. وَسَلَامٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ. وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ » (١) .

أما بعد ، فالغرض من ترتيب هذه المقدمة ، وتحرير هذه الديباجة ، أن مسودة هذا الكتاب المبارك المشتمل على ذكر تواريخ ملك العالم چنگيزخان وآبائه وأجداده العظام وأولاده وأسرته المشهورين كما سيأتى شرح ذلك فى مقدمة الكتاب، قد ألفت ورتبت بأمر السلطان السعيد غازان خان ــ أنار الله برهانه ــ من الأوراق والطوامير المبتورة المتفرقة ، والجرائد والدساتير المختلفة

ص ٦

ص ٨

(١) قرآن كريم ، سورة الصافات ، الآيات ١٨٠ ــ ١٨٢

المتنوعة . وكذلك فى عهد دولته التى كانت تغبطها وتحسدها أدوار وعهود « دارا » [١] و « أردوان » [٢] و « أفريدون » [٣] و « أنو شروان » [٤] ، كان قد شرع فى تبييض بعض الأجزاء من هذا الكتاب . ولكن قبل أن تتم الكتابة ، وقبل الفراغ من التحرير ، وفى تاريخ ١١ من شوال سنة ٧٠٣ فى حدود قزوين التى هى باب الجنة صعدت الروح المطهرة لذلك الملك العادل ملبية نداء ربها : « يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ » [٥] . واستقرت فى غرفات جنة الخلد ، وشرفات أعلى عليين : « فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ » [٦] .

---

(١) المقصود دارا الأول ، وهو أعظم ملوك الدولة الأكيمنية أو الهخامنشية . وربما كان أعظم ملوك إيران قبل الإسلام . كون إمبراطورية فسيحة كانت تمتد من نهر السند حتى البحر الإيجى ، ومن المحيط الهندى حتى بحر قزوين ، ونظم ملكه على أساس متين. اعتبر مثلا أعلى فى العهود التى تلت دولته . (المترجم)

(٢) يقصد أردوان الخامس وهو أحد الملوك الإشكانيين أو البارثيين الذين كانوا يحكمون إيران قبل قيام الدولة الساسانية ، وذلك عندما كانت ايران مقسمة بين ملوك الطوائف . وكان أردوان أقوى هؤلاء الملوك إلى أن تغلب عليه أردشير بابكان فى سنة ٢٢٤ أو ٢٢٦ م وأسس الدولة الساسانية . (المترجم)

(٣) تمثل سيرته فى الأساطير الفارسية غلبة الخير على الشر ، وذلك بعد أن قتل الضحاك ، وخلص الإيرانيين من شروره ومفاسده . وتروى المصادر أنه تغلب على الضحاك فى أول شهر « مهر » فاتخذه الناس عيدا لهم وسموه « مهر كان » . (المترجم)

(٤) المقصود كسرى أنو شروان أعظم ملوك الدولة الساسانية (٥٣١ — ٥٧٨) م، والذى اجتمعت فيه صفات القائد المحنك وخصائص الإدارى الحازم ؛ إذ كون إمبراطورية واسعة وقام بإصلاحات عديدة . وبالإضافة إلى ذلك كان مثلا أعلى للملك العادل فلا غرو أن اشتهر فى التاريخ باسم « كسرى العادل » . (انظر كريستنسن : ايران فى عهد الساسانيين ، ترجمة الأستاذ الدكتور يحيى الخشاب ، ص ٣٤٨ وما بعدها ، القاهرة ١٩٥٧) . (المترجم) .

(٥) قرآن كريم ، سورة الفجر ، آية ٢٧ ، ٢٨

(٦) « « « القمر ، آية ٥٥

شعر :

« ـ لما كان قدره أعلى من قدر الدنيـــــا ،
فقـــــد صار مكانه حيث جناب القدس الأعلى .
ـ وفى كل لحظـــــة تهب الريح ،
تحمل من الله مئات الآلاف من التحية على روحه ».

وقبل وفاته بعدة أيام ،وبمقتضى الوصية التى كانت تمتاز ببراعة الفصاحة، وبلاغة الآثار الممزوجة بالحكمة والمثيرة للمحبة ، جدد هذا السلطانوأكد العهد الذى كان قد قطعه على نفسه منذ خمس سنوات أو ست فيما يخص اختيار ولى عهده . وبحضور جمهور الأميرات والأمراء ، وجميع أركان الدولة وأعيان الحضرة ، وبإيحاء فكره الثاقب ورأيه الصائب ، أملى رغباته بلسان فصيح وبيان مليح ، وبالغ فى حض الجميع على رعاية تلك الدقائق لأن الحق محض الحقائق ؛ فأصر على أن يكون ولى عهده أخاه الأكبر السلطان الأعظم ، الخاقان الأكرم ، شاهنشاه الإسلام ، مالك رقاب الأنام ، الإيلخان العدل ، صاحب الدنيا الأكمل ، والى الأقاليم المظفر ، جامع تفاصيل السعادة، والفارس الشجاع فى ميادين رعاية الدين ، السلطان الباسط العدل فى الممالك ، الممهد لقواعد الحكم ، المشيد لمبانى الفتح والظفر ، مركز دائرة الاستيلاء على العالم ، مدار نقطة صاحب القران ، زبدة فوائد التكوين ، وإبداع خلاصة نتائج الأجناس والأنواع ، باسط بساط الأمن والأمان ، موطد أساس الإسلام

ص ١٠

ص ١٢

ص ١٤ والمسلمين ، مظهر شعار الشريعة النبوية ، محيي مراسم الملة المصطفوية ، منبع زلال لطف الله الأزلى ، مطلع هلال فيض ذى الجلال ، منظور نظر التوفيق الربانى ، المخصوص بعناية الله وتأييده ، السلطان الحامى للدين ، ظل لطف الله ، السلطان محمد خدا بنده خان لا زال مقرون العهد بالدوام ، مظفر الألوية

ص ١٦ والأعلام ، ممدود الظل على كافة الأنام؛ فإنه مقصود ظهور دولة چنگيزخان ، وموعود دفع فتور أمة الإسلام ، وإن حياته لتفيض بالكرم والجود .

شعر :

« ــ ذلك الذى له قدرة القضاء وتدبير القدر ،

ذلك الذى له همة الفلك و بصر المَلَك .

ــ ذلك الذى من ماء وتراب دولته ،

تكون النجوم شعاعا والسماء غبارا » .

ذلك الملك السعيد الحظ المسعود الطالع ، الذى يبنى زحل بيت سلطانه فى ميزان الإتقان ، ويثبت المشترى سجل السيطرة على ممالك الربع المسكون باسمه المبارك دون تزييف ؛ ويستل المريخ من غمد الانتقام خنجره الشبيه بالصمصام فى هيكله لمهاجمة جيش العدو اللئيم ومتابعته ، والشمس التى تنير الدنيا ، تجمل وجهها الوضاء بأشعة أنوار رأيه الذى هو زينة للعالم ، وتعزف

ص ١٨ الزهرة الزهراء على البربط لحن النوى لإطراب محفله الممتع ، ويقوم عطارد بتدبير حسابات الديوان وتنميتها دون تساهل أو تقصير ، والقمر قد أحيط بالهالة ليرسل رسالة الصيت الذائع لمحاسن أخلاقه إلى أطراف الآفاق عن

لـ ريق ولى العهد ، وارث عرش السلطنة ووالى التاج وخاتم الدنيا .

شعر :

« به صار الملك مضيئاً ، كما صار الدين قوياً ،

و به أيضاً صار العرش مشرقاً والحظ فتيًّا » .

و بعد وصول الرسل بالأخبار ، نهض الشاهنشاه الميمون بعون التأييد الإلٰهى ، من ناحية ممالك خراسان التى كانت معسكرا لعساكره المنصورين، ومقاما لجنوده العديدين ، قاصدا العراق وآذر بيجان حيث مقر عرش السلطنة ومستقر رايات الحكم .

شعر :

« الإقبال من الأمام والنصر من الخلف ،

والعصمة فى القلب والنصرة فى الجناح » .

و بسبب كمال شفقته الملكية، ووفور عاطفته السلطانية كان يرسل فى كل لحظة ، أثناء السير فى الطريق ، الرسل متعاقبين ومتواترين بقصد الترفيه عن الخدم والحشم،وليبشروا الناس برحلته المباركة ووصوله الميمون . وكان السلطان يضع بلسم رحمته على القلوب الجريحة ، كما كان يدخل السرور على الجميع ، ويزيدفى شد أزرهم ومعاونتهم ؛ فكانوا يقومون فوجا فوجا بمراسم استقباله ؛ وهم فارغو البال ميسّرو الحال ، ويسعدون بشرف تقبيل الأرض بين يديه ، والمثول أمامه فى مقره الذى هو ملجأ السلطنة . وفى يوم الاثنين الثانى من

شهر ذى الحجـة من السنـة المذكورة ، وصل السلطـان إلى معسكره الـكبير بجانب مدينة الإسلام « أوجان » .

شعر :

« جاء إلى فلك الدولة موفقـــا وناجحــــا ،
ذلك الذى هو ملجأ السلطنة وشمس الملوك » .

كما لحق بتلك الحضرة الشريفة العليا ، مجموع الخواتين والنبلاء ، فغنّى هاتف الإقبال من وراء حجاب الغيب :

شعر :

ـ « أيهــا الزمن أبشر ، لأنه من سمــــاء الملك ،
عادت شمس الشريعة إلى أفق الـكبرياء .
حينما ظهر أبطال الظلم وحساد الإســلام ،
يصل برهان عــــدل الملك الفاتح .
أجل ! لقد وجـدت الدنيا عونا ، والدين ملاذا ،
والدولة راعيا ، كما واجه الظلم زوالا والفتنة فناء .
كانت زهرة الإقبـال قد ذبلت ثم نضرت ،
حين بلغهـــا ماء غـــدله لسقيـــاها » .

وفى خلال عـدة أيام نظر السلطان فى مختلف الشئون العـامة ،

وتفقد مصالح الممالك ، وقدم شرائط التثبت والتدبر ، وأقام وظائف اليقظة والأمن .

و بعد ذلك عُقد مجلس الشورى الكبير فى أسعد الأوقات وأهنأ الساعات، فى صباح يوم الاثنين الموافق منتصف ذى الحجة سنة ٧٠٣/١٣٠٣ .

شعر :

« بفأل مبارك وكوكب سعيد ،
وبحظ وافر وسعد مزيد .
جلس على العرش كجمشيد [(١)] ،
وأمامه الإنس والجن وقد حزموا أو ساطهم .
واصطف الجمع فى حضرته ، بين جالس وواقف،
وهم من الأمراء المجربين والملوك الظافرين .
لقد جعل الفلك دورانه حسب أمره ،
وسارت الدنيا حسب توقيعه » .

والحق يقال أنه منذ بدء العالم ، وأول ظهور ذرية آدم ، لم يشرف عرش السلطنة فى أى قرن من القرون بمثل هذا السلطان العظيم ؛لأنه سخر أكثر

(١) جمشيد فى الأساطير الفارسية هو أحد ملوك البيشداديين ، وحاله يشبه حال سليمان من حيث القوة وبسطة العيش ، وسعة النفوذ ، وتسخير الإنس والجن لمشيئته . ولكنه فى نهاية عمره طغى وتكبر وادعى الألوهية فقضى عليه الضحاك ، واستولى على ملكه وحكم ايران فعمها شره وطغيانه .

ممالك العالم بضربة سيفه المنتقى الدم والفاتح القلاع . و إذا كان بعض هذه الأقاليم قد آل إلى أصحابه عن طريق الإرث ، فإنه لا يستقر فى أيديهم دون منازع أو مخاصم. هذا ما لوحظ بوجه خاص فى العصر المغولى ؛ فقد ثبت بالتجربة والمشاهدة للجميع؛ مدى ما كان يحدث فى كل انقلاب من اضطرابات وثورات ، وكم أراق السيف البراق من دماء على الأرض بسبب التهاب نار الفتنة ، ومبلغ ما أطاح به من الرؤوس التى كانت تطير فى الهواء . و بينما راجت سوق الغارات كسدت الأجناس والأنواع من كل متاع ، و بواسطة القتل والنهب هلكت نفوس وضاعت ممتلكات لكثير من سادة العصر وأعيانه . وقد استمرت الحال على هذا المنوال إلى أن جلس السلطان على العرش . فقد ظلت قواعد ذلك الأمر متزلزلة لمدة طويلة ، وفى كل يوم كانت تحدث حادثة موجبة للتشويش والتفرقة ، ولم تكن توجد حالة استقرار وهدوء . فلما وصل دور السلطنة إلى عهده المبارك وأيام دولته المديدة ، وجدت رقعة الممالك العريضة الواسعة الأمن من جميع المخاوف والمهالك ، وأصبحت فى قبضة نواب حضرة السلطان مضبوطة ومرتبة وفق قانون مكمل ومهذب ؛ فأثبت لسان القلم الناثر الدرر على الرغم من السيف اللامع البراق — هذين البيتين على صفحة حال الزمان :

ص ٢٦

شعر :

« أيها العدل ، أنت الذى فى أيام عدلك »

لم يخرج السيف رأسه من غمده .

والدنيا بفضل دولتك صارت بحيث أنه ، حتى يوم الحشر ،

لا يعمل السيف إلا إذا كان مرادفا لمدحك » .

ومن قبيل هذه الدلائل الواضحة والبراهين الساطعة علم على وجه اليقين، أن ملك الملوك يتمتع بمنزلة خاصة ، وأنه قد اختص بعين العناية الإلهية بشكل واضح بيّن ، وأن أساس تلك الخصوصية محكم ومتين .

ص ٣٠

ولقد تأمل أحد الأكابر الأفاضل فى هذا العصر — وكان يعد بسبب كمال فصاحته سحبان عصره، وبسبب مدائحه للسلطان كان يعتبر « حسان »[1] زمانه — فحوى الاسم المبارك للسلطان بمقتضى هذا القول : « الألقاب تنزل من السماء » فنظم هذه المعانى شعراً وقال :

« — ليلة أمس كنت أفكر ،

فى اسم الملك « خر بنده »[2]

— ما عسى أن يكون معنى هذا الاسم ،

الذى قد يغفل عن إدراكه القارئ .

---

(١) يقصد حسان بن ثابت شاعر الرسول صلى الله عليه وسلم .

(٢) لقب السلطان أولجايتو (٧٠٣ — ٧١٦) بهذا اللقب وهو لفظ مركب من كلمة « خر » بمعنى حمار ، و « بنده » بمعنى تابع، والمراد (المكارى) . كما أنه لقب أيضا بلقب خدا بنده ، وهو لفظ مركب من « خدا » بمعنى الله ، و « بنده » بمعنى عبد ،أى « عبد الله » .

ص
٣٢

ـ وبينما أنا فى هـــذه الحيرة إذ وصل إلى سمعى ،
هـــذه العبارة : « يامؤيد الملك السعيـــد ».
ـ إن المعنى موجود فى حروف هـــذا اللفظ
وهو ملائم جدا لهـــذا الملك . . . .
ـ فاحسب عن طريق « حساب الجمـــل »[1] ،
القيمة العددية لكل حرف من حروف كلمتى «شاه خربنده».
حتى تعرف معنـــاها فإنها تعطى نفس المعنى ،
لهـــذه الكلمات : (سايهٔ خاص آفرينـــده)[2] .
ـ تسعة حروف تلك وخمسة عشر حرفا هـــذه ،
ولكنهما فى الحســاب متشابهان ومتساويان .
ـ ويمكن أن تقول إن ذلك الاسم يتكون من تسع أصداف ،
قد ملئـــت بخمس عشرة جوهرة .
ـ أو أن هـــذا الاسم المبـــارك طلسم ،
علـــق على باب كـــنز الله .
ـ فلمـــا عَرفتُ سِرَّ ذلك الاسم ،
تجمـــع خاطرى المشتت . . . .

(١) لمعرفة طريقة هذا الحساب انظر الراوندى : كتاب راحة الصدور ، ص ٤٤٩ ـ ٤٥٠ ، ليدن ١٩٢١ .

(٢) أى « الظل الخاص للخالق » ، وقد أبقينا على الكلمات الفارسية دون ترجمتها لأن قيمتها العددية محسوبة وفقا لحروف هذه الكلمات (انظر حافظ آبرو : ذيل جامع التورايخ ، لنشر الدكتور بيانى ، ص ٤ ، طهران ، ١٣١٧ هـ . ش) .

ـ فأدركت المعـــنى وقلـــت :
« ليـــدم الملك « خربنـــده » .
ـ ولتظـــل شمس جلاله وملـــكه ،
مضيئـــة من الفلك الدائم » .

وبالجملة فإنه بعد إقامة مراسم الابتهاج ، وبسط بساط الحبور ، تفحص سلطان مليا القانون والتقاليد (١) ، والعادات والرسوم التى كانت على عهد خيه السلطان السعيد غازان خان أنار الله برهانه ، كما أطلع على كيفية إصدار أحكام والقيام على تنفيذها . ونظرا لما كان يكنه السلطان لأخيه الراحل ن غاية الإخلاص والمروءة ، والاعتراف بأفضاله الكثيرة عليه ، فقد رأى من ن الصواب أن يظل أمراء الدولة وأركانها متمتعين بكامل النفوذ والاحترام كما كانت الحال فى القرار السابق والرسم السالف فى عهد أخيه ، وأن يشغل كل منهم المنصب الذى كان يشغله من قبل ، ويزاول نفس العمل الذى كان ، وأن تسير شئون المملكة ومصالح الولاية على نفس الطريقة السابقة ؛ بحيث تكون بعيدة عن شوائب التغيير والتبديل والزيادة والنقصان وقد يقن الجميع أنه بيمن هـذا التدبير استقرت الأمور ووصلت إلى حد لكمال .

ص ٣٤

---

(١) ترجمة الكلمتين المغوليتين يساق بمعنى القانون ويوسون بمعنى التقاليد .

ص ٣٦ شعر :

« إن شئون المملكة تجرى بمثل هذا الترتيب الدقيق من الآن فصاعدا ،

بحيث لا يضطرب أحد بغير طرر الحسان شبيهات القمر » .

ثم إنه عند ما حظيت أجزاء هذا التاريخ بمطالعة السلطان العظيم ، أمر بإصلاحها إصلاحا تاما وضبطها ضبطا دقيقا ؛ وذلك لما رزقه من كمال العقل والكياسة ووفور العلم والفراسة .

وحيث إن هذا التاريخ بأكمله قد تم تبييضه فى عهد هذا السلطان المبارك، الذى يزيد إقباله على مر الأيام فقد بدا أول الأمر أن يقدم باسمه المبارك ، وأن يرصع بذكر ألقابه السلطانية . ولكن أخلاقه الحميدة ومروءته الأصيلة ، جعلته يحجم عن الموافقة على هذا الاقتراح ، إذ أمر بأن يقدم الكتاب باسم السلطان السعيد غازان خان — أنار الله برهانه — وأن تظل مقدمته موشحة بذكر ألقابه. فلم أتردد فى تحرير الكتاب على هذا المنوال وفق أمر سيد الدنيا المطاع.

ولما كان ملك الإسلام — خلد الله سلطانه — متصفا بعلو الهمة ، فإنه كان يميل دائما إلى البحث والاطلاع على أنواع العلوم والتفحص والاستقصاء لفنون الحكايات والتواريخ ، ولما كان يمضى أكثر وقته الميمون فى اكتساب صنوف الفضائل والكمال ، فإنه حين قرأ هذا التاريخ وراجعه ، قال لى : ص ٣٨

« إنه حتى هذا الوقت لم يؤلف فى أى عهد من العهود كتاب يشتمل على التاريخ العام لجميع سكان العالم وشرح أحوالهم ، ومعرفة طبقات الناس

وأجناسهم ، كما أنه لايوجد فى هذه الديار كتاب قط يحتوى على أخبار سائر البلاد والأمصار ، ولم يبد ملك من الملوك السابقين اهتماما بهذا العمل ومباشرته. أما الآن فبحمد الله ومنّه دخلت أقاليم الربع المسكون تحت سيطرتنا وسيطرة أبناء چنگيزخان » . وقد اجتمع فى حضرة السلطان السامية الحكماء والمنجمون والعلماء ومؤرخو الأديان والشعوب من أهالى الخطا والماچين والهند وكشمير والتبت والأويغور [١] ؛ وأقوام الأتراك الآخرين والأعراب والإفرنج . وكان مع كل واحد منهم كتب تشتمل على تواريخ وحكايات ومعتقدات أمته ، وهو لاشك واقف على بعضها ومطلع عليه .

وهكذا اقتضى رأى السلطان الذى هو زينة للدنيا ، أن يكتب من مفصل تلك التواريخ والحكايات مجمل واف يحمل الاسم المبارك لمليكنا ، وأن تدون بعد هذا صور الأقاليم ومسالك الممالك فى مجلدين يكونان ذيلا للتاريخ المذكور. ولكى يكون مجموع ذلك الكتاب الفريد جامعا لجميع أنواع التواريخ يجب أن تغتنم الفرصة لإنشاء مثل هذا المؤلف الذى لم يتيسر الحصول عليه فى أى عهد من عهود الملوك السابقين ، وإتمامه دون إهمال وإمهال ليكون وسيلة لتخايد اسم مؤلفه ودوام شهرته .

---

(١) قوم من الأتراك كانوا يدينون بالمسيحية والبوذية والمانوية . وهم بصفة عامة أكثر أقوام الأتراك والمغول تمدنا . كانوا يقطنون شمال شرقى تركستان وشمال نهر تاريم . وأهم مدنهم تورفان وبيش باليغ وبرقول وقره شهر وآلماليغ . وكان لهم خط خاص بهم هو الخط الأويغورى . وعند ما اختلط بهم المغول أخذوا عنهم هذا الخط ودونوا به كتاباتهم - (المترجم) .

ولتنفيذ هذا الأمر شرعت فى الاتصال بجملة الفضلاء والبارزين من الطوائف المذكورة ، واستطلعت آراءهم ، واقتبست من مضمون كتب المتقدمين . ومن هذه المادة كتبت مجلدا آخر يتعلق بالتاريخ العام لأهل الأقاليم ، ومجلدا ثالثا فى بيان صور الأقاليم ومسالك الممالك وجعلت هذين المجلدين ذيلا لهذا التاريخ المبارك ، وأطلقت على مجموع الكتاب اسم « جامع التواريخ » .

س ٤٠

وقد أثبت فى الفهرس الذى يلى هذا الفصل تفاصيل الحكايات والتواريخ والطريقة التى سرت عليها فى تدوينها .

وإنه لمن المحقق أن المؤرخ لا يشهد بعينيه القضايا والحكايات التى يكتبها ويقررها فى مؤلفه، كما أنه لا يستقى معلوماته عن طريق المشافهة من أفراد تلك الطائفة الذين هم أصحاب القضايا والحوادث ، وكان التاريخ سجلا لسرد أخبارهم ولكنه يكتب ماينقله الرواة ومايذيعونه .

وإذن فالنقل نوعان :

النوع الأول هو النقل المتواتر ويؤدى إلى العلم وليست فيه شبهة . فمثلا قد وصل إلينا بطريق التواتر وجود الرسل والملوك وعظماء الرجال الذين عاشوا فى القرون الغابرة ، وكذلك وجود المدن البعيدة مثل مكة ومصر وغيرهما من البلاد المشهورة النائية . ورغم أننا لم نشهد هؤلاء الأشخاص ، ولم نر تلك البقاع ؛ فإننا نؤمن بما ورد إلينا من أخبار فى هذا الشأن بطريقة لم يبق معها

أى شك أو تردد . وإن بناء جميع الشرائع والأديان ليقوم على هذا النقل المتواتر ، ولهذا النقل اعتباره فى بعض القضايا عند عامة الخلق ، وعند طائفة مخصوصة فى بعضها الآخر .

وأما النوع الثانى فهو النقل غير المتواتر ، ويسمونه الآحاد ، وهو يحتمل الصدق والكذب . وأغلب الحكايات والأحوال التى يعلمها الناس تكون بهذه الطريقة غير المتواترة ؛ بحيث إن القضية التى وقعت أمس إذا رواها صاحبها اليوم فإنها قطعاً لا ترد إلى خاطره كما حدثت ، بل إنه عندما يعيدها فى كل مجلس يقع تغيير فى العبارة والألفاظ . ولهذا السبب نلاحظ أنه رغم توخى الدقة والاحتياط التام فى الشرعيات قد وقع فيها اختلاف كثير لدرجة أن بعض الأحاديث النبوية أيضا يشك فيها وذلك لاختلاف حال الرواة . وقد قرأ الأئمة السابقون تلك الأحاديث ودرسوها دراسة مستفيضة فاطمأنوا إلى بعضها واختاروها ، وأسموها الصحاح ، ووقفوا إزاء الباقى موقف التحير والتردد . وأكثر اختلاف الأئمة فى المسائل الشرعية يتوقف على هذا المعنى . ومع هذا لا يجوز إنكار المسائل التى اختلف فيها كلية لأنه قد يتطرق الخلل إلى دين من ينكرها .

ص ٤٢

وعلى هذا فمن المؤكد أن تاريخ عدد من الأقوام المختلفين فى العهود المتطاولة لا يمكن أن يعرف مطلقا عن طريق القطع واليقين ، وأن الروايات التى رويت وتروى فى هذا الشأن ليست بدرجة متساوية من الصحة ولا متفقة

عليها ؛ ففي كل لحظة يروى كل شخص ماوصل إليه بطريق التواتر أو ماسمعه على سبيل الإخبار ، وكثيرا مايزيد الراوى وينقص حسب هواه . وإذا لم يقل أيضاً الكذب المحض فإنه يبالغ إلى حد ما فى العبارة التى تتضمن وقوع الاختلاف .

ولما كانت السنة الإلهية تجرى على هذا النحو الذى سبق ذكره ، وقد جبلت الطبيعة البشرية على هذا الأسلوب ؛ فكل مخلوق يريد أن يقرر خلاف هذه المعانى يكون تفكيره ضربا من المحال ، كما يكون قوله زائفاً .

وهكذا إذا فكر المؤرخ فى أن ما يكتبه لابد وأن يكون محققا ومقطوعا بصحته ، فإنه لن يستطيع أن يكتب أى تاريخ ، لأن كل مايورده من أخبار إنما يرويه عن جماعة من العظماء قدشاهدوها أونقلوها عن الآخرين ، أوطالعوها فى كتب المتقدمين . وعلى كل حال فكما سبق أن ذكرت يكون ذلك محلا للاختلاف . ولو فرض أن المؤرخين استنادا على هذا السبب تركوا الكتابة والرواية ظانين أن الناس ربما يعترضون عليها ولا يستسيغونها ، فإن جميع القصص والأخبار وتواريخ العالم تبقى فى كل فترة متروكة ومهملة ، ويحرم جميع الناس فوائدها ومزاياها .

ص ٤٤

فوظيفة المؤرخ إذن أن ينقل ويكتب حكايات وأخبار كل قوم وكل طائفة على نحو ماوردت فى كتبهم ، وبالطريقة التى رويت بها من الكتب المشهورة المتداولة بين هؤلاء القوم ، ومن أقوال مشاهيرهم والبارزين فيهم ،

والعهدة على الراوى . وكما سبق أن شرحنا فإن كل صنف من النساس وكل طائفة من الخلق ، ينقلون الأخبار والروايات على حسب معتقداتهم . وفى كل وقت يرجحونها على معتقدات الآخرين ، ويبالغون جدا فى إبراز حقيقتها .

وإذن فلا يمكن أن يتفق جميع الناس فى كل القضايا . وهذا المعنى واضح وظاهر لدى الجميع . وعلى هذا فعندما ينقل المؤرخ عن الأقوام المختلفين فلابد وأن يبدو اختلاف فى أقواله ، وقد يختلف بعض الناس فى بعض المواضيع والحكايات ؛ ولكن الخير والشر والعيب والمدح ومثل هذه الأمور لاترجع إلى المؤرخ ، لأنه كما سبق أن ذكر إنما يقرر تاريخهم وأخبارهم . وهو بالتأكيد يستطيع القيام بتحقيق حقيقى دقيق فيما يقول ويقرر وذلك كما سبق أن قلنا .

ولاشك أن النقل المتواتر معتبر ومقبول باتفاق الجمهور . وإذا كان التواتر عند المسلمين أكثر اعتباراً منه عند جميع الأمم ؛ فإن بناء تاريخ الأقوام المختلفين لا يمكن أن يقوم على هذا الأساس .

ومن المسلم به أن كل ماينقل بالتواتر يجب أن يكون معتبراً لدى كل طائفة ، فقد قلنا إن المتواتر إما أن يكون له اعتبار لدى عموم الخلق أو عند طائفة مخصوصة . أما ماينقل عن طريق غير المتواتر ، ويكون محتملا الصدق والكذب ، فإن واجب المؤرخ كما ذكر — أن ينقل ويكتب بقدر مايستطيع من أقوال الثقات ومن الكتب الصحيحة المتداولة . فإذا تصرف فيما ينقله وفق تصوره فإن عمله بلاشك يكون عبثاً وخطأ .

ص ٤٦

والغرض من هذه الكلمات أنه حينما أُمر هذا الضعيف بتأليف كتاب جامع التواريخ هذا ، وضع تحت بصره وسمعه كل ما جاء فى الكتب المشهورة لدى كل طائفة ، وكل ما اشتهر لدى كل قوم عن طريق النقل المتواتر ، وكل ما قرره العلماء والحكماء البارزون فى كل طائفة حسب معتقداتهم ، ثم كتب على هذا المنوال دون تصرف أو تغيير . ومن المحتمل أنه بسبب قصور فهم الراوى وإهماله أن تنسى بعض هذه الأمور ، ومع هذا فإنه يود أن يجتهد بقدر ما فى وسعه فى تنقيح معلوماته حتى تجىء بقدر المستطاع فى صورة تامة ، ولكن لم يتيسر له زيادة السعى والاجتهاد فى هذا الباب ؛ إذ لا يخفى أن مثل هذه الأعمال يجب أن يتوفر فيها الاستعداد التام والمهارة فى جميع العلوم . وفى الحقيقة لم ير المؤلف هذه الشروط متوفرة فيه . ثم إن إخراج هذا العمل إلى حيز التنفيذ كان فى حاجة إلى فترة طويلة من مرحلة الشباب ، كما كان يلزم له الفراغ الكافى بقدر المستطاع . وقد اتفق للمؤلف أن يقوم بهذا العمل فى آخر سن الكهولة فى الوقت الذى أريد لهذا الضعيف أن ينخرط فى سلك نواب الحضرة ، وأن يكلف بمباشرة عظائم الأمور . ومع أنه لم يرزق الاستعداد للقيام بهذا العمل الكبير ، ولم تكن قوة العقل والفكر كافية للنهوض به ، فإنه وجد من اللازم أن يمتثل لهذا فينهض لمباشرة هذه المهمة ، وعرف كذلك أن الواجب يحتم عليه أن يبذل قصارى ما فى جهده فى هذا السبيل . ولكن إذا كانت قوة الذهن لا تفى بشئون الديوان فكيف تفى أيضاً بجمع التواريخ التى هى من عظائم الأمور ؟ ! . . . .

و بناء على هذه الأسباب والأعذار التى أبديتها ، فإنى آمل بفضل اللطف العميم لعظماء الرجال الذين يطالعون هذا الكتاب ، أن يتجاوزوا و يغمضوا أعينهم عما يكون موضعا للخطأ والخلل ، وموقعا للسهو والزلل ، وأن يتفضلوا بإصلاح و إضافة كل مايرونه لائقا ومناسبا ، وأن يعذروا هذا المؤلف الضعيف الذى ينفذ ما أمر به .

ص ٨

وإذا كانت تواريخ بعض الأقوام من الكفار وعبدة الأصنام مشحونة بأباطيل خيالاتهم وأضاليل حكاياتهم غير المعقولة ؛ فإن الغرض من إيرادها أن تكون عبرة لأولى الأبصار ، وأن يقف أهل الإسلام والإيمان بمطالعتها على المعتقدات الفاسدة لأرباب الضلالة ؛ فيجتنبوا تلك الخرافات ، و يقوموا بأداء وظائف الشكر على نعمة الهداية ونور الإيمان اللذين هما خير ما فى الألطاف الربانية والكرامات : « والله تعالى هو المستعان وعليه الإعانة والتكلان » .

بعد أن قدمت أنا عبد الدولة هذه المقدمات التى تعبر عن قصورى والتمهيد لعذرى وعذر غيرى من المؤرخين ، وذكرتها فى مقدمة كتاب « جامع التواريخ » عرضت الكتاب على الحضرة ، فلما شرف الكتاب بمطالعة السلطان شملنى هذا بعطفه وإنعامه وصرح قائلا : « كل ما كتبه المؤرخون قبل هذا الكتاب يمكن أن يكون فيه زيادة ونقصان فى هذا الموضوع . وماذكرته أنت كان مبررا لعذرهم ، كما أنك تكون معذورا فى كل وقت . وإن ما كتبته عن أهم الوقائع منذ عهد جنكيزخان حتى الآن ،

وماذكرته عن شرح شعب القبائل كان غاية الجميع ، وقد أفادنا فائدة كبيرة ، وكله صحيح وصادق ، ولا يستطيع أحد الاعتراض عليه ، ولم يقدر مؤرخ آخر على أن يكتب تاريخاً مثله . وإن الأشخاص الذين وقفوا بأنفسهم على هذه الحكايات ، وعلى كل جزء من أجزاء هذا الكتاب قد اتفقوا على هذه الحقيقة ولم يستطيعوا إنكارها. كما أنه لم يكتب شخص قط أصح ولا أضبط ولا أوضح من هذا التاريخ » .

ص ٥٠

وحيث أن الكتاب قد حاز القبول والمدح على هذا النحو فى حضرة سلطان الإسلام ــ خلد الله سلطانه ــ فقد شكرت الحق تعالى .

وإذا كنت قد اعترفت بتقصيرى وعجزى فى جميع أبواب الكتاب ، ومع هذا نال الإعجاب فى حضرة السلطان ، وشمله بعين القبول والرضا،فكيف أستطيع أن أشكر الله على هذه النعمة . أعاد الله تعالى نفعه على جميع المستفيدين والناظرين فيه بمنه وكرمه ، وأدام بظل رحمته هذا السلطان الرؤوف بعبده.

فهرست هذا الكتاب المسمى جامع التواريخ
والموضوع على ثلاثة مجلدات

المجلد الأول : الذى أمر بإتمامه فى هذا الوقت شاهنشاه الإسلام السعيد أولجايتو ـ خلد سلطانه ـ على أن يظل مقدما باسم أخيه السلطان غازان خان ـ أنار الله برهانه ـ هذا المجلد يشتمل على بابين :

الباب الأول : فى بيان الحكايات المتعلقة بظهور أقوام الأتراك ، وكيفية انشعابهم إلى قبائل مختلفة ، وشرح حال آباء وأجداد كل قوم منهم بصورة مجملة ، ويشتمل هذا الباب على ديباجة وأربعة فصول :

الديباجة : فى ذكر حدود مواضع الأتراك ، وتفصيل أسماء وألقاب كل شعبة مما عرف عن هؤلاء القوم .

وأما الفصول : ففى شرح أحوال هؤلاء القوم المذكورين وهى على هذا الترتيب :

الفصل الأول : فى ذكر حكايات أقوام الأوغوز [1] الذى كان حفيدا

ص ٥٢

(١) يريد مؤرخنا بأقوام الأوغوز تلك الشعوب التركية المختلفة التى تقرر الروايات أنها تحدرإما من ذلك الملك القديم ، أو من بين أقاربه وحلفائه الذين هبوا لنجدته بسلاحهم ، وتشمل هذه التسمية الأويغور والقبچاق والقليج والخرلجية والقرلق والأغاجرية . (كاترمير ص ٥٢) .

لأبو بجه خان المسمى يافث بن نوح عليه السلام ، وتاريخ الأقوام الذين كانوا معه من أعمامه .

الفصل الثانى : فى ذكر أقوام الأتراك الذين يطلق عليهم المغول ، لكن فى قديم الأيام كان لكل قوم منهم اسم ولقب خاص ، كما كان لكل رئيس وأمير .

الفصل الثالث : فى ذكر أقوام الأتراك الذين كان لكل منهم ملك ورئيس على حدة ، ولكنهم لم يكونوا على صلة قرابة بالأقوام الذين سبق ذكرهم فى الفصل الثانى .

الفصل الرابع : فى ذكر أقوام الأتراك الذين كانوا يلقبون قديما بالمغول وهذا الفصل ينقسم بدوره إلى قسمين : ص ٥٤

القسم الأول : فى ذكر مغول دِرْلكين .

القسم الثانى : فى ذكر مغول نيرون .

الباب الثانى : فى بيان حكم ملوك المغول والأتراك وغيرهم ويشتمل على فصلين :

الفصل الأول : فى بيان تاريخ آباء چنگيزخان وأجداده ، وحكاياتهم وشرح أحوالهم . وهذا الفصل يشتمل على تواريخ عشرة أشخاص :

(١) تاريخ دويون بايان.

(٢) تاريخ ألانقوا وأولاده الثلاثة .

(٣) تاريخ بُوذِنجِر بن ألانقوا .

(٤) تاريخ دُوتُومِنِنْ بن بُوذِنجِر .

(٥) تاريخ قايدوخان بن دُوتُومِنِن .

(٦) تاريخ سنكقور بن قايدوخان .

(٧) تاريخ تُومِنِه خان بن سنكقور .

(٨) تاريخ قَبْلْ خان بن سنكقور

(٩) تاريخ بِرْتَان بهادر بن قبْلْ خان

(١٠) تاريخ ييسوكا بهادر بن برتان بهادر .

الفصل الثانى : فى تاريخ چنگيزخان وأبنائه وأحفاده المشهورين الذين نصب بعضهم سلاطين ، وأعطوا لقب « خاقان » فى كل عهد ، بينهما لم يصل البعض الآخر إلى مناصب الحكم . مع ذكر مجمل لتاريخ ملوك العالم الذين كانوا يعاصرونهم حتى هذا الوقت .

١ ـ تاريخ چنگيزخان بن ييسوكا بهادر .

٢ ـ تاريخ أوكتاى قاآن الابن الثالث لچنگيزخان وولى عهده .

٣ ـ تاريخ چوچى خان الابن الأكبر لچنگيزخان وأسرته .

٤ ـ تاريخ چغتاى خان الابن الثانى لچنگيزخان وأسرته .

٥ – تاريخ تولوى خان الابن الرابع لچنگيزخان ووارث أملاكهم .

ص ٥٦

٦ – تاريخ كيوك خان الابن الأكبر لاوگتاى قاآن والذى اختير شاهنشاها بعد أبيه .

٧ – تاريخ منگوقا آن الابن الأكبر لتولوى والذى صار شاهنشاها بعد كيوك .

٨ – تاريخ قوبيلاى قاآن بن تولوى خان الذى تولى عرش المغول بعد منگوقا آن .

٩ – تاريخ تيمور قاآن حفيد قوبيلاى قاآن والذى كان ملكا فى ذلك الوقت .

١٠ – تاريخ هولاگو خان الابن الثالث لتولوى خان والذى صار ملكا لإيران .

١١ – تاريخ آباقا خان الابن الأكبر لهولاگو خان الذى تولى العرش بعد أبيه .

١٢ – تاريخ تكودار أحمد بن هولاگو خان الذى صار ملكا بعد أخيه آباقا خان .

١٣ – تاريخ أرغون خان الابن الأكبر لآباقا خان الذى تولى العرش بعد أحمد .

١٤ – تاريخ گيخاتو خان بن آباقا خان الذى صار ملكا بعد أرغون خان .

١٥ ـ تاريخ السلطان غازان خان الابن الأكبر لأرغون خان والذى تولى العرش بعد گيخاتوخان .

١٦ ـ تاريخ الجلوس المبارك لسلطان الإسلام أولجايتو ـ خلد الله ملكه وسلطانه ـ

المجلد الثانى : الذى أمر بتأليفه شاهنشاه الإسلام السلطان أولجايتو ـ خلد ملكه ـ وكتب باسمه ، وهو يشتمل على بابين :

الباب الأول[1] : فى تاريخ سلطان الإسلام من ولادته حتى زمن تأليف هذا الكتاب (فى سنة ٧٠٦)[2] ص ٢٨

الباب الثانى : وينقسم قسمين :

القسم الأول : يشتمل على فصلين :

الفصل الأول : فى مجمل تاريخ كافة الأنبياء والخلفاء والسلاطين ، وسائر طبقات الناس وأصنافهم من عهد آدم عليه السلام حتى هذا الوقت يعنى سنة سبعمائة هجرية وذلك على سبيل الإيجاز والاختصار .

الفصل الثانى : فى تفصيل تاريخ كل قوم من أقوام أهل العالم الذين يقطنون الربع المسكون على اختلاف أجناسهم وطبقاتهم وأصنافهم . ورغم أن

(١) هذا الباب محذوف من جميع النسخ الخطية ، ويرجح أن يكون قد ضاع عقب الإغارة على الربع الرشيدى بعد قتل رشيد الدين . (المترجم)
(٢) انظر مقال Browne فى J R A S. عام ١٩٠٨ ص ٢٢ .

بعض هذه الروايات قد ورد مفصلا ومجملا فى التواريخ السابقة ، فإن أغلبها لم يسبق ذكرها. وإذا فلايفهم مطلوبها إذا بحثت تلك التواريخ . والبعض الآخر من التاريخ لم يحصل عليه مؤرخو هذه البلاد فى عهود الملوك السابقين ، ولم يستطيعوا الوقوف على حقائق الأحوال ، حتى جاء هذا العهد المبارك فكتب المؤلف بناء على إشارة السلطان ذلك التاريخ على هذا النحو من التفصيل والترتيب المبين هنا وحصل معلوماته من موجز كتب كل قوم ، ومن أفواه العلماء لكل طائفة بعد أن قام بقدر المستطاع بتحقيقها وتمحيصها .

القسم الثانى :فى ذكر التاريخ المبارك لسلطان الإسلام أولجايتو خلد الله ملكه منذ الوقت الذى تم فيه تأليف هذا المجلد فى سنة (٧٠٦)[١] إلى سنوات عديدة غير متناهية ، والتى سوف تكون عمر ذلك السلطان . وهذا القسم الأخير يكتبه المؤرخون الذين يلازمون السلطان ويجعلونه ذيلا لهذا المجلد الثانى .

المجلد الثالث[٢] : فى بيان صور الأقاليم ومسالك الممالك .

ص ٦٠

وفى هذا المجلد أثبت المؤلف بعد تتبع وتحقيق — كل ما سبق معرفته عن هذه الممالك ، وما شرح فى الدفاتر ، وما أعد من خرائط وصور . وأضاف إليه كل ما وجده فى هذا العهد المبارك فى كتب الحكماء والعلماء من الهند والصين والماچين وبلاد الإفرنج بعد أن قاموا بتحقيقها وتقريرها.

---

(١) انظر Browne فى J R A S. ، يناير ١٩٠٨ ص ٢٠ .

(٢) هذا المجلد مفقود من النسخ الخطية وربما كان مجرد فكرة لم تخرج إلى حيز التنفيذ.. وإذا كان قد ألف بالفعل فيحتمل أن يكون قد ضاع عقب الإغارة على الربع الرشيدى .

ذكر تأليف الكتاب الموسوم بالتاريخ الغازانى (1)

لا يخفى على أرباب الفطنة والكياسة ، وأصحاب الروية والفراسة ، أن التاريخ عبارة عن ضبط وترتيب كل حالة غريبة ، وحادثة عجيبة يتفق وجودها نادرا ، وتثبت فى متون الدفاتر و بطون الأوراق .

ويسمى الحكماء ابتداء تلك الحادثة « تاريخا » (2) ، و بواسطته يعرفون كمية الزمان ومقداره . و بناء على هذا المعنى يعين تاريخ ابتداء كل ملة ، وأول كل دولة . وأية حادثة أو قضية ، كانت أعظم فى هذا الزمان من ظهور دولة جنكيزخان حتى يمكن اعتباره تاريخا ! إذ أنه فى فترة قصيرة ، سخر بلاداً ص ٦٢

(1) فى الأصل مقدمة سابقة على هذه التى نجدها هنا . وقد حذفها كاترمير من نسخته لعدم جدواها ، فهى تدور حول الدعاء ، وذكر إبراهيم والإسلام ، ومديح ملؤه المبالغة للسلطان غازان .

(2) يذكر كاترمير فقرة من « الآثار » للبيرونى يعرف فيها اصطلاح التاريخ بقوله :

« التواريخ هى مدة معلومة تعد من لدن أول سنة ماضية كان فيها مبعث نبى بآيات وبرهان ، أو قيام ملك مسلط عظيم الشأن ، أو هلاك أمة بطوفان عام مخرب ، أو زلزلة وخسف مبيد ، أو وباء مهلك ، أو قحط مستأصل ، أو انتقال دولة ، أو تبدل ملة ، أو حادثة عظيمة من الآيات السماوية ، والعلامات المشهورة الأرضية التى لاتحدث إلا فى دهور متطاولة وأزمنة متراخية ، تعرف بها الأوقات المحددة فلا غنى عنها فى جميع الأحوال الدنياوية والدينية . ولكل واحدة من الأمم المتفرقة فى الأقاليم تاريخ على حدة تعدها من الأزمنة ، أزمنة ملوكهم أو أنبيائهم أو دولهم أو سبب من الأسباب التى قدمت ذكرها ، ويستخرج بها مايحتاج إليه فى المعاملات ومعرفة الأوقات وتنفرد به دون غيره » .

كاترمير ص ٦٠ .

كثيرة من ممالك العالم برأيه الثاقب ، وتدبيره الصائب ، وكمال كياسته ، وفرط سياسته ، وقمع طائفة المفسدين الذين كان كل واحد منهم « فرعونا » فى الطبيعة ، « ضَحَّاكاً » [1] فى السيرة ، ينادى من فرط غروره : « أنا ولا غيرى » ، فداسهم بأقدام بطشه ، وأسلمهم إلى الفناء ، و بذلك جعل العالم على وجه واحد ، والقلوب على رأى واحد ، ونظف بيضة المملكة ، وحوزة السلطنة ، من تصرف المتغلبين الجائرين ، وظلم المتعدين المتجبرين ، وأورثها أولاده المشهورين ، وأحفاده العظام ، وبايعهم سعود الأفلاك على الدوام والاستمرار .

ص ٦٤ وكان من رسم الحكماء وعادة العلماء ، أنهم يؤرخون معظمات الوقائع خيرها وشرها فى كل زمان ، حتى يعتبر بها أخلافهم وأعقابهم ، إن كانوا من أولى الأبصار ، و يعلموا أحوال القرون الماضية فتفيدهم فى أدوار المستقبل . و بواسطة التاريخ كذلك يبقى ذكر الملوك المشهورين ، والأكاسرة المظفرين مؤيدا ومخلدا على صفحات الدهر ؛ لأن الوقائع والحوادث تندرس وتنطمس على مرور الشهور وامتداد الأعوام والدهور .

شعر :

« إن كر الأعوام فى دورانه ،

يمحو ما سطر من التاريخ »

---

(١) يشير بذلك إلى الضحاك الذى يمثل فى الأساطير الفارسية الشخصية التى اجتمعت فيها كل أنواع الشرور ، والذى قضى على الملك جمشيد ، واستولى على ملكه ، وحكم ايران إلى أن ثار عليه الفرس ، وولوا بدله افريدون بعد ثورة كاوه المشهورة .

والدليل على صدق هذا المعنى ، هو أنه قد توفر للسلطان محمود الغزنوى من الممالك العديدة العريضة ، والحشمة المستفيضة ، والنعم الوافرة ، والأموال التى لا حصر لها ، والخزاين الجمة ، والدفائن الكثيرة ، وأسباب السعادة والنعيم فى هذه الدنيا ، مالم يتوفر لغيره من سلاطين إيران ، ومع هذا لم يبق بعده من هذه الأسباب والأموال ، غير الذكر الجميل الذى تبقى فى نظم العنصرى [١] والفردوسى [٢] ، وفى كلام العتبى [٣] .

شعر :

ص ٦٦

ـ « إن آثار محمود الغزنوى وحسن سيرته ،

إنما بقيت فى الدنيا مسجلة فى الأشعار » .

ومن هنا صار معلوما أن أهل الأدب والمؤرخين ، هم أكبر وخير الداعين للسلاطين .

---

(١) هو أبو القاسم حسن بن أحمد العنصرى البلخى . نال شهرة كبيرة فى عهد السلطان محمود الغزنوى حتى لقب بلقب ملك الشعراء . يعد العنصرى من أعظم شعراء القصائد فى الأدب الفارسى . توفى فى سنة ٤٣١ هـ .

(٢) هو أبو القاسم حسن بن اسحاق الفردوسى . ولد فى المدة مابين سنة ٣٢٣-٣٢٩ - ويقال إنه نظم الشاهنامه فى حدود سنة ٣٧٠ وأتمها فى سنة ٤٠٠ وقدمها باسم السلطان محمود الغزنوى . تعد الشاهنامه التى اشتملت على قصص الملوك والأمراء والأبطال الإيرانيين منذ أقدم العصور حتى الفتح العربى أثرا خالدا فى اللغة الفارسية .

(٣) المقصود أبو نصر محمد بن عبد الجبار العتبى الرازى (٣٥٠ ـ ٤٢٧) المؤرخ المعروف فى العصر الغزنوى . ألف كتاب « اليمينى » أو « سيرة اليمينى » المشتمل على تاريخ سبكتكين وابنه محمود حتى وقائع سنة ٤١١ هـ .

وحيث إن الأقوام الموسومين باسم الترك ، مقامهم وسكنهم فى البلاد البعيدة ، التى طولها وعرضها من ابتـداء طرف ماء جيحون وسيحون ، إلى انتهـاء حدود بلاد الشرق ، وانتهاء صحراء القبچاق إلى غاية نواحى جورجية والخطا ، وفى تلك المواضع هم يسكنون الجبال والوهاد والآجام ، ولم يعتـادوا السكنى فى القرى والمدن . وحيث إنهم كانوا بعيدين عن بلاد إيران ، فإنه لم يأت فى تواريخ المتقدمين من أحوالهم ذكر مفصل . نعم قد ورد فى بعض الـكتب شىء يسير من ذكرهم ، ولـكنهم لم يجدوا من أرباب الخبرة أحدا يحقق أخبارهم ، ويتناول آثارهم وحكاياتهم كما ينبغى بالشرح والتفصيل .

ص ٦٨

ومع أن الأتراك والمغول وشعبهم يتشابهون ، وأطلق عليهم فى الأصل لقب واحد ؛ فإن المغول صنف من الأتراك ، وبينهم تفاوت واختلاف شاسع كما سيجىء شرح كل ذلك فى مواضعه . وهذا الاختلاف أيضاً إنما وقع بسبب أن تواريخهم لم تحقق فى هذه الديار .

ص ٧٠

وحينما وصلت نوبة الخانية وملك العالم إلى چنـگيزخان وأولاده العظام ، وخلفائه المشهورين ، وانقادلهم أهل الممالك جميعها فى الربع المسكون من بلاد الصين والماچين والخطا والهند والسند وما وراء النهر وتركستان والشام والروم والآس [1] والروس والجركس والقبچاق والـكلار والباشقرد ، تلك الرقعة الممتدة على سبيل الإجمال من الشرق إلى الغرب ، ومن الشمال إلى الجنوب .

(١) الآس ويعرفون عند بعض الـكتاب بالآلان والاوسيت . وتـكتب الـكلمة أحيانا بالصاد فيقال الآص .

وقد أورد بعض علماء العصر وأفاضل الدهر فى سابق الأيام ، شيئا عن أحوال تسخير الممالك وفتح القلاع ، وتنفيذ أوامر چنگيزخان وأولاده ، ولكنه كان خلاف الواقع ، وخلاف مايعتقده أمراء المغول . ويرجع سبب ذلك إلى عدم وقوف هؤلاء العلماء على كيفية الأمور والأحوال ، وقلة معرفتهم لعظائم الوقائع وجلائل الحوادث لتلك الدولة .

ص ٧٢ ص ٧٤

ولكن وجد فى خزائن أمراء المغول ، تاريخ صحيح يحوى أخبارهم عهدا بعهد ، وهو مكتوب بالخط المغولى ، إلا أنه لم يكن مرتبا بل كان فصولا مبتورة حافظوا عليها ، وأخفوها عن أعين الأغيار والأخيار ، ولم يمكنوا كل واحد من الاطلاع عليها حتى هذا الوقت الذى تشرف فيه تاج السلطنة وعرش المملكة لبلاد إيران — اللذان كانا موضع غبطة جميع ملوك العالم — بوجود سلطان الإسلام محمود غازان خان — خلد ملكه — فالتفت خاطره المبارك لفرط مارزقه من علو الهمة و بعد النظر — إلى ترتيب تلك الأجزاء وتدوينها ، وكلفنى أنا عبد هذه الدولة الإيلخانية ، والمعتصم بعون العناية الربانية ، مؤلف هذا التاريخ فضل الله بن أبى الخير الهمدانى ، الملقب بالرشيد الطبيب — أصلح الله شانه ، ووقاه عما شانه — أن أكتب تواريخ أصل المغول ، ونسب سائر الأتراك الذين يشبهون المغول ؛ وذلك فصلا بعد فصل ، وأرتب تلك الروايات والحكايات التى تتعلق بهم ، مما كان موجودا فى خزائنهم المعمورة ، ومما وجدته عند بعض الأمراء والمقربين إلى الحضرة .

وحتى هذا الوقت لم يكن أحد قد جمع هذه المعلومات ، ولا تيسرت له سعادة هذا التصنيف ، وشرف هذا التأليف . فكل مؤرخ كان يكتب شطرا من ذلك عن غير معرفة بحقيقة الحال ، بل سمعه من أفواه العوام ، ونقله على وجه وافق طبعه واقتضاه رأيه ، ولم يحققه ويتيقن صحته أحد .

ص ٧٠٨

أما أنا فإنى أورد عرائس الأبكار ، ونفائس الأفكار ، وأوثق الأخبار والآثار ، التى بقيت محجوبة فى أستار الكتمان حتى هذا الأوان ، وذلك بعد المبالغة فى تصحيحها وتنقيحها ، والدقة والإتقان فى ترتيبها وتدوينها ، بلفظ مهذب منسق ؛ فأجلوها بذلك لأعين النظار على منصة الإظهار .

وإن ماأجمله هذا الكتاب أو فصّله مما لم يكن مذكورا فى غيره ، قد استقيته من علماء الخطا وحكمائهم ، ومن علماء الهند والأويغور والقبچاق وغيرهم من الأقوام والأعيان ، الممثلين لجميع الطوائف الذين كانوا يلازمون الحضرة الشريفة العالية ؛ خصوصا من خدمة الأمير الأعظم ، « والنويان » (١) المعظم ، قائد جيوش إيران وتوران ، مدبر ممالك العالم «پولادچينگسانگ» (٢)

---

(١) نويان أو نوين كلمة مغولية معناها « رئيس تومان » أى رئيس فرقة مكونة من عشرة آلاف رجل (انظر كاترمير ، ص ٧٦) . وقال القلقشندى فى كتابه صبح الأعشى ، ج ٤ ص ٤٢٣ : « أما الأمراء فقد ذكر فى مسالك الأبصار أنهم عندهم على أربع طبقات: أعلاها النوين ، وهو أمير عشرة آلاف ، ويعبر عنه « بأمير تومان » . إذ التومان عندهم عبارة عن عشرة آلاف . ثم أمير ألف ، ثم أمير مائة ، ثم أمير عشرة » .

(٢) پولاد چينگسانگ رجل يتمتع بشهرة كبيرة لدى المغول . وكثيرا مايرد ذكره فى كتاب رشيد الدين ، ويوصف بمعارفه الواسعة وإحاطته التامة بتاريخ المغول ، فلا غرو أن كان أحد المصادر الهامة التى اعتمد عليها رشيد الدين فى تأليف كتابه جامع التواريخ . =

ص ٧٨ دام معظما ؛ فهو الذى لم يوجد مثله فى بسيط الربع المسكون فى أنواع الفضائل المختلفة، وفى معرفة الأنساب لأقوام الأتراك وتواريخ أحوالهم ؛ خصوصا تاريخ المغول. واقتبست أيضا من كتب التواريخ الاصطلاحات المتعارف عليها ، وذلك حتى يكون كتابى من أوله إلى آخره، مفهوما ومعلوما للخواص والعوام. و بذلك تبقى نوادر الأحوال ، وتصان معظمات الوقائع والحوادث التى حدثت فى عهد دولة المغول، فلا تنطمس بمرور الأيام ، ولا تندرس بامتداد الشهور والأعوام، ولا تبقى محجوبة فى ستار الاختفاء ؛ إذ أنه فى هذا العهد لم يكن كل شخص واقفا على تلك الأمور ، و بمضى الزمن ينسى الشباب من أبناء الأمراء أسماء الآباء وأنساب الأجداد والأعمام والأخوال ، ويغفلون عن مجريات الأحوال ووقوع الحوادث التى بعد بها العهد . وكيف يجوز لأولاد العظماء وأعقابهم من كل قوم ، ألا يكونوا مطلعين على مجارى أحوال الآباء، وذكر أنسابهم وأسمائهم لاسيما أولئك الذين خصهم الحق تعالى بأنواع العناية ، وجعل التوفيق حليفا لأغلب ماقاموا

= ويقرر مؤرخنا أن الأمير پولاد آقا ينتسب إلى قبيلة مغولية من « دوربان » ، وكان أبوه الذى يدعى « بورکی » يشتغل طاهيا (پاروجى) عند جنكيزخان ، وكان ملحقا بقصر « بورتاج قودجين » محظية جنكيز وتحت إمرته كتيبة مؤلفة من مائة رجل ، وهذه بدورها تؤلف فرقة من الكتيبة المكونة من ألف رجل (هزاره) الخاصة بالخان .
وكان پولاد ملحقا بخدمة الخان الأعظم « قوبيلاى ويجمع بين لقب چينكسانك ولقب پاروجى (أى طاه) ثم أرسل سفيرا الى إيران من قبل قوبيلاى حيث أقام زمنا طويلا . وكان أميرا ذا صفات عالية ، كما كان يتمتع بشهرة لاحد لها . وقد وصل إلى بلاط المغول فى فارس فى بداية حكم أرغون خان ، ونراه فى سنة ٧٠٢ من الهجرة يبلغ غازان خان حديثا طويلا متزنا عن ماهية السلوك السياسى . وقد مات فى سنة ٧١٢ فى مدينة أران . (انظر كاترمير ، ص ٧٧) .

ص ٨٠ به من أعمال عظيمة ، ووضع زمام الأمور الصعبة فى قبضة أيديهم وطوع أمرهم ، وجعل تحت سيطرتهم الممالك البعيدة والقريبة التى لم يكن ليقدر عليها فى عهد من العهود الأخرى ـ الملوك الباطشون والسلاطين الجبابرة ، يضاف إلى هذا أن أقوام هذه الممالك لم يسمع عنهم تواريخ متواترة ولا محققة ، ولم تعرف علومهم وثقافاتهم .

وحيث إنه قد أتيحت لأبناء چنكيزخان هذه الدولة وتلك السعادة ، ولما كان العلماء والحكماء والمؤرخون ملازمين للحضرة العليا دائما ، وصار كشف هذه المعانى ميسرا وسهلا ، فكيف يجوز أن يبقى الحال على هذا الوضع معطلا ومهملا ؛ فيذكر كل شخص رواية مجهولة ، ويكتب نكتة فجة . وفى كل آونة لايمكن أن يكون إحياء الذكرى الحسنة للآباء والأجداد، وتجديد ذكر أقوال الأسلاف وأعمالهم بغير سعى الأولاد المنتخبين ، والأحفاد البررة الذين امتازوا واختصوا بالتأييد الربانى والتوفيق الإلهى .

شعر :

ـ بالابن يخلد اسم الأب ،

وتبقى أمنيته .

فلما صدر الأمر المبارك ـ لازال نافذاً ومطاعاً ـ بأن أقوم بإتمام هذا الأمر الهام ، لم أجد مفرا من الامتثال لأمره ، ووقفت كل جهودى وخاطرى وضميرى على معرفة تواريخ المغول ، وروایاتهم وحكاياتهم ، و بذلت فى هذا

السبيل غاية السعى والاجتهـاد . و بعد أن عكفت على مطالعة مضمون تلك
الأجزاء المبعثرة الموجودةفى الخزينة ، قمت بتحقيقها وترتيبها وتبو يبها ، وضممت ص ٨٢
إليها كل ماسمعته بالتفصيل من حكماء الدولة الملازمين للحضرة ، ومن العلماء
والمؤرخين من كل صنف ، وذلك بعد فحصه وتحقيقه . ولـكى تستطيع
الأفهام المختلفة إدراكه بسهولة ؛ فسوف أكتبه بعبارة واضحة فصلا فصلا إن
شاء الله تعالى حتى يقع موقع القبول من تلك الحضرة، فيكون موجباً لإدراكى
السعادة فى الدنيا ، ونيلى كل ما آمله وأتمناه ، والله المستعان .

تاريخ
هولاكوخان

القسم الأول : (١) فى ذكر نسبه . (٢) شرح وتفصيل أحوال نسائه وأبنائه وأحفاده حتى الوقت الذى تشعبوا فيه . (٣) أسماء أصهاره ، وصورته ، وجدول لشعب أبنائه .

القسم الثانى : (١) فى مقدمة جلوسه (٢) صورة تمثل العرش والنساء والأبناء والأحفاد وكذلك الأمراء أثناء جلوسه على عرش المغول (٣) الحكايات التى حدثت فى عهده ، وذكر الحروب التى قام بها فى كل وقت ، والفتوح التى تيسرت له .

القسم الثالث : فى بيان سير أخلاقه الحميدة ، والنصائح والحكم والأمثال التى صرح بها ، والحكايات والحوادث التى وقعت فى عهده ، مما لم يدخل فى القسمين السابقين . وقد جُمعت فى أماكن متفرقة من كتب مختلفة ، وسمعت من كل صنف من الناس .

القسم الأول

من تاريخ هولاكوخان

فى ذكر نسبه وشرح وتفصيل نسائه وأبنائه وأحفاده
حتى الوقت الذى تشعبوا فيه وأسماء أصهاره
وصورته وجدول لشعب أبنائه

ذكر نسبه الرفيع

ص ٨٦ هولاكوخان هو الابن الرابع لتولوى خان (الابن الرابع لچنگيزخان) ، وأمه هى سِيُورْقُوقِيتِى بيكى، ابنة جاكَمْبُو أخى أونك خان ملك أقوام « كرايت » . وكان اسم جاكمبو الحقيقى « كِهْ بِدَاى » . وعند ما نزل فى ولاية تنكقوت ، واحتل هناك منزلة سامية ، أعطاه ملوك « تنكقوت » لقب « جاكمبو » يعنى ص ٨٨ الأمير المعظم والكبير فى المملكة . ولما كانت الصداقة تقوم بين چنگيزخان وبين أونك خان ، وتربطهما الصلات الروحية التى توجد بين الوالد وابنه ، فقد طلب أن يزوج ابنيه من ابنتى أخى أونك خان ؛ فكانت بيكسوتمش لابنه « چوچى » ، وكانت سيورقوقيتى لابنه الآخر « تولوى خان » . وقد أعقب ص ٩٠ منها تولوى خمسة أولاد و بنتاً واحدة، كما ذكر فى تاريخه . وتزوج چنگيزخان نفسه من ابنة أخرى لجاكمبو اسمها « ابغَه بيكى » ، ولكنه ذات ليلة رأى حلماً فوهبها على الفور « لِكِهْتى نويان » .

ص ٩٢

شرح وتفصيل أحوال نسائه

كان لهولاكو خان نساء وسرارى كثيرات ؛ منهن المشهورات اللائى وصلن إليه من أبيه بحكم الياسا (القانون) ، أو اللاتى تزوجهن بنفسه . ونحن نفصل أسماءهن على هذا النحو :

امرأته العظمى « دوقوز خاتون » من الأصل العريق لقبيلة « كرايت » وهى ابنة ايقُو بن اونك خان . ولما كانت زوجة أبيه ، فإنها كانت مفضلة على نسائه الأخريات [1] ، رغم أنه تزوج منهن قبلها ، ولم يتخذها زوجة له إلا بعد أن عبر نهر جيحون ، ولم يكن تولوى خان قد دخل بها . وكانت دوقوز خاتون تتمتع بمنزلة كبيرة ، كما كانت قوية الشخصية . ولما كانت من أقوام « كرايت » الذين كانوا مسيحيين فى الأصل ؛

ص ٩٤

فإنها كانت تعمل دائما على مؤازرة المسيحيين . وفى عهدها قوى حال تلك الطائفة ، وكان هولاكو خان يرعاهم و يعزهم إرضاء لها . وقد بلغ بهم الأمر ، أنهم كانوا يقيمون الكنائس فى جميع الممالك ، كما أقيمت كنيسة مخيم أوردو) [2] دوقوز خاتون دقوا فيها النواقيس . وكانت وفاتها بعد وفاة

---

(١) كان من عادة المغول ولا سيما الأمراء ، أنه إذا مات أحدهم ، أصبحت زوجاته ميراثا لابنه الأكبر الذى يصبح له عليهن سلطة مطلقة ، فيتزوج منهن من يشاء باستثناء أمه ، ويطرد منهن من يشاء ، أو يزوجهن من الآخرين (انظر كاترمير ، ص ٩٢) .

(٢) الكلمة بمعنى الخيمة أو القصر أو المعسكر .

هولاكو بأربعة شهور وأحد عشر يوما وقبل جلوس آباقاخان . وسيأتى ذكر هـــذا التاريخ فى موضعه . وقد منح آباقا خان قصرها لبنت أخيه « توقيتى خاتون »[1] التى كانت محظية لهولاكو خان ، وكان يتصل بذلك القصر ، ويحافظ على الرسوم والتقاليد ، على نحو ماسيجىء فى تاريخ آباقا خان . وقد توفيت فى يوم الاثنين الثانى من شهر « ايكندى » من سنة لو (التنين) ، الموافق آخر صفر سنة إحدى وتسعين وستمائة، فأعطى قصرها إلى « كوكاجى خاتون » التى أُحضرت من بلاط الخان . وكان يعظمها لأنها كانت تمت بصلة القربى إلى بولغان خاتون . وقد توفيت كوكاجى خاتون ، التى تزوجت من سلطان الإسلام غازان، فى شهر شعبان سنة خمس وتسعين وستمائة ، فأعطى قصرها إلى « كرامون خاتون »[2]، التى توفيت أيضا فجأة فى مشتى « هولان موران » على حدود « سراى حُومه »[3] ، فى يوم السبت ١٢ جمادى الآخرة سنة ٧٠٣ ، وقد تزوج الآن سلطان الإسلام عوضا عنها قتلغ شاه خاتون ابنة

ص ٩٦

---

(١) هى بنت أخت دوقوز خاتون .

(٢) هى بنت قتلق تيمور وزوجة غازان .

(٣) النهر الذى يسميه المغول بنهر هولان موران ، والمكان الذى يسمونه « سراى حومه » ، يشار إليهما مرارا عديدة فى كتاب مؤلفنا ؛ فنجده يتكلم عن « سراى حومه » و « سا كورلك » مع بعض صواحى همدان . وفى مكان آخر يتكلم عن شواطىء نهر « هولان موران » . بعد ذلك تقرأ له أن سكان هولان موران سموا باسم « الجايتوموق » ، وأن حصن « جوق » كان على بعد مرحلة من « سراى حومه » . وأخيرا نراه يتكلم عن سكان يسمون الجايتو موق ويقيمون على شاطىء هولان موران . ويقول إنهم هم الذين سبق ذكرهم . ويبدو أن هذا المكان الذى لم أجد عنه أى تفاصيل أخرى ، غير بعيد من مدينة همدان . (كاترمير ، ص ٩٦) .

ايرينجين بن ساروجه ، الذى كان ابن أخى دوقوز خاتون . ولا يزال هـذا القصر قائما .

زوجة أخرى لهولا كو ، هى « كويك خاتون » ، من أصل ملوك أقوام الأويرات ، وهى ابنة تورالجى كوركان ، وأمها ابنة چنگيز خان التى تدعى « چيْجكان » .

وكانت أولجاى خاتون [1] أيضا ابنة تورالجى ، ولكنها من أم أخرى . وكويك خاتون هى أول زوجة اتخذها هولا كو فى ولاية منغوليا . زوجة أخرى تزوجها هولا كو، هى « قوتوى خاتون » ابنة . . . . [2] من أصل ملوك أقوام القنقرات ، تزوجها بعد أن توفيت كُويك خاتون فى ولاية منغوليا ، ومنحها مخيمها . زوجة أخرى له هى أولجاى بنت « بورالجى كوركان » ، من أصل ملوك أقوام الأويرات ، وهذه تزوجها أيضا فى منغوليا . كذلك كان لهولا كو زوجة اسمها « سونجين خاتون » من قوم سِلْدُوس، وقد تزوجها أيضا فى ولاية منغوليا ، وكانت تقيم فى مخيم « قوتوى خاتون » ، و بقيت فى بلاد المغول إلى أن جاءت معه إلى إيران .

---

(١) المترجم : كانت زوجة لهولا كو أيضاوأما لابنه منكو تيمور ، وبعد وفاة هولا كو آلت إلى ابنه آباقا خان حسب عادة المغول الذميمة (انظر جها نگشاى ، ج ١ ص م من المقدمة) .

(٢) هذه الكلمة ساقطة من المتن .

ذكر شعب أبنائه وأحفاده

ص ٩٨

كان لهولاكوخان أربعة عشر ولدا وسبع بنات ، نذكر أسماءهم مع شرح مختصر لأحوال كل منهم ، وإيراد أسماء أحفاده منذ انشعابهم حتى اليوم .

آباقاخان هو الابن الأكبر لهولاكوخان ، وأمه « سونجين خاتون » كانت تقيم فى منغوليا ، ثم قدمت مع أبيه إلى إيران . وكان آباقا مميزا على جملة إخوته الكبير منهم والصغير . وإذ ولى العهد ، وعين قائم مقام أبيه ، فقد أصبح وارثا للعرش والملك والرعية والجيش .

الابن الثانى لهولاكو هو « جومقور »[1] وأمه كويك خاتون ، وقد ولد فى ولاية منغوليا بعد شهر من ولادة آباقاخان . وعندما شخص هولاكوخان إلى إيران ، ترك هذا الأمير الصغير مع حراسه فى خدمة « منكوقاآن » ، كما أن المخيمات الأخرى التى كان قد أحضرها معه ، تركها فى ولاية تركستان ، بالقرب من مدينة « ألماليق »[2] وحينما دب الخلاف بين « أريق بوكا » و« قوبيلاى قاآن» ، كان جومقور فى معسكرات منكو قاآن ، كما كان هناك أيضا أريق بوكا ، بينما كان قوبيلاى بعيدا عنها ، فوجد جومقور ضرورة فى أن يقف إلى جانب أريق بوكا. ولهذا السبب تحالف معه، وحارب جيش قوبيلاى

ص ٩٠٠

(١) ذكر فى « جهانگشا » جومغار أوغول . كاترمير ص، ٩٨

(٢) تكتب أيضا « الماليغ » ، مدينة كانت تقع بالقرب من مدينة كولجه الحالية ، على شاطىء نهر ايلى ، الذى يصب فى بحيرة بالكاش، الواقعة فى ولاية تين چان پلو فى الصين. الغربية (للحصول على معلومات مفصلة ، انظر حواشى بلوشيه على جامع التواريخ، ص ٤١٠–٤١١) .

بعد ذلك أعلن أريق بوكا الحرب على آلغو وهزمه ، فتخلف عنه جومقور معتذرا بمرضه فى أطراف سمرقند ، لأن آباقاخان لم يكن راضيا عن موقفه العدائى من قوبيلاى ، فأرسل إليه رسالة يأمره فيها بالكف عن مناصرة أريق بوكا . ومن هناك انضم إلى « قوتوى » ، ثم توجه ليكون فى خدمة أبيه ، ولكنه مات فى الطريق كما سيأتى شرح هذا فى موضعه . وكانت له زوجتان : أكبرهما « تولون خاتون » ابنة بوقاتيمور ، الذى كان أخا لكويك خاتون ، وثانيتهما « جاورجى خاتون » الأخت الكبرى لبولغان خاتون الأميرة الكبيرة ، ولها ولدان بهذا الترتيب جوشكاب وكينكشو . وبعد موت جاورجى خاتون [(١)] ...

وكان لجومقور بنتان أكبرهما « اورغوتاق » من تولون خاتون . وقد تزوجت من شادى كوركان بن سونجاق ، وأنجبت منه أولادا كثيرين من بينهم ولد اسمه جيشْ وبنتان إحداهما كُونْجِشْكاب التى تزوجت من ملك الإسلام (أولجايتوخان) ـ خلد ملكه ـ وثانيتهما « طوقوجاق » [(٢)] ولدت من محظية تدعى اياقتاغ ، تزوجها السلطان أحمد عندما اعتلى العرش ، ووضع على رأسها طرحة (البُقْتَاق) [(٣)] .

ص ١٠٣

---

(١) هنا نقص فى المتن الأصلى .

(٢) ذكر فيما بعد باسم طوقا جاق .

(٣) يكتب هذا اللفظ المغولى بعدة أشكال: بغتاق أو بوقتاق أو بوغتاق أو بجتاق ، وأتى يعنى قلنسوة ترصع بالجواهر ، وتلبسها سيدات المغول العريقات . كاترمير ص ١٠٢ .

الابن الثالث لهولاكو اسمه « يشموت » كانت أمه محظية من قصر (أوردو) « قوتوى خاتون » ، اسمها « بوقاجين إيكجى » من الخطائيين ، وكان لها ثلاثة أولاد على هذا الترتيب الذى نثبته : سوكاى وقرابوقاى ورينو . وقد توفى رينو على شاطئ جغاتو قبل توقيتى خاتون بشهر واحد . أما سوكاى وقرابوقا فقد قتلا لعدم إخلاصهما .

ص ١٠٤

والابن الرابع لهولاكو خان [1] هو « بيسكين » ولد من « قوتوى خاتون » . وقد أصيب بعلة استرخاء المثانة، فقام الأطباء الحاذقون بعلاجه مدة طويلة ، فلم تنجح جهودهم ، وتوفى فى نهاية الأمر .

وبعد وفاة جو مقور ، تزوج من تولون خاتون ، وأعقب منها ولدا اسمه « ساتى » ، كما أنجب منها بنتا اسمها أمينپور .

ولما توفيت اور قوتاق ، زوجوه من « شادى كوركان » . وبعد وفاة هولاكو نفسه ، تزوجها ابنه « عرب » ، ولكنها ماتت قبله تاركة ولدا اسمه . . . [2] .

الابن الخامس لهولاكوخان هو « طرغاى » ، وأمه من محظية هولاكو « بورقجين » ، من مخيم قوتوى خاتون ، فى ولاية منغوليا . وفى الطريق إلى

---

(١) فى النص الذى أخذ عنه كاترمير تولوى خان ، ولكن كاترمير صحح الاسم كما ذكرنا . كاترمير ص ١٠٥

(٢) هذا الاسم ساقط من نسخة الأصل .

إيران،أصابته صاعقة سببت وفاته،بينما وصل إلى إيران أفراد معسكره مع قوتوى.
وكان لطرغاى ابن اسمه بايدو ، حكم عدة أشهر بعد گيخاتوخان . وسوف نذكر صورة هذه الواقعة، كما نذكر الأحداث الأخرى المتعلقة بهذا الأمير فى موضعها .
وكان لبايدو هذا ابن اسمه قپچاق ، قتل مع والده . وأما والدة بايدو فاسمها قراجين .وقد أعقب طرغاى أيضا ابنة اسمها « ايشيل»، تزوجت من توقتيمور ابن عبد الله آقا . و بعد وفاته تزوجت من أخيه ، وهى تعيش حتى الآن .

الابن السادس لهولاگوخان هو « توسين »[1] ، ولد من « بوقاجين » والدة يشموت ، وكان له ابن اسمه « ساتى » .

الابن السابع لهولاگوخان هو أحمد ، وأمه « قوتوى خاتون »[2] ، وكان اسمه فى بادئ الأمر «تاكودار» . وقد تولى العرش بعد آباقا خان ، وفى تاريخه سوف يجئ ذكر أبنائه .

الابن الثامن لهولاگوخان هو « أجاى »، وكانت أمه محظية اسمها « أريقاق ايكاجى » ابنة « تنكر كوركان » ، وكانت فى مخيم « قوتوى خاتون » . ولما جاء هولاگو إلى إيران ، عينها رئيسة لمخيماته . وقد توفيت بعد هولاگو بعشرة أيام، وكان لها ابن اسمه « إيلدر »، قتل فى أوائل عهد سلطان الإسلام غازان خان على حدود بلاد الروم .

---

(١) ذكر هذا الاسم فى مير خوند « روضة الصفا » : تشين أغول . كاترمير ص١٠٦

(٢) فى روضة الصفا : تولى خاتون ، ثم بعدهذا يذكر: قولى خاتون . كاترمير ص١٠٦ـ ١٠٧ .

الابن التاسع لهولاكوخان هو «قونقرتاى»[1] كانت أمه محظية خطائية، اسمها « أُجُوجَه إيكاجى »، من قصر «قوتوى خاتون» .وبعد مدة طويلة، وضعت الطرحة (البوقتاق) على رأسها . وقد طعنت فى السن ، وماتت منذ مدة قصيرة . وكان « لقونقرتاى » هذا ستة أولاد على هذا الترتيب :

١ ـ ايساتيمور أو (ايش تيمور)[2] ٢ ـ ايلداى أو (ايلدر)

٣ ـ جريك تيمور ٤ ـ گراى

٥ ـ طاشتيمور ٦ ـ إشِيغْ تيمور أو (إشق تيمور).

وكان « ايساتيمور » يدعى أيضا « خر بنده » ، وكانت ولادته فى نفس الليلة التى ولد فيها « ايلداى » . وقد قتل الاثنان فى عهد سلطان الإسلام غازان ؛ بسبب ما كان فى قلبيهما من غل . وأما الأولاد الآخرون گراى وجريك تيمور وغيرهما ، فقد ماتوا فى عهد الطفولة .

الابن العاشر لهولاكوخان هو ييسودار ، وكانت أمه محظية من مخيم « قوتوى خاتون »، اسمها « هِسِيجين» أخت أقْرَابيكى من قبيلة « كُورْلوت». وكانت لها ابنة زوجت من إيسينْ بوقا كوركان بن بوقاى يارغوچى[3] . وبعد وفاة قرينها بسنة وشهرين أنجبت ولدا سمى « جِيشْ » ونسب إلى ييسودار .

---

(١) ذكر ميرخوند اسم هذا الأمير هكذا : قونقورباى ، قونقورپاى . وفى كتب أخرى ذكر الاسم : قنقرداى وقونـكغرداى . كاترمير ص ١٠٧ .

(٢) فى روضة الصفا : ايتيمور . كاترمير ص ١٠٧

(٣) يارغو ويرغو كلمة مغولية بمعنى العدل والقانون ، ويارغوچى بمعنى القاضى .

الابن الحادى عشر لهولاكو خان هو منكو تيمور ، ولد من أولجاى خاتون ، وكان له ثلاثة أولاد على هذا الترتيب الذى نذكره : (١) انبارجى وله ولدان غير شقيقين وهما ايسن تيمور وقويجى . (٢) طانجو وله ابن واحد يدعى .... [١] قتل فى عهد غازان بسبب تمرده وعصيانه . (٣) كراى وله ولد واحد أيضا اسمه.... [٢] وقد مات طفلا ، بينما توفى كراى نفسه فى عهد كيخاتو.

وأما بنات منكو تيمور، فقد كن كثيرات، كبراهن الأميرة « كوردجين» أو (كردون جين) ، التى كانت فى بادىء الأمر زوجة لسلطان كرمان جلال الدين « سيورغاتمش » . فلما توفى زوجت من الأمير ساتالميش بن بورالتى . ومن بعده أعطيت لابن عمه طغاى .

وكان لمنكو تيمور ابنة أخرى اسمها (بيان آغا) ، زوجت من الأمير سوتاى أو (موسوتاى) الاختاجى [٣] ، وابنة ثانية اسمها قتلوق ، زوجت من طرقاى كوزكان ، فلما توفى أعطيت لطولاداى إيداجى . وكانت زوجة منكو تيمور المفضلة، هى إيش خاتون بنت الأتابك سعد بن أبى بكر ، أتابك فارس وابنة أخت الأتابك شاه يزد .

ص ١١٠

والابن الثانى عشر لهولاكو خان هو « هولاجو » [٤] ، وكانت أمه محظية

(١) هذا الاسم ساقط من نسخة الأصل .

(٢) هذا الاسم ساقط من نسخة الأصل .

(٣) اختاجى واختاچى كلمة مغولية بمعنى راعى الخيل والقائم على الإسطبل . (انظر تاريخ وصاف ، ص ٦٥٩) . واخته بمعنى الحصان .

(٤) كان هولاجو يتمتع بمنزلة كبيرة لدى المغول . وقد رفض أن يلى عرش المغول فى إيران عندما عرض عليه عقب وفاة آباقاخان (انظر كاترمين ص ١١٠) .

من قصر توقوز خاتون ، اسمها « إيل إيكاجى » من قبيلة قنقرات [1] ، وقد أعقب منها ولدين : (١) سليمان وقد قتل بعـد والده (٢) كوچك وقد توفى على أثر مرضه .

الابن الثالث عشر لهولاكو خان هو سياوجى (أو شيبادجى) ؛ وأمه « إيل إيكاجى » التى كانت أما لهولاجو أيضا . وقد مات سياوجى قبل وفاة أبيه بقليل ، فى نفس الشتاء الذى توفى فيه أبوه .

الابن الرابع عشر لهولاكو خان هو طغاى تيمور ، كانت أمه محظية من قصر قوتوى خاتون ومن قبيلة . . . . [2] ، وكان له ولدان هما « قورمِشى » و « حاجى » .

والآن بعد أن فرغنا من ذكر أسماء وأنساب أولاد وأحفاد هولاكو خان الذين عرفنا بهم ، وتتبعنا أحوالهم بالشرح والتفصيـل ؛ نشرع فى ذكر بناته وأصهاره بنفس الطريقة من الشرح والتفصيل ؛ ونسجلهم بالترتيب :

أما بناته فقد كن سبعا بهذا التفصيل :

الأولى « بولوقان آقا »، وأمها « كُويك خاتون »، زوجت من « جومه كوركان » بن جوجى ، وهو من التتار ، كما أنه أخو بوقدان خاتون والدة گيخاتو خان، وزوجة آباقا خان الـكبرى . وقد جاء جوجى مع هولاكو خان

---

(١) إحدى القبائل المنولية (انظر جامع التواريخ) ، نشر برزين ، ج ١ ص ١٩٥ .

(٢) كلمة ساقطة من المتن .

إلى هـذه البلاد ، وهو ابن [١] كوركان ، وقد تزوج من ابنة أونجى نويان ، أخى چنـگيز خان ، وتدعى جيجكان ،وكانت أما لجومه كوركان .

البنت الثانية لهولاگو خان هى « تَمِى » وأمها أولجاى خاتون . ولما توفيت أختها بولوقان آقا ، زوجت من جومه كوركان .

ص ١١٢

البنت الثالثة اسمها مَنْـكَوكانْ ، ولدت من أولجاى خاتون، وتزوجت أولا من جاقو كوركان ،ثم من توقاتيمور الذى كان من قوم أويرات [٢] . وقد جاء توقاتيمور هذا مع هولاگو خان إلى إيران ، وكان أخا لأولجاى خاتون ، وأمه هى أم كويك خاتون؛ يعنى جيجكان (بنت چنـگيز خان). وكان « طُوقِى» ابن جاقو كوركان صهرا لمنـگو تيمور ، وهو الذى هرب ولجأ إلى الشام .

والبنت الرابعة هى توداكاج [٣] ، كانت أمها محظية من مخيم « توقوز خاتون »، وتسمى .... [٤] ، وقد زوجت من « تِنْـگر كوركان » . من قوم أويرات ، وكان من قبل زوجا لابنة « كُويك خاتون » التى تسمى .... ولما مات « تنـگر كوركان » تزوجها ابن سولامش . أما الآن فقـد تزوجها حفيد تنـگر المسمى جيجاك كوركان .

البنت الخامسة هى « طَرْقاى » . وأمها « يغان إيكاجى » ، وزوجت

---

(١) حسب قراءة كاترمير ، ص ١١١ .
(٢) إحدى القبائل المغولية (انظر جامع التواريخ ، نشر برزين ، ج ١ ص ١٠٠) .
(٣) يكتب هذا الاسم أيضا « بودكاج » و « بودوكاج » .
(٤) هذه الـكلمة ساقطة من المتن الأصلى .

من « موسى كوركان » من قوم قنقرات ، وهو ابن بنت چنگيز خان وابن . ... [(١)] ، وكان يدعى بقَا تيمور . وقد أطلق عليه عالم من مؤدبيه اسم « موسى » . وهو أخو « مِرتى خاتون » [(٢)] .

والبنت السادسة هى « قُوتلُقَان » أو « قُتلُوقان » ، وأمها مِنْكَليكاج إيكاجى ، وزوجت من « أيسو بوقا كوركان » بن أوقوتو نويان من قوم « دوربان » . ولما توفى قرينها تزوجها ابنُه تُوكِل .

والبنت السابعة « بابا » ، وأمها أولجاى خاتون، وقد زوجت من لِكْزِى كوركان ابن الأمير أرغون آقا من قوم أويرات . وبأمر منكو قاآن ، قدم أرغون آقا مع هولاكو خان إلى إيران ، بسمة كاتب (بيتكچى) .

هـذه الإحصائية التى ذكرتها لنساء هولاكو وأولاده وبناته وأصهاره ، قد تدعو الضرورة إلى أن أضيف إليها حكايات أخرى عن بعضهم ، فتكون الفرصة ملائمة للتحدث عنهم بالتفصيل . ولكن إجمال ذلك قد تحقق، وفق المنهج الذى سرتُ عليه . وسأحاول جريا على هذه الخطة ـ أن أعمل جدولا لشعب الأبناء المذكورين وذلك باستثناء الذين حكموا منهم، فهؤلاء سأتناولهم على حدة . ص ١١٤

---

(١) هذا الاسم ساقط من المتن .

(٢) تزوجت هذه الأميرة من آبا قاخان .

القسم الثانى

من تاريخ هولاكوخان

يشـــتمل على :

(١) ـ مقدمة جلوســـه

(٢) ـ صورة عرشه والأميرات والنبلاء والأمراء وأبنائه وأحفـاده وقت جلوسه على العرش .

(٣) ـ تاريخه وحكاياته ـ حروبه التى قام بهـا فى الأوقات المختلفة ـ الفتوحات التى تيسرت له .

مقدمة جلوســه على العرش

لما كان منكوقا آن فى موضع قراقورم وكلوران ، التى كانت المقر الأصلى لجنكيز خان وعاصمة له ، جاس على العرش بعد اجتماع سائر النبلاء والأمراء ، وبموافقة الجمهور . وبعد أن فرغ من نظر المظالم ، وجه عنايته إلى ضبط مصالح الممالك وترتيبها ، وأرسل الجيوش إلى الأطراف والحدود . وكان قد قدم إليه من الأماكن البعيدة والقريبة ، عدد كبير من أرباب الحاجات ، والراغبين فى شغل مهـام الأمور من الأتراك والفرس ، واجتمعوا فى بلاطه . وقد سمـح

ص ١١٠

ص ١١٨

لهؤلاء جميعا بالانصراف ، بعد إنجاح مآربهم وتلبية مطالبهم ، كما هو مذكور في تاريخه .

بعد ذلك أرسل قائده بايجونويان من قبيلة . . . .[1] ، على رأس جيش جرار ، للمحافظة على إيران . فلما بلغها أرسل رسولا إلى منكوقا آن ، يشكو ص ١٢٠ إليه الملاحدة وخليفة بغداد . وفي ذلك الوقت كان قاضي القضاة المرحوم شمس الدين القزويني[2] موجوداً في بلاط الخان . وذات يوم ظهر للخان ص ١٢٢ مرتديا الزرد، وأخبره أنه يلبسه تحت ثيابه خشية الملاحدة ، كما سرد له طرفا من اعتداءاتهم وغاراتهم . وكان الخان يتوسم في أخيه هولاكوخان مخايل الملك ، ص ١٢٤ ويرى في عزائمه مراسم الفتح والغزو . وكان قد تفكر ؛ فرأى أن بعض ممالك العالم قد دخل فعلا في حوزة چنگيزخان ، وبعضها لم يستخلص بعد ، وأن رقعة العالم فسيحة لاحد لها ؛ فاستقر رأيه على أن يعهد بكل طرف من ص ١٢٦ المملكة، إلى واحد من إخوته، ليخضعها تماما لإرادته ، وليقوم بالمحافظة عليها ، بينما جلس هو هادئا مظفراً، وسط دولته حيث المقر القديم للمغول ، وصار يمضي

(١) هذه الكلمة ساقطة من نسخة الأصل .

(٢) يذكر الجوزجاني (انظر طبقات ناصرى ، ص ٤١٣ — ٤١٤) . أن شمس الدين هذا كان على اتصال بالمغول ، وكان إماما وعالما كبيرا . ذهب مرة إلى منكوخان، وطلب منه أن يضع حداً لشر الملاحدة ، ويخلص الناس من فسادهم . وفي أثناء حديثه وبينما كان مندفعا بحماسة المسلم المتدين، صدرت منه كلمات جافة أغضبت منكوخان ، وكان لها أثر عميق في نفسه إذ نسب إليه الضعف والعجز ؛ لأنه لم يستطع أن يستأصل شأفة هذه الطائفة التي تدين بدين يخالف ديانات المسيحيين والمسلمين والمغول ؛ وماذلك إلا لأنهم استطاعوا أن يغروا منكوخان بالمال ، بينما هم يتحينون فرصة ضعف دولته، فيخرجون من الجبال والقلاع، ليقضوا على البقية الباقية من المسلمين ويعفوا آثارهم .

ص ١٢٨ وقته فى سعادة ورفاهية ، ويقيم مراسم العدل . وقد استخلص بلاد الأعداء القريبين بجيشه المقيم حول العاصمة .

ثم إنه بعد أن أعمل فكره،فوض إلى أخيه «قو بيلاى قا آن »، إخضاع ممالك الخطا والماچين وقراجانگ وتنگقوت والتبت وجورجه وسولنقا وكولى ، و بعض أجزاء من الهند المتصلة بالخطا والماچين . وكلف أخاه هولاگوخان ، بفتح غرب إيران والشام ومصر و بلاد الروم والأرمن . وأمر بأن يقود كل منهما جيشه ، ويكون موقعه القلب بين ميمنته وميسرته .

وبعد جلسة عظيمة لمجلس البلاط (قوريلتاى) [1]،أمر منگوخان أخاه قو بيلاى قاآن، بالمسير إلى حدود الخطا المذكورة، ورتب له الجيوش اللازمة . وأرسل هولاگوخان إلى إيران ، والممالك السالفة الذكر ، بعد موافقة جميع الأمراء . ثم أصدر أمره بأن تسير الجيوش ، التى كانت من قبل قد أرسلت إلى تما ، إلى إيران بقيادة « بايجو » « وجرماغون » لتحتلها ، وأمر تلك التى كانت فى تما، بالسير إلى كشميروالهند بقيادة « طير بهادر »، وأن تكون تابعة لهولاگوخان . ولما توفى « داير نويان » ، تولى قيادة جيشه . . [2] ثم عهد به ص ١٣٠ بعد ذلك إلى « سالى نويان » ، من قوم التتار ، وهو الذى استولى على ولاية كشمير ، وأسر عدة آلاف من أهلها . أما الآن فجميع هذه القوات التى كانت

---

(١) القوريلتاى فى الاصطلاح المغولى عبارة عن مجلس عظيم حافل يضم جميع الأمراء وأركان الدولة ، وينعقد عند تنصيب أحد أعضاء الأسرة المالكة إمبراطورا أعظم على جميع المغول .

(٢) هذه الكلمة ساقطة من المتن الأصلى .

تحت قيادة « سالى نويان » ، قد آلت حينما وجدت بحق الإرث ، إلى أملاك سلطان الإسلام الخاصة . وبعد أن فرغ منكو قاآن من أمر الجيوش سالفة الذكر ، قرر أن يُختار اثنان من كل عشرة رجال ، لا يأتى دورهما فى العدد من جنود چنگيزخان ، الذين قسموا بين أبنائه وإخوته وأبناء إخوته ، ويعطوا لهولاكو ، ليكونوا بمثابة حرس خاص له ، ولكى يرافقوه فى حملته على إيران ويلازموه هناك . كذلك صحب هولاكوخان أبناؤه وأقاربه وعبيده ، ولهذا كان يوجد فى هذا الإقليم ، أمراء منحدرون من نسل كل أمير من أبناء چنگيزخان ، وكان ينصب كل منهم فى المنصب الذى آل إليه بالوراثة . ولما أتم هذا التنصيب ، أرسل منكو الرسل إلى بلاد الخطا ، ليحضروا ألف أسرة من المدربين على استعمال أدوات القتال ؛ من المجانيق وزارقات النفط ورماة السهام . وقبل قيام الجيش بمهمته ، أرسل المرشدين فاختبروا الطريق الذى سوف يمر منه عساكر هولاكوخان ، من قرار قورم حتى شاطئ جيحون ، واعتبروا جميع المزارع والمراعى مناطق محرمة ، وأقاموا الجسور على الأنهار العميقة ، وعلى مجارى المياه السريعة . وأمر كذلك بأن يتحرك بايجونويان ، والجيوش التى كانت قد وصلت من قبل مع جوزماغون — إلى ناحية الروم ، وأعد تموين الجيش من جميع أنحاء الدولة ؛ فخص كل جندى مائة مَنٍّ (تغار) ، من الدقيق ، وقربة من النبيذ . بعد ذلك سار النبلاء والأمراء الذين وقع الاختيار عليهم ، على رأس قواتهم المكونة من فرق ، يبلغ بعضها الآلاف ، وبعضها المئات . وأرسل فى المقدمة كيتوبوقه نويان ، من قوم نايمان ، وهو الذى

ص ١٣٢ — ص ١٣٤ — ص ١٣٦ — ص ١٣٨

كان يتولى نظارة الخـاصة (باورجى) ، وذلك بمثابة استطلاع (يزك) ، مع قوة تعدادها اثنـا عشر ألف رجل . وأقبل هذا القائد مستعدا للهجوم . وحينما وصل إلى خراسان ، مترقبا وصول الرايات الهمايونيه ، صرف وقته فى فتح ولايات قهستان . وحينما تم إعداد الطريق لحملة هولاكوخان ، أقام هذا الأمير ولائم فاخرة فى معسكراته حسب المعتاد ، وللوداع قبل الرحيل . وكان يرافقه أخوه الأصغر « أريق بوكا » والأمراء الآخرون .

ص ١٤٠ وفى الربيع أقام له أمراء المغول مثل هذه الحفلات ، وجعلوها حافلة بالفرح والسرور ، و بكل أنواع الملذات .

ثم تقدم منكو قاآن مندفعا بعاطفة الأخوة لهولاكو ، ونصحه قائلا :

« إنك الآن على رأس جيش كبير ، وقوات لاحصر لها؛ فينبغى أن تسير من توران إلى إيران » .

شعر :

« سر من توران إلى إيران مظفرا ،

واعل باسمك إلى الشمس الساطعـة »

« وحافظ على تقاليد جنكيزخان وقوانينه ، فى الكليات والجزئيات ، ص ١٤٢ وخص كل من يطيع أوامرك و يجتنب نواهيك ، فى الرقعة الممتدة من جيحون حتى أقاصى بلاد مصر ــ بلطفك و بأنواع عطفك و إنعامك . أما من يعصيك؛ فأغرقه فى الذلة والمهانة مع نسائه وأبنائه وأقاربه، وكل مايتعلق به . وابدأ بإقليم

قهستان فى خراسان ، فخرب القلاع والحصون .

شعر :

« اجعل گِرْد كوه وقلعة لنبه سر[1] ،

بحيث يكون رأسهما إلى أسفل وجسدها إلى أعلى ،

– ولا تبق فى الدنيا قلعة قط ،

ولا كومة واحدة من التراب »

« فإذا فرغت من هذه المهمة ، فتوجه إلى العراق ، وأزل من طريقك اللور والأكراد، الذين يقطعون الطرق على سالكيها. وإذا بادر خليفة بغداد بتقديم فروض الطاعة، فلا تتعرض له مطلقا . أما إذا تكبر وعصى ،فألحقه بالآخرين من الهالكين . كذلك ينبغى أن تجعل رائدك فى جميع الأمور، العقل الحكيم والرأى السديد ، وأن تكون فى جميع الأحوال يقظا عاقلا ، وأن تخفف على الرعية التكاليف والمؤن ، وأن ترفه عنهم . وأما الولايات الخربة ، فعليك أن تعيد تعميرها فى الحال . وثق أنك بقوة الله العظيم، سوف تفتح ممالك الأعداء ، حتى يصير لك فيها مصايف ومشاتى عديدة . وشاور دوقوز خاتون فى جميع القضايا والشئون » .

ص ١٤٤

وكان منكو قاآن يعرف جيدا أن هولاكوخان ، يستطيع بجيشه الذى

---

(١) كان لطائفة الإسماعيلية قلاع حصينة تبلغ الخمسين ؛ أشهرها وأمنعها ثلاثة : ألموت وميمون دز ولنبه سر (انظر حمدالله القزوينى : نزهة القلوب ، ص ٦١) .

أمّر عليه أن يكون دائما ملكا مسيطرا ومتمكنا فى ممالك إيران ، وأن هذا الملك سوف يثبت بحالة وطيدة مستقرة لهولا كوخان وأسرته المشهورة ، ولكنه مع هذا وصاه فى الظاهر ، بأن يعود إلى مقره الأصلى حينما يفرغ من إنجاز مهمته .

وبعد أن قدم منكوقا آن نصائحه ووصاياه ، أرسل إلى هولا كوخان ونسائه وأبنائه — هدايا وفيرة من الذهب والثياب والدواب ، لكل منهم على حدة ، وتعطف على جميع النبلاء والأمراء ، الذين عزموا على الرحيل مع هولا كوخان ، وأنعم عليهم . وقد اختار منكو أخاه الأصغر « سِنْتاى أوغول » من بين الأمراء ، ليكون فى صحبة هولا كو . وفى آخر سنة الثور (هوكور ييل) ؛ الواقعة فى شهر ذى الحجة سنة خمسين وستمائة ، قصد هولا كوخا معسكره . وفى خريف سنة الفهد ؛ المقابل لشهر ذى الحجة سنة إحدى وخمسين ، غادر هولا كو ثكناته بناء على أمر أخيه ، وتوجه بجيشه الجرار قاصدا تلك الديار . وقد أعد أمراء الأطراف المأكل والمشرب [1] فى جميع المراحل ، وحرصوا على أن ينظفوا الطرق التى تقرر أن يمر منها الجيش — من الحجارة والأشواك ، كما أعدوا السفن لعبور الأنهار الكبيرة . وكان النبلاء والأمراء فى تلك النواحى ، قد جهزوا الجيوش التى سوف تصحب هولا كو خان إلى ممالك إيران . وهكذا صار كل منهم مشغولا بترتيب الجيش وإعداده . وسوف نذكر أسماءهم بالتفصيل .

(١) اللفظ المغولى : ترقو أوترغو وهو المأكل والمشرب كاترمير ١٤٤ — ١٤٥ .

وأخيرا سار هولاكو خان مصطحبا معه زوجتيه الكبيرتين : « دوقوز خاتون » و « أولجاى خاتون »، وكذلك أبناءه العظام آباقا و يشمون ، وصاروا يقطعون المراحل والمنازل . وحينما وصلوا إلى حدود آلماليغ ، جاءت « اورغَنَه خاتون » لاستقباله ، وأقامت عدة ولائم متتالية ، وقدمت هدايا لائقة . ص ٩٤٨

ولما غادرت الرايات المباركة هذا المكان ، بادر الأمير مسعود بيك ، صاحب تركستان وما وراء النهر ، وأمراء الأطراف ، بتقديم فروض الطاعة . وفى سنة اثنتين وخمسين وستمائة ، أقام الجند معسكراتهم الصيفية فى تلك الجهات .

وفى شهر شعبان سنة ثلاث وخمسين وستمائة ، نزل هولاكو فى سمرقند بمراعى « كان كُلْ » ، وهناك أقام له مسعود بيك خيمة منسوجة بالذهب، حيث أمضى ما يقرب من أربعين يوما وهو منصرف للشراب . وفى خلال تلك الأيام شاء القدر القاسى أن يموت الأمير « سونتاى » . وفى تلك الفترة أيضا كان الملك شمس الدين كرت، أسرع من سائر ملوك إيران، إلى شرف استقبال هولاكو؛ فخصه بأنواع عطفه و إنعامه . وقد رحل هولاكو من هناك ، ولم يتوقف إلا عند حدود « كِش » [1] ؛ حيث وصل الأمير أرغون مع كافة الأكابر والأعيان والصدور فى خراسان ، وقدموا خضوعهم وهداياهم . وفى كش أقام هولاكو مدة شهر ، ثم أرسل عدة رسائل إلى الملوك والسلاطين فى إيران، تشتمل على تلك العبارات : ص ٩٥٠

---

(١) تقع فى الجنوب الغربى من سمرقند .

« بناء على أمر القاآن قد عزمنا على تحطيم قلاع الملاحدة و إزعاج تلك الطائفة . فإذا أسرعتم وساهمتم فى تلك الحملة بالجيوش والعدد والآلات ،فسوف تبقى لكم ولاياتكم وجيوشكم ومساكنكم ، وستحمد لكم مواقفكم . أما إذا تهاونتم فى امتثال الأوامر وأهملتم ؛ فإننا حين نفرغ بقوة الله من أمر الملاحدة ؛ فإننا لانقبل عذركم ، ونتوجه إليكم فيجرى على ولاياتكم ومساكنكم مايكون قد جرى عليهم » .

وقد اختار هولاكو خان لتنفيذ هذه المهمة، رسلاسريعى السير . فلما شاع خبر وصول رايات الغازى فى الأطراف،أسرع السلاطين والملوك فى كل مملكة من ممالك إيران ، إلى التوجه إلى هولاكو لتقديم فروض الطاعة . وأقبل من بلاد الروم السلطانان عز الدين وركن الدين ، ومن فارس سعد ابن الأتابك مظفر الدين ، ومن العراق وخراسان وأذربيجان وأران وشروان وجورجيا ، الملوك والصدور والأعيان ، وكانوا جميعا يحملون الهدايا اللائقة إلى الحضرة الشريفة . بعد ذلك صدر الأمر بتوقف جميع السفن وزوارق الملاحين ، و إقامة جسر . وعلى أثر ذلك ، شرعت القوات فى عبور جيحون . وفى غرة ذى الحجة سنة ثلاث وخمسين وستمائة ، عبر هولاكو النهر بجيشه المظفر . ثم أنعم على أولئك الذين قدموا له خدمات ، ومنح الملاحين الضريبة التى كانت تؤخذ على السفن ، وألغى هذا الرسم . ولما عبر النهر كان يتجول على شاطئه، بقصد التفرج والمشاهدة . وفجأة ظهر من بين الغابة كثير من الأسود ، فأمر هولاكو فرسانه

ص ١٥٢

ص ١٥٤

بأن تضربوا حلقة حول هذه الحيوانات . ولما كانت الخيول تخشى الأسود ؛ فقد ركب الفرسان الإبل البختية السكرى ، واصطادوا أسدين . وفى اليوم التالى استأنف الرحيل ونزل فى مرعى « شبورقان » (١) . وقد عقد العزم على ألا يقيم هناك طويلا . وكان ذلك فى يوم عيد الأضحى حينما أخذ البَرَد يسقط من السماء فجأة ، وبدأ الثلج ينزل كذلك . واستمر المطر ينزل سبعة أيام متوالية ، وهلك كثير من الحيوانات بسبب برودة الجو . وقد أمضى هولاكو خان الشتاء فى ذلك المكان ، وكان دائم الاشتغال باللهو والطرب والاستمتاع.

وفى الربيع أعد « أرغون أقا » سرادقا للاستقبال مثبتا بألف مسمار ، ومنسوجا بخيوط الذهب ، وخيمة غالية ، مشتملة على كافة المرافق المناسبة لبلاط هذا السلطان العظيم ، وذلك بحيث يسهل نقلهما وتحويلهما ، وألحقت بهما قاعة للاستقبال ، كانت مزدانة بالأوانى الذهبية والفضية ، ومرصعة بالجواهر النفيسة. وفى يوم تمت فيه أسباب السعادة ، أعدت الخيمة وزينت قاعة المجلس بكل أنواع الزينة ؛ فأعجب هولاكو خان بذلك المنظر . وفى هذه الظروف المباركة ذات الطالع الأغر ، جلس على عرش السعادة ومسند التوفيق . وكان يحضر هذا الاجتماع الخواتين والنبلاء والأمراء وجميع أركان الدولة وأعيان الحضرة وملوك

---

(١) شُبُرْقَان أو شُبُورقان أو شُفُرْقان من توابع ولاية جوزجان وهى بلدة صغيرة قرب بلخ ، بينهما يومان. كانت فى سنة ٦١٧ عامرة يقصدها التجار ويبيعون فيها الأمتعة الكثيرة. (انظر ياقوت : معجم البلدان ، ج ١٢ ص ٣٥٣ ، طبع بيروت ١٩٥٧ ؛ حمدالله القزوينى : نزهة القلوب ، ص ١٥٥).

الأطراف وحكامها ، فأدوا جميع المراسم والآيين . ولما انتهى الحفل عاد الأمير أرغون بناء على أمر هولاكو إلى بلاط الخاقان (قاآن) ، وترك فى بلاط هولاكو خان ابنه « كِراى مَلك » وأحمد البيتكچى [1] ، والصاحب علاء الدين عطا ملك [2] ، وهم الذين عينوا لتدبير الأمور فى ممالك إيران .

(١) بيتكچى كلمة مغولية بمعنى كاتب ومحرر .

(٢) عطاملك الجوينى بن بهاء الدين محمد ولد عام ٦٢٣ هـ والتحق بخدمة المغول منذ الصغر ، وصار من عمال الديوان للأمير أرغون حاكم إيران من قبل المغول . وعندما قدم هولاكو إلى إيران ، التحق عطا ملك بخدمته وصحبه فى حادثة فتح بغداد ، ثم ولى حاكما على العراق فى عهد هولاكو وابنه آباقاخان إلى أن توفى فى سنة ٦٨١ .

ألف عطا ملك باللغة الفارسية كتابه « تاريخ جهانگشاى » أى (تاريخ فاتح العالم) والمراد به چنگيزخان . ويعد أحد الكتب الهامة التى ألفت فى العصر المغولى الأول . (انظر شرح أحوال الجوينى وقيمة كتابه ، فى المقدمة القيمة التى كتبها محمد بن عبدالوهاب القزوينى . تاريخ جهانگشاى ، ج ١ ، ليدن ١٩١١) .

ص ١٦٦

ذهاب كيتو بوقا نويان فى طليعة جيش هولاكوخان إلى قلاع الملاحدة ، ومحاولته الاستيلاء عليها ، وقتل علاء الدين ، وجلوس خورشاه مكان أبيه

فى شهر جمادى الآخرة سنة خمسين وستمائة ترك كيتو بوقا نويان بلاط منكوقاآن ، وذهب فى مقدمة جيش هولاكوخان قاصدا بلاد الملاحدة .وفى أوائل شهر المحرم سنة إحدى وخمسين عبر جيحون ، وشرع فى الهجوم على ولاية قهستان، واستولى على بعض أجزائها.ثم سار على رأس خمسة آلاف فارس وخمسة آلاف من الرجّالة إلى أسفل قلعة « گرده كوه » ، وذلك فى شهر ربيع الأول سنة إحدى وخمسين وستمائة ؛ فأمر أتباعه بحفر خندق حول القلعة ، أحاطوه بسور محكم ، وعسكر الجيش خلفه . وحول الجيش حفروا خندقا آخر عميقا جدا ، كما أقاموا سورا مرتفعا للغاية حتى يبقى الجيش سليما بينهما ، وحتى لا يستطيع أحد من الجانبين التردد . ثم ترك كيتوبوقا القائد « بوزى » هناك ، بينما ذهب هو إلى قلعة « مِهْرِين » وحاصرها ، ونصب عليها المجانيق . وفى اليوم الثامن من شهر جمادى الثانية من نفس السنة دخل مدينة « شاه » ، وقتل عددا كبيرا من السكان ثم قفل راجعا .

ص ١٦٨

ص ١٦٧٠

أما القائد « هِرْكِتاَىْ » فقد ذهب على رأس جيش إلى ولايتى

طارم ورودبار ، وأحدث فيهما التخريب والتدمير . ثم قصد المغول أسوار المنصورية وآله بشين،حيث أجروا مذبحة دامت ثمانية عشر يوما . وفى التاسع من شوال سنة إحدى وخمسين وستمائة شنت حامية گرده كوه غارة ليلية ، ودمروا معسكر المغول الحصين ، وقتلوا منهم مائة شخص ، كما قتلوا قائدهم الأمير « بورى » . فما كان من كيتو بوقا نويان إلا أن شن هجوما عنيفا على ولاية قهستان ، وطارد جنوده جميع القوات الموجودة فى نواحى « تون » و « ترشيز » و « زيركوه » ، وأباحوا فيهم القتل والغارة ، وأسروا كثيراً منهم.وفى العاشر من شهر جمادى الأولى من السنة المذكورة، استولوا على تون وترشيز . وفى أوائل شهر شعبان سقطت فى أيديهم قلعة مهرين ، وفى السابع من رمضان أخذوا قلعة كالى . ثم وردت الأخبار من« گرده كوه » إلى علاء الدين محمد سلطان الملاحدة تنبئه بأن وباء قد انتشر فى قلعة « گرده كوه » سَبَّبَ وفاة أكثر المحاربين ، وأن القلعة قد تسقط قريباً ؛ فأسرع علاء الدين وأرسل « مبارز الدين على توران » و « شجاع الدين حسن السِّرَابَانى » على رأس قوة عددها عشرة ومائة من المجاهدين المعروفين لمساعدة أهالى هذه القلعة ، وكان كل واحد منهم يحمل معه منّين من الحناء وثلاثة أمنان من الملح ، لأن الملح كان قد نفد من القلعة . ومع أنه لم يرد فى كتب الطب أن الحناء تدفع الوباء ، إلا أنه قد لوحظ هنا أن ابنة أمير قد تزوجت ، فخضبوا يدها وقدميها بالحناء ثم غسلوها . ولما كان الماء عزيز الوجود ، فقد شربت طائفة من الناس ذلك الماء الملوث ، فلم يمت واحد منهم قط بهذا الوباء . وبهذا

وضحت لهم فائدة هذه التجربة فطلبوا الحناء .

وبالجملة فقد اخترق هؤلاء المجاهدون البالغ عددهم عشرة ومائة رجل ، صفوف المحاصرين، ومروا دون أن يصاب واحد منهم قط بأذى ؛ اللهم إلا رجلا واحداً سقط فى الخندق وكسرت ساقه فحمله رفقاؤه على أكتافهم ، وذهبوا به إلى القلعة . وبهذا صارت گرده كوه محكمة مرة أخرى .

وفى ليلة الأربعاء الأخير من ذى القعدة سنة ثلاث وخمسين وستمائة ، قتل علاء الدين حاجبُه حسن المازندرانى ببلطة فى مكان يدعى « سركوه » بينما كان غارقاً فى نومه وهو سكران ، وذلك بالاتفاق مع خورشاه بن علاء الدين . فعين خورشاه حاكماً للإسماعيلية مكان أبيه . وقد اتهم عدة أشخاص بقتل علاء الدين . ورغم أن حسن المازندرانى هو الذى قتله بناء على مشورة ابنه خورشاه ، إلا أن هذا الأخير لم يستطع الاعتماد عليه ؛ فكتب إليه رسالة ، وأعطاها فدائيا حتى يذهب إليه ويسلمها إياه . فلما شغل حسن المازندرانى بالقراءة ، قتله ذلك الفدائى . ثم أعلن خورشاه أنه قتل « حسنا » لأنه هو الذى قتل والده ، وأمر بحرق أولاده فى الميدان . وبعد ثلاثة أيام ، أى يوم الأحد السادس والعشرين من ذى الحجة من تلك السنة استؤنف القتال .

قدوم ناصر الدين محتشم قهستان إلى معسكر هولاكوخان فى صحبة الملك شمس الدين كُرت الذى كان قد توجه إليه برسالة من قبل هولاكوخان

أرسل هولاكوخان الملك شمس الدين كرت برسالة ، إلى ناصر الدين[1] المحتشم فى قلعة « سرتخت » يدعوه إلى الدخول فى طاعته .

ص ١٧٦

وكان حينذاك قد هرم وضعف ؛ فامتثل للأمر وقصد هولاكو فى صحبة الملك شمس الدين فى السابع عشر من جمادى الأولى ، وقدم له أنواعا كثيرة من التحف والهدايا ، بعد أن قبل الأرض بين يديه . فتعطف هولاكو وقبل تلك الهدايا وقال له : « إنك نزلت من القلعة ، وقبلت الخضوع لإنقاذ حياة زوجتك وأبنائك . فلماذا لم تنزل معك سكان القلعة وتحثهم على التسليم ؟ ! . . . . » فأجاب ناصر الدين : « إن لهم ملكا يدعى خورشاه يأتمرون بأمره » .

(١) هو ناصر الدين أبو الفتح عبد الرحيم بن أبى منصور كان رجلا كريما فاضلا يقرب إليه العلماء والأدباء ، ويميل إلى مجالستهم . عاش فى بلاطه فى قهستان فترة طويلة ، العالم الكبير خواجه نصير الدين الطوسى ، وألف له كتاب « أخلاق ناصرى » باللغة الفارسية فى حدود سنة ٦٣٣ وقدمه باسمه .

بعد ذلك أنعم عليه هولاكو خان بلوحة ذهبية (پايزه) [١] ومرسوما (يرليغ) [٢] ، ونصبه حاكما على مدينة « تون » ، إلى أن توفى فى شهر صفر سنة ٦٥٥ . وكان هولاكو خان ينتقل من مكان إلى آخر حتى إذا مابلغ حدود « زاوه » [٣] و « خواف » [٤] اعتلت صحته قليلا . ثم عهد إلى ايلكا وكيتو بوقا نويان وغيرهما من الأمراء بفتح باقى ولاية الإسماعيلية . فلما بلغوا حدود قهستان قاومهم الرعاع إلى حدما . ولكن المغول أسروهم جميعا فى مدة أسبوع ، وخربوا الأسوار ، وأعملوا القتل والغارة فى السكان وأخذوا الأسرى. وفى السابع من ربيع الآخر وصلوا إلى أبواب مدينة « تون » ، ونصبوا المجانيق ، واستأنفوا القتال .

ص ١٧٨

ص ١٨٠

وفى اليوم التاسع عشر من شهر ربيع الآخر استولوا على المدينة ، وقتلوا جميع السكان ماعدا أرباب الحرف ، ثم قصدوا معسكر هولاكو خان مظفرين منصورين . ومن هناك توجه الجميع إلى طوس .

---

(١) الپايزه كانت عبارة عن لوحة من الذهب أوالفضة ، وفى بعض الأحيان من الخشب وذلك على حسب رتب الأشخاص ، وينقش على وجهها اسم الله واسم السلطان وعلامة خاصة ، وتهدى إلى الأشخاص الذين يتمتعون بثقة المغول . كما أنها تتضمن أمر الملك لسفرائه، ويتمتع حاملها بامتيازات خاصة فله الطاعة على كل من فى الدولة المغولية .

(٢) يرليغ كلمة مغولية بمعنى حكم أو قرار أو أمر ، ثم استعملت لأمر أوتفويض صادر من السلطان مباشرة إلى الأشخاص الممتازين . يقول القلقشندى : « اليرالغ هى المراسيم » (انظر صبح الأعشى ، ج ٤ ص ٤٢٣ ، ٤٢٨) .

(٣) كورة بخراسان (انظر القزوينى : آثار البلاد ، ص ٢٥٦) .

(٤) مدينة بخراسان بالقرب من نسا ، كبيرة آهلة ذات قرى وبساتين ومياه كثيرة (انظر القزوينى آثار البلاد ، ص ٢٤٤) .

وصول هولاكو خان إلى طوس وحدود خبوشان
وتجديد العمارات هناك ، والتوجه إلى ناحية
دامغان وتخريب ألموت ولنبه سر
وإخضاع خورشاه

حين بلغ هولاكو خان مدينة طوس ، نزل فى حديقة كان قد أنشأها « أرغون آقا » . وهناك أقيمت خيمة نسجت من نسيج كان قد أعد بناء على أمر الخاقان من أجل هولاكو خان . وبعد مدة انتقل هولاكو إلى حديقة المنصورية ، التى كان أرغون آقا قد أعاد تعميرها بعد خرابها . وهناك قدم نساء الأمير أرغون والخواجه عز الدين طاهر المأكل والمشرب .

وفى اليوم التالى انتقلوا إلى مراعى « رادكان » . ولما كان هذا المكان جميلا للغاية فقد أقاموا فيه عدة أيام ، وجلبوا الشراب والعلف الكثير من « مرو » و « باورد » [1] و « دهستان » [2] والولايات الأخرى ، وبعد ذلك جاءوا إلى مدينة خبوشان التى يسميها المغول « قوجان » ، وكانت قد خربت وأهملت منذ بدء وصول جيوش المغول ، فأمر هولاكو خان بتجديد عمارتها ، ودفع التكاليف اللازمة من الخزانة ، حتى لا يتحمل الرعايا عبء

(١) تسمى أيضا أبيورد وهى مدينة بخراسان بالقرب من سرخس (انظر القزوينى : آثار البلاد ، ص ١٩٢) .

(٢) مدينة بطبرستان.

هذه النفقات . ثم حفرت الكظائم (الكهاريز) وشيدت المصانع ، وأقيمت حديقة بجوار المسجد . وقد تبرع سيف الدين آقا ؛ الذى كان وزيرا ومدبرا بالمبالغ اللازمة لتعمير هذا المسجد . ثم دعا هولاكو الأمراء والأعيان ليقيم كل منهم منزلا هناك يتفق مع قدرته ومرتبته .

ثم أمر هولاكو بالمسير ، وكان قد أوفد « بِكْتِيمُورْ قورجى » وظهير الدين سِبْلَارْ البيتكچى (الكاتب) وشاه أمير برسالة إلى خورشاه سلطان الملاحدة ؛ فذهبوا إليه ، وأبلغوه ماأمر به هولاكو خان ، ثم عادوا بعد أداء مهمتهم فى التاسع من جمادى الآخرة . وفى اليوم نفسه وصل جيش المغول إلى قلاع الملاحدة وشرع فى الهجوم .

وفى العاشر من شعبان سنة أربع وخمسين وستمائة ، قدم هولاكو إلى خرقان و بسطام ، وأرسل مِرْكِتَاىْ شحنة هراة ، بصحبة مِنْكِلِمِش برسالة أخرى إلى ركن الدين خورشاه، وأمرهما بتخويفه وتهديده ووعيده . ص ١٨٤

وفى ذلك الوقت كان مولانا السعيد الخواجه نصير الدين الطوسى ، الذى كان أكمل وأعقل عالم ، وجماعة آخرون من الأطباء — منهم رئيس الدولة وأبناؤه — يقيمون لدى ملك الإسماعيلية مكرهين ، وكانوا قد رأوا أفعاله السيئة ، ووجدوا الظلم والتعدى متأصلين فيه ، وشاهدوا مخايل الجور بادية على أحواله ، وكانوا قد ملوا ملازمة الملاحدة ونفروا منهم ، ومالوا إلى هولاكو خان إلى أقصى حد . ومن قبل كانوا يرغبون فى ذلك ؛ فصاروا يتشاورون سرا لكى

يجعلوا هذا الملك يخضع لهولاكو على الوجه الأحسن والطريق الأسهل ، وانضم إليهم كثير من الغرباء والمسلمين ، واتفقوا جميعا على تحقيق هذا الهدف . ولهذا السبب لم يدخروا وسعا فى حث خورشاه على الخضوع والطاعة ، وصاروا يخوفونه مغبة المقاومة وعدم التسليم فاستجاب لنصحهم ، وأكرم وفادة الرسل ، وأوفد أخاه الأصغر « شاهنشاه » والخواجه أصيل الدين الزوزنى ؛ مع طائفة أخرى من أعيان مملكته إلى هولاكو إظهارا للخضوع والطاعة . فأمر هولاكو بإعزازهم وإكرامهم ، وعين الرسل مرة أخرى لكى يذهبوا مع صدر الدين وظهير الدين وتوكل بهادر وبختى وما زوق ، برسالته إلى خورشاه ليخبروه أنه إذا كان قد قبل الخضوع والتسليم حقا ؛ فإن عليه أن يخرب القلاع ، ويمثل بنفسه أمام هولاكو . فأجاب خورشاه : « إذا كان أبى قد أظهر التمرد والعصيان فإنى أظهر الخضوع والطاعة » . وقد بر بوعده فخرب أجزاء من قلاع مثل « هامون دز » و « الموت » و « لمبسر » ، وحطم أبراجها ، ورمى أبوابها ، واشتغل بتخريب أسوارها وحصونها . ولكنه طلب مهلة سنة يغادر بعدها القلعة . فعرف هولاكو خان أن وقت النكبة لهذا الأمير قد حل ، وأنه لاداعى لتردد الرسل عليه لأنه سوف لا يؤثر فيه ذلك .

ص ١٨٦

وفى العاشر من شعبان سنة أربع وخمسين وستمائة من الهجرة ، غادر هولاكو بسطام وتوجه نحو قلاع الملاحدة . وأمر بأن تجتمع الجيوش الموجودة فى العراق وغيرها من الأطراف ؛ فكان على الميمنة بوقاتيمور وكوكا ايلكا ،

ص ١٩٠

وقد أخذا طريق مازندران ، وعلى الميسرة تِـكُودَرْ أوغول وكيتو بوقا نويان ، اللذان قدما من طريق « خوار » و « سمنان » . وأما هولاكو خان فقــد اتخذ موضعه فى القلب الذى يطلق عليه المغول كلمة « قول » على رأس عشرة آلاف من المحاربين المشهورين .

شعر : ص ١٩٤

« لقد ساروا فصار وجه الأرض مغبرا ،
وكأن مثار النقع ليل تهاوى كواكبه »

ومرة أخرى أرسل فى المقدمة رسلا ينذرون : « لقد عقدنا العزم أنه إذا ص ١٩٦ جاء خورشاه بنفسه لاستقبالنا ؛ فإننا سنعفو عنه رغم جرائمه العديدة » . ولمـا جاوزت رايات الغازى المنتصرة مدينة « فيروزكوه » عاد الرسل بصحبة الوزير كيقباد ، وتعهدوا لهولاكو بتخريب القلاع ، والتمسوا إليه أن يرجئ رحيل ص ١٩٨ خورشاه عن القلاع لمدة عام ، وأن تستثنى من التخريب قلعتا الموت ولمبسر ، اللتان تـكونان المقر الأصلى القديم للملاحدة ، على أن يسلم خورشاه بقية القلاع ، ويطيع كل مايصدر إليه من أوامر . وقد كتب خورشاه إلى حكام ص ٢٠٠ گرده كوه وقهستان يأمرهم بالمسير طائعين إلى هولاكو ، وظن أنه بتلك الإجراءات يستطيع دفع المقدور الـكائن . وعندما وصلت رايات الغازى المنتصرة إلى ولاية لارودماوند ، أرسل شمس الدين كيلـكى إلى گرده كوه ليحضر ص ٢٠٢ إليه مقدّمها .

بعد ذلك توجه هولاكو إلى « فِرَان » وحاصر « شاه دز » التى كانت تقع فى طريقها وفتحها فى يومين . ثم أرسل الرسل مرة أخرى، ليحثوا خورشاه على التسليم ، فأعاد هذا الرسل ، وقبل أن يرسل ابنه مع ثلاثمائة من الجنود ، كما قبل أن يخرب جميع القلاع . وفى مدينة « عباس آباد الرى » توقف هولاكوخان وصار يترقب تنفيذ الوعود .

ص ٢٠٤

وفى السابع عشر من رمضان سنة أربع وخمسين وستمائة ، أرسل خورشاه إلى هولاكو ، ابنه الذى كان فى السابعة أوالثامنة من عمره ، وكان قد أنجبه من محظية ـ بصحبة طائفة من الأكابر والأعيان ، فأكرم هولاكوخان الغلام وأعزه ، وأذن له بالعودة لأنه لايزال صغيرا . ثم صرح هولاكو للرسل بأنه « إذا لم يستطع ركن الدين أن يحضر سريعا ، فإن عليه أن يرسل أخاه الآخر حتى يعود « شاهنشاه » الذى بقى ملازما لنا منذ عدة سنوات » . فأطاع ركن الدين الأمر ، وأوفد إلى هولاكو فى الخامس من شوال ، أخاه الآخر شروانشاه والخواجه أصيل الدين الزوزنى مع ثلاثمائة من كبار الشخصيات المسئولين ؛ فتشرفوا بمقابلته فى ضواحى الرى . وفى التاسع من شوال عاد شروانشاه يحمل معه منشورا من هولاكو يشتمل على العبارة الآتية : « نظرا لما أظهره ركن الدين من طاعة وخضوع ، فقد عفوت عما ارتكبه أبوه وأتباعه من جرائم وأخطاء . وحيث إنه لم يصدر أى جرم من ركن الدين نفسه خلال المدة التى عمل فيها مكان أبيه ، فإنه إذا خرب القلاع فسوف يأمن بأسنا

ص ٢٠٦

من جميع الوجود » . ثم أمر الجنود المنتشرين فى مختلف الأطراف بأن يتجمعوا فى معسكر واحد ، وفجأة أحيط بالملاحدة من جميع الجهات . وفى ذلك الوقت اقترب بوقاتيمور وكوكا ايلكا مع قواتهما من « أسپندان »، فأرسل إليهم خورشاه رسالة مضمونها : « إننا إذ خضعنا وإذ نشتغل الآن بتخريب القلاع فما سبب قدومكم إلينا » . فأجابوه : « مادمنا وإياكم على وفاق ، فقد جئنا طالبا للعلف » .

وفى العاشر من شوال سنة أربع وخمسين وستمائة ، رحل هولاكوخان من بِشكِلِه متخذاً طريق طالقان ، واستعد للهجوم على حدود ولاية الملاحدة. ولو أن المطر لم يسقط مدراراً فى تلك الليلة ،لقبض على خورشاه فى أسفل القلعة. وفى الثامن عشر من شوال بسطت الشمس ظلها على موضع مقابل لميمون دز من ناحية الشمال ، وفى اليوم التالى كان هولاكو يطوف حول القلعة على سبيل الرؤية وتفحص المواقع الصالحة لإدارة المعارك ، كما كان يشاهد بدقة مداخل القلعة ومخارجها . وفى اليوم التالى وصلت الجيوش بعظمة تامة تجل عن الوصف ، وأحاطت بالقلعة من جميع جوانبها . وقد امتد الحصار الذى ضربوه حولها إلى مايقرب من ستة فراسخ . ولكن حينما تعذر فتح هذه القلعة لمناعتها ، استشار هولاكوخان النبلاء والأمراء فيما يتعلق باستمرار الحصار أو العدول عنه ، والعودة أو التوقف والانتظار حتى السنة المقبلة . فردوا عليه : « إننا فى وقت الشتاء ، وحيواناتنا نحيفة عجفاء ، والعلف معدوم ، ويجب المبادرة بنقل العلف من ناحية بلاد الأرمن أو حدود كرمان ، فمن

ص ٢٠٨

ص ٢١٠

الأفضل أن نعود إلى قواعدنا » . ولكن بوقاتيمور وسيف الدين البيتكچى والأمير كيتو بوقا ، أصروا على الاستمرار فى محاصرة القلعة . فبعث هولاگوخان رسولا مرة أخرى برسالة إلى خورشاه يخاطبه فيها بعبارات فيها الترغيب والترهيب ، ويعرض عليه فيها أنه إذا نزل من القلعة ، وترك المقاومة ، وتوجه إلى معسكر الخان ؛ فإن تصرفه هذا يكون سبباً فى إنقاذ حياة طائفة كبيرة من الضعفاء والمساكين . وإذا لم يقدم نفسه خلال خمسة أيام، فإن عليه أن يستحكم فى قلاعه ويستعد للقتال .

فلما استشار خورشاه الأمراء والأعيان فى ولايته ، صار كل منهم يقول مايمليه عليه رأيه . وأخيراً استقر الرأى على أن يرسل إلى هولاكو خواجه نصير الدين الطوسى ـ نور الله قبره ـ مع طائفة من الوزاء والأعيان والكفاة والأئمة ـ يحملون التحف والطرائف الكثيرة ؛ فوصلوا إلى معسكر الإيلخان فى يوم الجمعة السابع والعشرين من شوال فأنزلهم المغول فى أماكن متفرقة ، وتحدثوا إليهم الواحد بعد الآخر .

وفى يوم الأحد غرة ذى القعدة سنة أربع وخمسين وستمائة، نزل خورشاه من القلعة بناء على مشورة أعيان الدولة ، وتوجه إلى هولاگو فى صحبة الخواجه نصر الدين الطوسى ، والخواجه أصيل الدين الزوزنى ، والوزير مؤيد الدين ، وأبناء رئيس الدولة . فودع بذلك هذا الحصن الذى ظلت أسرته تتخذه مقرا لها مدة قرنين . ثم جاء فقبل الأرض بين يدى السلطان الأعظم . وقد أنشد الخواجه نصير الدين الطوسى فى تاريخ هذه الحادثة هذين البيتين :

شـــعر :

« عندما صارت السنة الهجرية أربعاً وخمسين وستمائة ،
وفى صـــباح يوم الأحد الموافق غرة ذى العقــدة ،
ـ قام خورشاه ملك الإسمـــاعيلية من على عرشه ،
ووقف بـــين يدى هـــولاكو » .

وحينما وقع نظر هولاكوخان على خورشاه ؛ عرف أنه غلام غير مجرب يعوزه الرأى والتدبير ، فأعزه وأكرمه وشجعه ووعد بمساعدته ، وأرسـل من قبله صدر الدين ، فتسلم من خورشاه جميع الحصون والقلاع التى كان يملـكها آباؤه وأجداده على التوالى فى قهستان ورودبار وقومس ، والتى كانت مشحونة بالآلات والذخائر . وقد بلغ عدد هذه القلاع نحو المائة . وبعد إخراج الحكام، خربت جميعها ماعدا گردكوه ولمبسر . وفى هذه القلعة الأخيرة اعتصم أقارب خورشاه وأتباعه وظلوا يقاومون مدة سـنة . وبعد ذلك انتشر الوباء بين المعتصمين فأهلك كثيرين منهم ، ونزل البـاقون ولحقوا بالآخرين . وأخيراً سقطت أيضـاً گردكوه فى يد المغول ، بعد أن استمرت تقـاوم مدة عشرين سنة .

وصفوة القول أن خورشاه قد أنزل جميع مايتعلق به من قلعة ميمون دز ، وأهدى إلى هولاكو جميع الخزائن والدفائن الموروثة والمـكتسبة ، ممـا لم يكن ذائع الصيت ، فوزعها هولاكو على قواد جيشه .

ص ٢١٤

بعد ذلك انتقلت راية الغازى من هـذا المـكان إلى قاعدة ألموت [١] ، وأرسل إليها ركن الدين خورشاه ليحث المدافعين على التسليم ، ولـكن قائد القلعة تمرد وعصى ؛ فـكلف هولاكو خان « بلغايى » بمحاصرة تلك القلعة ، وقام المغول بالهجوم عليها يومين أو ثلاثة ، ثم أرسل هولاكو إلى المحاصَرين منشورا يؤمنهم على حياتهم .

وفى يوم الاثنين السادس والعشرين من ذى القعدة ، نزل قائد القلعة وسلمها لهولاكو ، فصـعد المغول إليها ، وكسروا المجانيق ، وخلعوا الأبواب . أما السكان فقد طلبوا مهلة ثلاثة أيام لنقل أمتعتهم . وفى اليوم الرابع اقتحم الجنود القلعة ، وأعملوا فيها الغارة والنهب . ثم صعد هولاكو خان فوق قلعة ألموت لرؤيتها ، فدهش جدا لعظمة ذلك الجبل . ثم نزل وارتحل ، وأمضى عدة أيام حوالى لمبسر حيث كان يشتو ، وهناك ترك قائده « طَاير بوقا » على رأس جيش لمحاصرة القلعة، ثم قفل راجعا فى السادس عشر من ذى الحجة سنة أربع وخمسين وستمائة .

وفى يوم الاثنين السابع والعشرين من الشهر المذكور نزل فى معسكره

(١) ذكر زكريا القزوينى فى كتابه آثار البلاد ، ص ٢٠٠ : أن ألموت قلعة حصينة من ناحية رودبار بين قزوين وبحر الخزر على قلة جبل ، وحولها وهاد لا يمكن نصب المنجنيق عليها ولا النشاب يبلغها . وهى كرسى ملك الإسماعيلية . قيل إن بعض ملوك الديلم أرسل عقابا للصيد وتبعه فرآه وقع على هـذا الموضع ؛ فوجده موضعا حصينا اتخذه قلعة وسماها « آله آموت » : (آله يعنى عقاب وآموت مخفف من آموخت) أى تعليم العقاب بلسان الديلم . ومنهم من قال اسم القلعة بتاريخها ، لأنها بنيت فى سنة ست وأربعين وأربعمائة : وهى ا م و ت .

الكبير على بعد سبعة فراسخ من قزوين ، للاحتفال بعيد رأس السنة . وقد استمرت الولائم سبعة أيام ، عطف فيها هولاكو خان على النبلاء والأمراء ، ومنحهم الخلع .

ولما تأكد هولاكو من صدق وإخلاص الخواجه نصير الدين الطوسى وأبناء رئيس الدولة وموفق الدولة ، الذين كانوا أطباء كبارا مشهورين أصلهم من همدان ؛ شملهم بعطفه وإنعامه ، وأعطاهم الخيول اللازمة لحمل أهلهم ومواليهم وأقاربهم مع أتباعهم وخدمهم وأشياعهم ، وإخراجهم من القلعة وألزمهم حضرته . وهم وأبناؤهم حتى اليوم ملازمون للحضرة ، ومقربون من هولاكو خان وأفراد أسرته المشهورين .

والصورة المثبتة هنا تمثل بلاط الخان، وما عومل به النبلاء والأمراء والجماعة المذكورون من عطف ورعاية .

وفى يوم الخميس العاشر من المحرم سنة خمس وخمسين وستمائة ، أنعم هولاكو خان على خورشاه ، مرسوما ولوحة ذهبية (يرليغ و پايزه) ، وخلع عليه ، ووهبه فتاة مغولية ليتزوج منها ، وأودع مدينة قزوين متاعه وحاشيته . ثم أرسل خورشاه رجلين أو ثلاثة من خاصته، مع رسل هولاكو خان إلى قلاع الملاحدة بالشام ؛ لدعوة الناس هناك إلى التسليم عندما تصل إليهم الرايات الهمايونية .

وبعد أن انتهت حفلات الزفاف ، لم يشأ هولاكو خان أن ينكث بعهده

ص ٢١٨ لخورشاه، وأن يقضى عليه؛ ذلك لأنه كان قد أمنه على حياته، ولأنه يعرف أنه مازالت هناك قلاع كثيرة تخص الملاحدة، موجودة فى هذه الديار وفى ديار الشام؛ يمكن استخلاصها بتوجيه خورشاه ونفوذه، وإلا فإن عليه أن يقضى سنوات عديدة حتى يتيسر فتحها. وعلى هذا صار هولاكو يعز خورشاه ويكرمه مدة من الزمن، ثم أرسله إلى بلاط «منكوقاآن». وفيما يتعلق بحادثة موته، ترد روايات مختلفة متعارضة، أرجحها وأوثقها أنه حينما وصل خبر قدومه إلى الخان، قال: «لماذا تحضرونه وتشقون بذلك عبثاً على الدابة التى يركبها!» ثم أرسل رسولا من قبله قضى على حياة خورشاه. ولما تخلصوا منه، قتلوا أقاربه وأفراد أسرته من النساء والرجال حتى الأطفال الذين فى المهد، فيما بين أبهر وقزوين، فلم يبق منهم أثر. وقد استمر مُلْك الإسماعيلية سبعاً وسبعين ومائة سنة. وكان بدء حكمهم سنة سبع وسبعين وأربعمائة، وهو العدد الذى يكنى عنه بلفظ «ألموت»، وانتهاؤه فى غرة ذى القعدة سنة أربع وخمسين وستمائة. وكان عدد ملوكهم ثمانية[1] تولوا الحكم على التوالى بالترتيب الآتى:

١ — حسن بن على بن محمد الصباح الحميرى.

٢ — كيا بزرگ أميد، وكان هو وحسن داعيين.

---

(١) جاء فى المتن الأصلى أن عددهم سبعة، وقد أحصاهم الكتاب على هذا النحو، بينما الصحيح أنهم ثمانية (انظر البيضاوى: نظام التواريخ، ص ٨٢، طهران ١٣١٣ هـ. ش). ولابد أن هذا الخطأ قد وقع فيه الناسخ. ونحن ننبه إلى الاسم الناقص فى موضعه.

٣ ـ محمد بن بزرگ أميد ، والذى اشتهر بلقب « على ذكره السلام »[١] .

٤ ـ حسن بن محمد بزرگ أميد .

٥ ـ محمد بن حسن .

٦ ـ [جلال الدين بن محمد بن حسن][٢] « نومسلمان »[٣] .

٧ ـ علاء الدين محمد بن جلال الدين بن محمد بن حسن[٤] .

٨ ـ ركن الدين خورشاه بن علاء الدين ، الذى ختمت به دولة الإسماعيلية .

---

(١) هذا اللقب فى الحقيقة خاص بابنه حسن (انظر كاترمير ، ص ٢١٨) .

(٢) هذا هو الاسم الذى أسقطه الناسخ .

(٣) أعطى هذا اللقب فى المتن الأصلى لأبيه محمد ، بينما الصحيح أنه خاص بابنه جلال الدين (انظر كاترمير ، ص ٢١٨) . ومعنى « نومسلمان » المسلم الجديد ، وذلك لأن جلال الدين ترك طريقة الإلحاد ، وتبرأ من سلوك أبيه وجده، وتمسك بمبادئ الشريعة الإسلامية. (انظر البيضاوى : نظام التواريخ ، ص ٨٤) .

(٤) انظر نفس المصدر ، ص ٨٢) .

قصة توجه هولاكوخان إلى همدان[1] بعد فتح قلاع الملاحدة، ووصول بايجو نويان من بلاد الروم، وشروع هولاكوخان فى التحقيق معه، ثم إيفاده مرة أخرى إلى هذه البلاد لإتمام فتحها

حينما فرغ هولاكوخان من فتح بلاد الملاحدة وقلاعهم، توجه فى شهر ربيع الأول سنة خمس وخمسين وستمائة من ضواحى قزوين إلى همدان. (ص ٢٢٣) وفى ذلك الوقت وصل « بايجو نويان » من حدود أذربيجان. وكان هولاكوخان متضايقاً منه، فصاح به قائلا : « لقد ذهبتَ فى نفس الوقت الذى ذهب فيه جرماغون. فماذا فعلت عند ما حللت محله فى إيران... وكم من جيش قهرت!... وما العدد الذى أخضعته.... إنك لم تفعل شيئاً سوى أنك رحت تخوف القوات المغولية، بالمبالغة فيما عليه الخليفة من قوة (ص ٢٢٤) وعظمة ». فجثا بايجونويان على ركبتيه فأجاب : « إننى لم أقصر، وإنما بذلت كل ما فى مقدورى. فلقد أخضعت الأقاليم الممتدة ما بين باب الرى حتى حدود الروم والشام ماعدا بغداد؛ فإنها بسبب كثرة سكانها ووفرة جيوشها،

---

(١) هذه الكلمة يقتضيها سياق الحوادث بدلا من كلمة قهستان الموجودة فى المتن الأصلى (انظر كاترمير، ص ٢٢٠).

وبسبب كثرة مافيهـا من الأسلحة ومزيد الأهبـة ، وبسبب الطرق الضيقة الصعبة ، التي يجب سلوكها قبل الوصول إليها . بسبب كل هذه العوامل صار تقـدم الجيوش إلى تلك النواحى ، وقيامهـا بعمليات الهجوم أمراً متعذراً . وما يبقى بعد ذلك أتركه لحـكم الملك العادل ؛ فأنا بكل مايأمر به عبد مطيع ومنفذ لأوامره » . فسكنت تلك العبارة ثائرة غضب هولاكو خان، وقال له : «يجب أن تعود لـكى تستولى على تلك الولاية، حتى شاطئ البحر من يد أبناء (الفرنج ومن الـكفار[1]) » . فرجع بايجو على الفور ، وقاد الجيش إلى ولاية الروم . وكان غياث الدين كيخسرو بن علاء الدين، سلطان الروم فى ذلك الوقت؛ فالتحم مع بايجو نويان فى معركة دارت رحاها فى موضع يسمى « كوسه داغ»، ولـكنه هزم ، واستولى بايجو على جميـع بلاد الروم ، بعد أن أعمل فيها القتل والغـارة . وفى ذلك الوقت أيضاً نزل هولاكو خان، بصحبة النبلاء قَلِى و بَلَغه وتومار ، والأمراء العظام بوقاتيمور وقدسون وقَتَارْ سونجاق وكوكا إيلـكا — فى همدان بالقرب من «خانه آباد »، التى هى عبارة عن مرعى من كردستان ، وصار يشتغل بترتيب الجيش وتجهيزه .

---

(١) يقول كاترمير (ص ٩٦) : « نعرف أن الصليبيين فى هذه الفترة كانوا لايزالون يسيطرون على سوريا ، وبوجه خاص على شواطىء البحر الأبيض . أما عن كلمة الـكفرة ؛ فأعتقد أن المؤلف أراد أن يدل بها على الأرمن والإغريق ، الذين كانوا يحتلون أماكن عديدة من آسيا الصغرى .

ظهور الفتنة ووقوع الخلاف بين الدواتدار والوزير وابتداء نكبة الخليفة

ص ٢٢٦

في آخر صيف سنة أربع وخمسين وستمائة ،حدث سيل عظيم أغرق مدينة بغداد ؛ لدرجة أن الطبقة العليا من المنازل هناك غرقت في الماء واختفت تماما . وقد استمر انهمار السيل في تلك الديار خمسين يوما ، ثم بدأ في النقصان . وكان من نتيجة ذلك ، أن بقيت نصف أراضي العراق خرابا يبابا . ولا يزال أهالي بغداد حتى اليوم ، يذكرون الغرق المستعصمي .

وخلال تلك الواقعة، امتدت أيدي جماعة من الزناطرة والمشاغبين والرعاع والسفلة بالاعتداء والسلب ، وكانوا في كل يوم يغتصبون بعض الأشخاص الأبرياء . وكان مجاهد الدين الدواتدار، يحتضن بنفسه هؤلاء الرعاع والسفلة ، فصار في مدة وجيزة صاحب شوكة و بأس . ولما لمس في نفسه القوة ، ورأى الخليفة المستعصم شخصا عاجزا لا رأى له ولا تدبير وساذجا؛ اتفق مع طائفة من الأعيان على خلعه وتولية خليفة آخر من العباسيين في مكانه . وعندما علم مؤيد الدين ابن العلقمي نبأ تلك المؤامرة،أخبر الخليفة على انفراد قائلا:« يجب تدارك أمرهم » . فاستدعى الخليفة الدواتدار على الفور ، وأطلعه على ماقاله الوزير

فى شأنه ، ثم قال له : « لما كنت أعتمد عليك وأثق بك،فإنى لم أصغ إلى كلام الوزير وهو يغمزك . وإنى لأبلغك بأنه لا يجوز أن تخدع بأية حال ، ولا تحيد عن جادة الطاعة » . فلما أحسّ الدواتدار من الخليفة الشفقة والعطف ،أجاب: « إذا ثبت علىّ جرم فهذا رأسى وهذا هو السيف . ومع هذا فأين يذهب عفو الخليفة وصفحه وغفرانه . . . أما هذا الوزير المزور المخادع ، فقد حمله الشيطان بعيدا عن الطريق المستقيم ، واختمرت فى ذهنه المظلم فكرة الولاء والميل إلى هولاكو خان وجيش المغول . وإن سعايته فى حقى ، لمن أجل دفع هذه التهمة عن نفسه ، وإنه عدو الخليفة ، فهو يتبادل مع هولاكو خان الجواسيس » . فاستماله الخليفة وقال له : « منذ هذه اللحظة كن يقظا وعاقلا » .

بعد ذلك خرج مجاهد الدين من حضرة الخليفة . وعلى سبيل المكابرة وعدم المبالاة ، أصر على مهاجمته ؛ فجمع حوله رُنُود بغداد وأوباشها ، وكانوا يلازمونه ليل نهار ؛ فخشى الخليفة مغبة الحال ، وجمع جيشاً لدفع هذا الخطر . ثم زادت الفتنة والاضطراب فى بغداد . وكان الأهالى هناك قد ملوا العباسيين، وكرهوا حكمهم . ولما عرفوا أن دولتهم قد آذنت بالمغيب ، ظهرت الأهواء المختلفة بينهم ، فخاف الخليفة مغبة الأمر ، وعهد إلى فخر الدامغانى صاحب الديوان بإخماد تلك الفتنة ، وكتب كتابا بخطه مؤداه : « إن ماقيل فى حق

الدواتدار ، إنما هو محض افتراء و بهتان . ونحن نعتمد عليه إعتمادا كليا ، وهو فى أماننا » . وعند ما أرسلت تلك الرسالة على يد ابن درنوش إلى الدواتدار ، حضر ومثل أمام الخليفة ، فاستماله هـذا ، وعاد معززا مكرما . ثم نودى فى المدينة بأن ماقيل فى حق الدواتدار إنما هو كذب .وصار اسم الدواتدار يذكر فى الخطبة بعد اسم الخليفة . و بهذا خمدت الفتنة فى يسر .

القسم الثالث

من

تاريخ هولاگوخان

توجه هولاكوخان إلى بغداد، وتردد الرسل بينه و بين الخليفة ، وعاقبة تلك الحال

بلغ هولاكوخان الدينور فى التاسع من ربيع الآخر سنة خمس وخمسين وستمائة قاصدا بغداد، ثم قفل راجعا ومضى إلى همدان ،فى الثانى عشر من شهر رجب من تلك السنة . وفى العاشر من رمضان أرسل إلى الخليفة رسولا يتهدده و يتوعده قائلا : « لقد أرسلنا إليك رسلنا وقت فتح قلاع الملاحدة ، وطلبنا مددا من الجند ، ولكنك أظهرت الطاعة ولم تبعث الجند . وكانت آية الطاعة والاتحاد، أن تمدنا بالجيش عند مسيرنا إلى الطغاة ؛ فلم ترسل إلينا الجند، والتمست العذر . ومهما تكن أسرتك عريقة ، و بيتك ذا مجد تليد . . .

شعر :

فإن لمعان القمر قد يبلغ درجة ،

يخفى معها نور الشمس الساطعة .

ولابد أنه قد بلغ سمعك على لسان الخاص والعام ، ماحل بالعالم والعالمين على يد الجيش المغولى ، منذ عهد جنكيزخان إلى اليوم ، والذل الذى حاق بأسر الخوارزمية والسجلوقية وملوك الديالمة والأتابكة وغيرهم ،ممن كانوا ذوى عظمة وشوكة ،وذلك بحول الله القديم الدائم ، ولم يكن باب بغداد مغلقا فى وجه أية طائفة من تلك الطوائف ،واتخذوا منها قاعدة ملك لهم . فكيف يغلق فى

وجهنا رغم مالنا من قدرة وسلطان؟ ولقد نصحناك من قبل . والآن نقول لك : احذر الحقد والخصام ، ولاتضرب المخصف بقبضة يدك ، ولاتلطخ الشمس بالوحل فتتعب .

ومع هذا فقد مضى ما مضى ؛ فإذا أطاع الخليفة فليهدم الحصون ، ويردم الخنادق، ويسلم البلاد لابنه ، ويحضر لمقابلتنا ، وإذا لم يرد الحضور ، فليرسل كلا من الوزير وسليما نشاه والدواتدار؛ ليبلغوه رسالتنا دون زيادة أونقص .فإذا استجاب لأمرنا فلن يكون من واجبنا أن نكن له الحقد ، وسنبقى له على دولته وجيشه ورعيته . أما إذا لم يصغ إلى النصح ، وآثر الخلاف والجدال ، فليعبئ الجند ، وليعين ساحة القتال ؛ فإننا متأهبون لمحاربته ، وواقفون له على استعداد. وحينما أقود الجيش إلى بغداد، مندفعا بسورة الغضب ، فإنك لو كنت مختفيا فى السماء أوفى الأرض ..

شعر :

ـ فسوف أنزلك من الفلك الدوار ،
وسألقيك من عليائك إلى أسفل كالأسد .
ـ ولن أدع حيا فى مملكتك . . . ،
وسأجعل مدينتك وإقليمك وأراضيك طعمة للنار .

فإذا أردت أن تحفظ رأسك وأسرتك ؛ فاستمع لنصحى بسمع العقل والذكاء ، وإلا فسأرى كيف تكون إرادة الله » .

و بعدما بلغ الرسل بغداد و بلغوا الرسالة ، أوفد الخليفة شرف الدين بن الجوزى، وكان رجلا فصيحا ومعه بدر الدين محمود وزنكى النخجوانى [١] بصحبة الرسل ، وأجاب قائلا : « أيها الشاب الحدث ! ... المتمنى قصر العمر، ومن ظن نفسه محيطا ومتغلبا على جميع العالم مغترا بيومين من الإقبال ، متوهما أن أمره قضاء مبرم وأمر محكم . لماذا تطلب منى شيئا لمن تجده عندى .

شعر :

كيف يمكن أن تتحكم فى النجم وتقيده ،

بالرأى والجيش والسلاح .

ألا ليعلم الأمير أنه من الشرق إلى الغرب ، ومن الملوك إلى الشحاذين ، ومن الشيوخ إلى الشباب ممن يؤمنون بالله و يعملون بالدين ، كلهم عبيد هذا البلاط وجنود لى. إننى حينما أشير بجمع الشتات ،سأبدأ بحسم الأمور فى إيران، ثم أتوجه منها إلى بلاد توران ، وأضع كل شخص فى موضعه. وعندئذ سيصير وجه الأرض جميعه مملوءا بالقلق والاضطراب .غير أنى لا أريد الحقد والخصام ، ولا أن أشترى ضرر الناس و إيذاءهم ، كما أننى لا أبغى من وراء تردد الجيوش، أن تلهج ألسنة الرعية بالمدح أو القدح؛ خصوصا وأننى مع الخاقان وهولا گوخان، قلب واحد ولسان واحد . و إذا كنت مثلى تزرع بذور المحبة فما شأنك بخنادق

---

(١) فى كاترمير نخوانى : والتصحيح عن طبعة باكو ١٩٥٢ ص ٤٣ .

رعيتى وحصونهم . فاسلك طريق الود ،وعد إلى خراسان . و إن كنت تريد الحرب والقتال . . .

شعر :

ـ فلاتتوان لحظـــة ولاتعتذر ،

إذا استقر رأيك على الحرب .

ـ إن لى ألوفا مؤلفة من الفرسان والرجالة ،

وهم متأهبون للقتال .

و إنهم ليثيرون الغبار من ماء البحر وقت الحرب والطعان .

وعلى هذا النحو بلغ الرسالة ، وصرف الرسل مع بعض التحف والهدايا . وحينما خرج الرسل من المدينة ، وجدوا الصحراء كلها ممتلئة بالرعاع ، فأطلقوا ألسنتهم بسب هؤلاء الرسل ، وبادروهم بالسفاهة ، وأخذوا يمزقون ثيابهم ، و يبصقون فى وجوههم؛لعلهم يقولون شيئا يتخذونه ذريعة لإيذائهم والاعتداء عليهم . فلما أخبروا الوزير بذلك ، أرسل على الفور بعض الغلمان فأبعدوهم . وعند ما وصل الرسل إلى حضرة هولاكوخان ،وعرضوا عليه كل ماشاهدوه ، غضب الملك وقال : « إن الخليفة ليست لديه كفاءة قط ؛ إذ أنه معنا كالقوس الأعوج . فلوأمدنى الله الأزلى بعونه ، فسوف أجعله مستقيما كالسهم » . ثم دخل رسل الخليفة ، وهم ابن الجوزى و بدر الدين وزنكى ، و بلغوا الرسالة ؛

فغضب هولاكوخان من عبارة الخليفة غير اللائقة وقال : « إن إرادة الله مع هؤلاء القوم أمر آخر ؛ إذ ألقى فى روعهم مثل هـذه الأوهام » .

وفى شهر .... [1] من سنة التنين « لوييل » الموافقة لسنة ٦٥٥/١٢٥٧، أذن هولاكو لرسل الخليفة بالانصراف من موضع « پنج انكشت » على حدود همدان التى كانت معسكرا له ، وأرسل يقول : إن الله الأزلى رفع جنكيز خان ، ومنحنا وجه الأرض كله من الشرق إلى الغرب ؛ فكل من سار معنا ، وأطاعنا ، واستقام قلبه ولسانه ، تبقى له أمواله ونساؤه وأبناؤه . ومن يفكر فى الخلاف والشقاق لايستمتع بشىء من ذلك . ثم عاتب الخليفة بشدة قائلا : لقد فتنك حب الجاه والمال والعجب والغرور بالدولة الفانية ، بحيث إنه لم يعد يؤثر فيك نصح الناصحين بالخير ، وإن فى أذنيك وقرا فلا تسمع نصح المشفقين ، ولقد انحرفتَ عن طريق آبائك وأجدادك ، وإذن فعليك أن تكون مستعدا للحرب والقتال ، فإنى متوجه إلى بغداد بجيش كالنمل والجراد . ولو جرى سير الفلك على شاكلة أخرى ، فتلك هى مشيئة الله العظيم .

وبعد أن وصل رسل بغداد ، بلغوا رسالة ذلك الملك القاهر إلى الوزير ، فعرضها برمتها على الخليفة ، فقال : ماذا تُرى لدفع هـذا الخصم القاهر القادر فأجاب الوزير :

---

(١) هنا كلمة محذوفة من نسخة الأصل .

ينبغى أن ندفعه ببذل المال؛ لأن الخزائن والدفائن تجمع لوقاية عزة العرض وسلامة النفس ، فيجب إعـداد ألف حمل من نفائس الأموال ، وألفا من نجائب الإبل ، وألفا من الجياد العربية المجهزة بالآلات والمعـدات ، وينبغى إرسال التحف والهدايا فى صحبة الرسل الـكفاة الدهاة ، مع تقديم الاعتذار إلى هولاكو ، وجعل الخطبة والسكة باسمه .

فأعجب الخليفة برأى الوزير ، وأشار بإنجاز ذلك . ولـكن مجاهد الدين أيبك المعروف بالدواتدار الصغير ـ بسبب الوحشة التى كانت بينه وبين الوزير ـ أرسل إلى الخليفة رسالة بالاتفاق مع الأمراء الآخرين ، ورنود بغداد يقولون : « إن الوزير دبر هذه الحيلة لمصلحته الخاصة ، لـكى يتقرب زلفى إلى هولاكو ، ويلقى بنا نحن الجنود فى البلاء والمحنة . ولـكننا سوف نرقب مفارق الطرق ، ونلقى القبض على الرسل، ونأخذ مامعهم من أموال ، وندعهم فى العذاب والعناء .

فعـدل الخليفة ـ بسبب هـذا الـكلام ـ عن إرسال الأحمال ، وبدافع من التهور والغرور أرسل إلى الوزير من يقول :

« لاتخش القضاء المقبل ، ولا تقل خرافة ؛ فإن بينى وبين هولاكوخان، وأخيه منـكوقاآن صداقة وألفـة ، لاعداوة وقطيعة . وحيث إننى صديق لهما؛ فلابد أنهما أيضاً يكونان صديقين وموالبين لى، وإن رسالة الرسل غير صحيحة. أما إذا أضمر الأخوان لى خلافا وغدراً ، فلا ضير على الأسرة العباسية ؛ إذ أن

ملوك الأرض هم بمثابة الجنود لى ، وهم منقادون ومطيعون لأمرى ونهيى ، فأدعوهم من كل قطر ، وأسير لدفعهما ، وأثير إيران وتوارن عليهما . فقوّ قلبك ولا تخافن تهديد المغول ووعيدهم ؛ فإنهم رغم كونهم أرباب دولة وأصحاب شوكة ، إلا أنهم لا يملكون سوى الهوس فى رؤوسهم ، والريح فى أكفهم » .

فاضطرب الوزير لهذا الكلام ، وأيقن أن دولة العباسيين سوف تزول . وإذ كان إدبار هذه الدولة سيكون فى عهده ، فإنه طفق يتلوى كالثعبان ، ويفكر فى كل تدبير . وقد اجتمع عند الوزير أمراء بغداد وعظماؤها ؛ مثل سليمان شاه بن برجم ، وفتح الدين بن كره ، ومجاهد الدين الدواتدار الصغير ، وأطلقوا ألسنتهم بقدح الخليفة وطعنه قائلين إنه صديق المطربين والمساخرة ، وعدو الجيوش والجنود . وإننا أمراء الجيش ، بعنا كل ما ادخرناه فى عهد والده .

وقال سليمان شاه : « إذا لم يقدم الخليفة على دفع هذا الخصم القوى ، ولم يبادر إلى طلب العون والمساعدة ؛ فسيتغلب جيش المغول — عن قريب — على بغداد ، وحينئذ لا يرحمون أى مخلوق كما فعلوا ذلك بسائر البلاد والعباد ، فلا يبقون على أى شخص ، من الحضر كان أو من البدو ، قويًا أم ضعيفًا ، وسيخرجون ربات الخدود من ستر العصمة . ولو أن المغول

لم يحدقوا بجميع الجهات ، لكان من السهل حشد الجنود من الأطراف ، وحَمَلْتُ عليهم بجيش فى غارة ليلية ، وشتتت شملهم . ولو جرت الأمور على خلاف ذلك ، فأولى بالفتى أن يقتل فى حومة الوغى فى عزة وشرف» . وعند ما بلغ الخليفة هذا الكلام ، أعجب به وقال للوزير : « إن كلام سليمان شاه له الأثر فى النفس المنهكة ، فاستعرض الجند حسب تقريره ، لأغنيهم بالدرهم والدينار ، وسلم أمرهم إلى سليمان شاه ليحقق خطته » .

على أن الوزير عرف أن الخليفة لن يمنح مالا ، لكنه لم يبد — على الفور — رأيا مخالفاً لأعدائه ، وأمر العارض بأن يعرض الجنود بالتدريج فوجاً فوجاً ؛ ليصل نبأ تعبئة الجنود فى حضرة الخليفة إلى البعيد والقريب ، والترك والعرب ، فتفتر عزيمة العدو . وبعد خمسة أشهر أبلغ العارض الوزير ، أن الجند قد صاروا عدداً وفيراً وجيشاً جراراً ، وأن على الخليفة أن يمنح المال . فعرض الوزير الأمر على المستعصم ، ولكنه اعتذر ، فيئس الوزير من مواعيده كلية ، ورضى بالقضاء ، ووضع عين الانتظار على نافذة الاصطبار .

مصراع :

حتى يكشف الفلك نفسه عما وراء الستار .

ولما كان الدواتدار — فى تلك الفترة — خصما للوزير ، فإن أتباعه من سفلة المدينة وأوباشها ، كانوا يذيعون بين الناس ، أن الوزير متفق مع هولاكوخان ، وأنه يريد نصرته وخذلان الخليفة ، فقوى هذا الظن .

ثم أرسل الخليفة ثانية هدية صغيرة إلى هولاكو ، على يد بدر الدين دزيكي قاضي بندينجان ، و بعث يقول :

« لو غاب عن الملك ، فله أن يسأل المطلعين على الأحوال ؛ إذ أن كل ملك — حتى هذا العهد — قصد أسرة بني العباس ودار السلام بغداد، كانت عاقبته وخيمة . ومهما قصدهم ذوو السطوة من الملوك، وأصحاب الشوكة من السلاطين ، فإن بناء هذا البيت محكم للغاية ، وسيبقى إلى يوم القيامة . وفى الأيام السالفة ، قصد يعقوب بن الليث الصفار الخليفة ، وتوجه بجيش لجب إلى بغداد ، فلم يبلغ مأربه إذ مات بعلة الزحار ، والأمر كذلك مع أخيه عمرو ؛ إذ قبض عليه إسماعيل بن أحمد السامانى ، وكبله وأرسله إلى بغداد ؛ لكى يجرى عليه الخليفة ما حكم به القضاء . وكذلك جاء البساسيرى بجيش عظيم من مصر إلى بغداد ، وقبض على الخليفة ، وسجنه فى الحديقة . وفى بغداد جعل الخطبة والسكة مدة عامين ، باسم المستنصر الذى كان خليفة الاسماعيلية فى مصر . وفى النهاية علم طغرلبك بذلك ، فأسرع من خراسان ، وقصد البساسيرى فى جيش جرار ، وقبض عليه وقتله ، وأخرج الخليفة من السجن ، وأعاده إلى بغداد ، وأجلسه على عرش الخلافة . وكذلك قصد السلطان محمد السلجوقى بغداد، فعاد منهزماً وهلك فى الطريق . وجاء محمد خوارزمشاه بجيش عظيم قاصداً استئصال هذه الأسرة ، فابتلى فى روابى « أسد آباد » بالثلج والعواصف بسبب غضب الله عليه ، وهلك أكثر جنده ، وعاد خائباً خاسراً . ثم لاقى مالاقى من جدك

چنگيزخان فى جزيرة آبكسون . فليس من المصلحة أن يفكر الملك فى قصد أسرة العباسيين . فاحذر عين السوء من الزمان الغادر» .

فاشتد غضب هولاگو بسبب هذا الكلام ، وأعاد الرسل قائلا :

شعر :

ـ اذهب واصنع من الحديد المدن والأسوار ،
وارفع من الفولاذ الأبراج والهياكل ،
ـ واجمع جيشاً من المردة والشياطين ،
ثم تقدم نحوى للخصام والنزال .
ـ فسأنزلك ولو كنت فى السماء ،
وسأدفع بك غصباً إلى أفواه السباع .

قصة اشتغال هولاگو خان بترتيب الجيش وتجهيزه
لفتح بغداد وما حولها

عند ما أعاد هولاگو خان الرسل، كان يفكر فى كثرة جند بغداد ، فاشتغل بإعداد الجيش وتجهيزه ، وأراد أن يرسل أغلب الجند إلى نواحى بغداد ، حيث الجبال الشاهقة المنيعة فيستولى عليها . ثم أرسل رسولا لاستدعاء « حسام الدين عكه » ، الذى كان حاكما على « درتنگ » وما حولها من قبل الخليفة ، وكان حانقا عليه ، فسلم حسام الدين « درتنگ » ـ دون تردد ـ إلى ابنه الأمير سعد ، وحضر بنفسه لتقديم الطاعة لهولاگو ، فشمله بكثير من العطف والرعاية ، وأذن له بالعودة ، ومنحه حصنى « ورودة » و « مرج » وعدة قلاع أخرى ، ثم قفل راجعا ، فأرسل إلى كل قلعة جيشا لخضع له أهلها جميعا ، وسلموا له القلاع .

ولما تحققت أمنية حسام الدين التى طالما تمناها ، وتجمعت عنده جنود سليمان شاه تعاظم وتكبر ، وأرسل ابن صلاية العلوى إلى حاكم إربل، ليصلحه مع ديوان الخليفة وقال :

« لقد قدَّرْتُ هولاگو خان وماهو عليه من كفاءة وكياسة ، ومهما يكن له من العنف والتهديد ، فليس له عندى قدر ولا وزن . فلو طيب الخليفة خاطرى ، وطمأن قلبى ، و بعث إلىّ بجيش من الفرسان ؛ لجمعت أنا أيضا

مايقرب من مائة ألف من فرق المشاة من كرد وتركمان ، ولسددت الطرق فى وجه هولاكو خان ، ولا أدعُ أى مخلوق من جنده يدخل بغداد » .

فعرف ابن صلايا الوزير بذلك ، فعرضه هذا بدوره على الخليفة ، فلم يبد اهتماما كثيرا . ولما بلغ هولاكو خان هذا الكلام، ثارت سورة غضبه ، وأوفد كيتو بوقا مع ثلاثين ألفا من الفرسان لدفعهم . وعند ما اقترب منهم استدعى حسام الدين قائلا : « لقد صممنا على قصد بغداد ، ونحن فى حاجة إلى مشاورتك » فحضر حسام الدين دون تفكر أو تدبير ، وأوكل به كيتو بوقا وقال : « إذا أردت النجاة والبقاء حاكما على هذه القلاع ، فأنزل نساءك وأبناءك وأتباعك وجنودك جميعا من هذه القلاع لكى أحصيهم ، وأقرر لهم الأموال والمؤن » . فلم يجد حسام الدين بدا من الطاعة ، وأحضرهم جميعا . فقال كيتو بوقا : « إذا كانت ميولك مخلصة للملك، فمر بتخريب جميع القلاع ليتحقق هذا المعنى» . فأدرك أن كلماته التافهة بلغت مسامعهم ، فيئس من حياته الغالية، وأرسل من يهدم كل القلاع . ثم قتله المغول مع كافة أتباعه ، وأشياعه ، ماعدا أهل القلعة التى كان فيها ابنه الأمير سعد ، فقد طلبوا إليه التسليم تخويفا وإرهابا ، فلم يجبهم وقال : « إن عهدكم غير صحيح ، ولا أثق به » . ثم ظل يتجول مدة خليع العذار فى تلك الجبال ، وأخيرا سار إلى بغداد ، ولقى من ديوان الخليفة حسن الاستقبال ، إلى أن قتل فى حرب بغداد . وعاد كيتو بوقا مظفرا منصوراً إلى حضرة هولاكو ، وكان الخان يتشاور مع أركان الدولة وأعيان

الحضرة فى أمر تصميمه على الزحف إلى بغداد ، فكان كل منهم يبدى رأيه حسب مايعتقد . ثم طلب حسام الدين المنجم الذى كان مصاحبا له بأمر القاآن، ليختار وقت النزول والركوب، وقال له : « بيّن كل مايبدو لك فى النجوم دون مداهنة » . ولما كانت له جرأة بسبب تقربه ؛ فقد قال للملك بصورة مطلقة إنه ليس ميمونا قصد أسرة الخلافة ، والزحف بالجيش إلى بغداد ؛ إذ أن كل ملك – حتى زماننا هـذا – قصد بغداد والعباسيين ، لم يستمتع بالملك والعمر . وإذا لم يصغ الملك إلى كلامى ، وذهب إلى هناك ، فستظهر ستة أنواع من الفساد :

أولها : أن تنفق الخيول كلها ، ويمرض الجنود .

ثانيها : أن الشمس لاتطلع .

ثالثها : أن المطر لا ينزل .

رابعها : تهب ريح صرصر ، وينهار العالم بالزلزال .

خامسها . لا ينبت النبات فى الأرض .

سادسها : أن الملك الأعظم يموت فى تلك السنة .

فطلب منه هولاكو خان شهادة بصحة هذا الكلام ، فكتبها المسكين . وقال اللامات (بخشيان) والأمراء : إن الذهاب إلى بغداد هو عين المصلحة .

بعد ذلك استدعى هولاكو خان الخواجه نصير الدين الطوسى واستشاره، فخاف الخواجه ، وظن أن الأمر على سبيل الاختبار ، فقال : « لن تقع أية واقعة من هـذه الأحداث » . فقال هولاكو : « إذن ماذا يكون . . . . » قال :

« إن هولاكو خان سيحل محل الخليفة » . ثم أحضر هولاكو « حسام الدين » ليتباحث مع الخواجه الذى قال : « لقـــد استشهد جمع كثير من الصحابة باتفاق آراء الجمهور وأهل الإسلام ، ولم يحـــدث فساد قط . ولو قيل إن للعباسيين مكرمة خاصة بهم ، فإن طاهرا جاء من خراسان بأمر المأمون ، وقتل أخاه محمدا الأمين ، وقتل المتوكلَ ابنُه بالاتفاق مع الأمراء . كذلك قتل الأمراء والغلمان المنتصر والمعتز ، وقتل عدد من الخلفاء على يد جملة أشخاص . فلم تختل الأمور .

شعر :

فأضاء قلب الملك من قول العالم ،

كأنه زهرة اللعل فى الربيع الباكر .

تصميم هولاكوخان ، وتحركه بعد ذلك إلى بغداد ، وزحف الجيوش من كل ناحية وصوب ، إلى مدينة السلام والاستيلاء عليها ، وانتهاء الدولة العباسية

بعد ذلك عقد هولاكوخان النية على فتح بغداد ، فأمر بأن تتحرك جيوش جرماغون وبايجو نويان اللذين كانت معاقلهما فى بلاد الروم ، وأن تسير على الميمنة إلى الموصل عن طريق اربل ، ثم تعبر جسر الموصل ، وتعسكر فى الجانب الغربى من بغداد وذلك فى وقت معين ، حتى إذا قدمت الرايات من المشرق ، تخرج إليها من تلك الناحية .

ويسير الأمراء « بلغا بن شيبان بن جوجى » « وتوتار بن سكنقور بن جوجى » « وقولى بن أورده بن جوجى » « وبوقاتيمور » « وسونجاق » من الميمنة أيضا ، ويدخلون من مضيق سونتاى نويان إلى ناحية هولاكوخان . أماقوات « كيتو بوقانويان » « وقدسون » « ونرك ايلكا » على الميسرة ، فكانت تزحف من حدود لرستان وبيات وتكريت وخوزستان حتى ساحل عمان . ثم ترك هولاكوخان المعسكرات والأفواج فى مرج « زكى » من ضواحى همدان ، وأمر عليهم « قياق نويان » .

وفى أوائل المحرم سنة ٦٥٥/١٢٥٧ ــ ٥٨ سار بالجيوش فى القلب الذى يسميه المغول « قول » عن طريق كرمانشاهان وحلوان . وكان فى ركابه كبار

الأمراء : كوكا إيلكا وأرقتو وأرغون آقا ، ومن الكتاب : قراتاى وسيف الدين البيتكچى المدبر لشؤن المملكة ، والخواجه نصير الدين الطوسى ، والصاحب السعيد علاء الدين عطا ملك الجوينى ، مع كافة السلاطين والملوك وكتاب بلاد إيران .

وعند ما بلغ أسد آباد ، أوفد رسولا لدعوة الخليفة مرة أخرى للحضور ، فكان يماطل ويتعلل ، ووصل ابن الجوزى إلى دينور للمرة الثانية قادما من بغداد ، يحمل رسالة بالوعد والوعيد ، وملتمسا أن يعود هولاكوخان ويتراجع ، فى مقابل أن يسلم الخليفة للخزانة ، كل مايقرره هولاكوخان. فظن هذا أن الخليفة يريد من وراء عودة الجيوش ، أن يعد جنده ويهيئهم لمقاومة المغول ، فقال : « وكيف نترك زيارة الخليفة ، بعد كل ماقطعناه من هذا الطريق . سوف نعود بإذنه بعد الحضور للقائه والتحدث معه » .

وقد تحرك جنود المغول من هناك إلى جبال الأكراد ، ونزلوا بكرمانشاه فى السابع والعشرين من الشهر ، وقاموا بالقتل والسلب ، وأرسلوا رسولا ليحضر على الفور الأمراء سونجاق وبايجونويان وسونتاى ، فوصلوا إلى الحضرة فى طاق كسرى . ثم قبضوا على « ايبك الحلبى » وسيف الدين قلج ، اللذين كانا من طلائع جيش الخليفة ، وأحضروهما إلى الحضرة ، فأعطى هولاكوخان الأمان لأيبك ، وفى نظير ذلك قبل أن يقول الصدق . ثم جعلهما هولاكوخان مرشدين لطلائع قوات المغول . بعد ذلك أعاد الأمراء برموقين

بالعطف والرعاية ، ليعبروا نهر دجلة ، ويتوجهوا إلى غرب بغداد ، وأحرقوا أكتاف الأغنام جريا على عادتهم ، ثم عادوا وعبروا نهر دجلة قاصدين غرب بغداد .

وفى تلك الجهة كان قائد الطلائع لجند الخليفة ببغداد، هو قبچاق المعروف بقراسنقر . أماسلطان جوق الذى كان من نسل الخوارزميين ، فقد كان مع طلائع المغول ، فكتب هذا رسالة إلى قراسنقر يقول فيها :

« إننى وأنت من جنس واحد ، وبعد البحث والتدقيق، التحقت بخدمة هولاكو ، بسبب الفقر والاضطرار ، ودخلت فى طاعته . وهو الآن يعاملنى معاملة طيبة . فأنقذ أنت أيضا حياتك وترفق بها ، وأشفق على أولادك ، وقدم الطاعة ؛ حتى تأمن على دارك وأولادك ومالك وروحك من هؤلاء القوم » .

فكتب قراسنقر مجيبا :

« من يكون هؤلاء المغول، حتى يقصدوا أسرة العباسيين .. لقد شاهدت هذه الأسرة ، الكثيرين من أمثال دولة چنگيزخان ، وإن أساسها لأكثر إحكاما ورسوخا من أساس أسرة چنگيزخان ، التى تترنح من كل ريح عاصف. ثم إن العباسيين قد استمروا حكاما أكثر من خمسمائة سنة ، وكل مخلوق قصدهم بسوء قضى عليه الزمان . وإذن فليس من العقل والكياسة، أن تدعونى لأنضم إلى جانب الغصن الغض لدولة چنگيزخان ، وكان الأولى بالود

والمسالمة ، ألا يتجاوز هولاكوخان الرى بعد فراغه من فتح قلاع الملاحدة ، وأن يعود إلى خراسان وتركستان، لأن قلب الخليفة متأثر وساخط بسبب زحف هولاكو بجيوشه . فإذا كان هولاكو نادما حقا على فعلته ، فعليه أن يعيد الجيش إلى همدان ؛ لكى نجعل الدواتدار شفيعا ، فيتضرع بدوره إلى الخليفة، عله يزول ألمه ، و يقبل الصلح ، فيغلق بذلك باب القتال والجدال » .

فلما عرض سلطان جوق تلك الرسالة على هولاكو ، ضحك وقال « إن اعتمادى على الله لا على الدرهم والدينار . فإذا كان الله الأزلى مساعدا لى ومعينا، فماذا أخشاه من الخليفة وجيشه . . »

شعر :

ـ تتساوى فى نظرى النملة والبعوضة والفيل ،

كما يتساوى الينبوع والنهير والبحر والنيل .

ـ ولو كان أمر الله على خـــلاف ذلك ،

فمن يدرى سواه كيف يكون ذلك الكلام . .

ثم أرسل من جديد رسولا يقول :

« إذا كان الخليفة قد أطاع فليخرج ، و إلا فليتأهب للقتال ، وليحضر إلينا قبل كل شىء ، الوزير وسليمان شاه والدواتدار ليسمعوا مانقول » .

وفى اليوم التالى سار هولاكو وعسكر على شاطىء نهر حلوان، فى التاسع من ذى الحجة سنة ٦٥٥/١٢٥٧ ، حيث أقام إلى الثانى والعشرين من

ذلك الشهر . وفى هــذه الأيام استولى كيتو بوقا على كثير من بلاد لرستان طوعا وكرها .

وفى الحادى عشر من شهر جقشاباط ، من سنة موغا « موغاييل » ،الموافق التاسع من المحرم سـنة ٦٥٦ - ١٢٥٨ ، عبر بايجو نويان وبوقاتيمور وسونجاق فى الوقت المقرر - نهر دجلة ، عن طريق نهر دجيل ، ووصلوا إلى نواحى نهر عيسى . وقد التمس سونجـاق نويان إلى بايجو ، أن يكون قائداً لجيش غرب بغداد ، ثم سار بعد الاستئذان وجاء إلى حربية .

وقبل ذلك كان مجاهد الدين أيبك الدواتدار، الذى كان قائداً لجيش الخليفة ومعه « ابن كر » ، قد أقاما معسكرهما بين بعقوبه و باجسرى .

وحينما سمعا بمجىء المغول إلى الضفة الغربية عبرا نهر دجـلة ، وحاربا سونجاق و بوقاتيمور فى حدود الأنبار ، على باب قصر المنصور فى أعلى المزرفة، على تسعة فراسخ من بغداد ، فلوى جنود المغول العنان، وجاءوا إلى بشرية من ناحية دجيل . فلمـا لحقوا ببايجو ، ووصل هؤلاء أعادوهم . وفى تلك النواحى، كان يوجد نهر كبير ، ففتح المغول السد المقام عليه ، فغمرت المياه كل الصحراء الواقعة خلف جيش بغداد . وفى فجر يوم الخميس من نهار عاشوراء ، دهم بايجو و بوقا تيمور الدواتدار وابن كر ، وانتصرا عليهما ؛ فهزم جيش بغداد ، وقتل فتح الدين بن كر وقرا سنقر، اللذان كانا قائدى الجيش، مع اثنى عشر ألف رجل فضلا عمن غرق ، أو قضى نحبه فى الوحل .

أما الدواتدار فقد فر هارباً مع نفر ضئيل ، وعاد إلى بغداد ، كما هرب البعض إلى الحلة والكوفة . وفى يوم الثلاثاء منتصف المحرم ، قدم بوقاتيمور و بايجو وسونجاق إلى بغداد ، واستولوا على الجانب الغربى ، ونزلوا فى أحياء المدينة على شاطئ نهر دجلة ، ووصل أيضاً بوقانويان والأمراء الآخرون من ناحية « نجاسية » وصرصر بجيش عظيم ، وترك هولاكوخان معسكراته فى خانقين ، وواصل سيره إلى بغداد ، ونزل فى الجهة الشرقية منها ، فى السابع من شهر جقشاباط من سنة موغا ، الموافق الحادى عشر من المحرم سنة ٦٥٦ — ١٢٥٨ . ثم تدفق جيش المغول كالنمل والجراد من كل جهة وناحية ، فحاصروا أسوار بغداد ، واحتموا بجدار أقاموه .

وفى يوم الثلاثاء الثانى والعشرين من المحرم شرعوا فى الحرب ، والتحم الجيشان . وكان هولاكو فى القلب من طريق خراسان ، على الجانب الأيسر من المدينة ، فى مقابل البرج العجمى ، وكان ايلكا نويان وقربا على بوابة كلواذى . أما قولى و بولغا وتوتار وشيرامون وأرقيو ؛ فقد نزلوا فى عرض المدينة فى مواجهة بوابة سوق السلطان ، وكان بوقاتيمور يقف فى جهة القلعة وجانب القبلة ، بموضع « دولاب بقل » ، وكان بايجو وسونجاق يرابطان فى الجانب الغربى ، حيث مارستان العضدى . وكان الجميع يحاربون ، وقد صوبوا المجانيق مباشرة تجاه برج العجمى ، حتى أحدثوا فيه ثغرة .

وعندئذ أرسل الخليفة الوزير والجاثليق إلى هولاكو يقول :

« إن الملك قد أمر بأن أبعث إليه بالوزير ، وها أنا ذا قد لبيت طلبه ؛ فينبغى أن يكون الملك عند كلمته » .

فرد الملك قائلا :

« إن هذا الشرط طلبته وأنا على باب همدان . أما الآن فنحن على باب بغداد ، وقد ثار بحر الاضطراب والفتنة ؛ فكيف أقنع بواحد؟ ينبغى أن ترسل هؤلاء الثلاثة يعنى الدواتدار وسليمان شاه والوزير »

ثم ذهب الرسل إلى المدينة . وفى اليوم التالى خرج إلى هولاكو، الوزير وصاحب الديوان ، وجمع من المعارف والمشاهير ، ولكنه أعادهم . وقد دارت حرب طاحنة مدة ستة أيام . ثم أمر الملك بأن يكتب ستةمنشورات؛ تفيد بأن القضاة والعلماء والشيوخ والسادات والتجار ، وكل من لايحار بنا ، لهم الأمان منا ، وربطوا هذه المنشورات بالنبال ، وألقوها على المدينة من جوانبها الستة . ولما لم تكن توجد حجارة للمجانيق فى أطراف بغداد ، فإنهم كانوا يأتون بها من جبل الحمرين وجلولاء ، وكانوا يقطعون النخيل ، ويرمون بقطعها بدلا من الحجارة .

وفى يوم الجمعة الخامس والعشرين من المحرم ، هدم المغول برج العجمى . وفى يوم الاثنين الثامن والعشرين ، وحيث كان يقف هولاكو ، تسلق جنود المغول السور عنوة ، وطهروا أعالى الأسوار من الجند . لكنهم لم يتسلقوا الأسوار من ناحية سوق السلطان ، حيث كان يحارب بولغا وتوتار

فعاتبهم السلطان . كذلك لم يذهب أتباعهم . وفى المساء تسلم المغول جميع الأسوار الشرقية .

بعد ذلك أمر هولاكو خان بأن يقيموا جسرا فى أعلى بغداد، وآخر فى أسفلها وأن يعدوا السفن ، و ينصبوا المجانيق ، و يعينوا المستحفظين ، وكان بوقا تيمور قد رابط مع عشرة آلاف جندى على طريق المدائن والبصرة ، ليصد كل من يحاول الهرب بالسفن . ولما حمى وطيس الحرب فى بغداد ، وضاق الحال على الأهالى ، أراد الدواتدار أن يركب سفينة ، وأن يهرب إلى ناحية « سيب » . ولكنه بعد أن اجتاز قرية « العقاب » ، أطلق جند بوقا تيمور حجارة المنجنيق والسهام وقوارير النقط ، واستولوا على ثلاثة سفن ، وأهلكوا من فيها ، وعاد الدواتدار منهزما .

فلما وقف الخليفة على تلك الحال ، يئس نهائيا من الاحتفاظ ببغداد ، ولم ير أمامه مفرًّا ولا مهربا قط، فقال :

« سأسلم وسأطيع » . ثم أرسل فخر الدين الدامغانى وابن درنوش، مع قليل من التحف إلى هولاكو ، زاعما أنه لو بعث بالكثير ، لكان ذلك دليلا على خوفه فيتجرأ العدو ، فلم يلتفت هولاكو إلى هذه الهدايا ، وعادا محرومين . وفى يوم الثلاثاء التاسع والعشرين من المحرم خرج من بغداد (للقاء هولاكو) ، أبو الفضل عبد الرحمن بن الخليفة الثانى ، بينما ذهب الوزير إلى المدينة ، وكان صاحب الديوان وجماعة من العظماء مع أبى الفضل ، وقد حملوا أموالا كثيرة ، فلم تقبل منهم أيضا . وفى غد ذلك اليوم، آخر المحرم خرج ابن الخليفة الأكبر

ومعه الوزير وجماعة من المقربين للشفاعة فلم يجدوا فائدة ، وعادوا إلى المدينة .

وقد بعث الملك الخواجه نصير الدين وايتيمور برسالة إلى الخليفة ، فخرجا فى صحبة رسل بغداد فى غرة صفر . وأرسل فخر الدين الدامغانى الذى كان صاحب الديوان ، وابن الجوزى وابن درنوش إلى المدينة ليخرجوا منها سليمان شاه والدواتدار ، ومنحهم فرمانا و پايزه تطميناً لهم و تقوية لموقفهم وقال : « إن الرأى للخليفة ، فله أن يخرج أولا يخرج ، وسيكون جيش المغول مقيما على الأسوار إلى أن يخرج سليمان شاه والدواتدار . وفى يوم الخميس غرة صفر خرج الرجلان ، فأعادهما مرة ثانية إلى المدينة ليخرجا أتباعهما حتى ينضموا إلى قوات مصر والشام ، وعزم جنـد بغـداد على الخروج معهم ، وكانوا خلقا لايحصى مؤملين أن يجدوا الخلاص ، فقسموهم ألوفا ومئات وعشرات وقتلوهم جميعا .

أما من بقى فى بغداد فقد هربوا إلى الأنفاق ومواقد الحمامات . ثم خرج جماعة من أعيان المدينة وطلبوا الأمان قائلين :

إن أناسا كثيرين طائعون خاضعون فليمهلوا ؛ لأن الخليفة سيرسل أبناءه، ويخرج بنفسه أيضا . وفى تلك الأثناء أصاب سهم عين « هندو البيتكچى » وكان من أكابر الأمراء ، فتملك هولاكوخان ، غضب عظيم وجد فى الاستيلاء على بغداد ، وأمر الخواجه نصير الدين بأن يقيم على بوابة الحلبة أمانا للناس ، فشرع الأهالى يخرجون من المدينة .

وفى يوم الجمعة الثانى من صفر قتل الدواتدار ، وجىء بسليمان شاه مع سبعمائة من أقاربه ، وكان مكبل اليدين ، فاستجوبه هولاكو قائلا :

«لقد كنت منجماً ، ومطلعاً على أحوال السعد والنحس للبلاد ، فكيف أنك لم تتنبأ بسوء مصيرك ، ولم تنصح مخدومك لكى يبادر إلينا عن طريق الصلح . . . . » .

فأجاب سليمان شاه : « لقد كان الخليفة مستبدا برأيه ، منكود الطالع ، فلم يستمع لنصح الناصحين » .

ثم أمر بقتله مع كافة أتباعه وأشياعه كما قتل الأمير تاج الدين بن الدواتدار الكبير ، وأرسل رؤوس هؤلاء الثلاثة على يد الملك الصالح بن بدر الدين لؤلؤ إلى الموصل . وكان بدر الدين صديقا لسليمان شاه فبكى ، ولكنه عاق رؤوسهم خوفا على حياته .

و بعد أن رأى الخليفة المستعصم أن الأمر قد خرج من يده ، استدعى الوزير وسأله : « ماتدبير أمرنا » . فأنشد الوزير هذا البيت فى جوابه :

يظنون أن الأمر سهل وإنما   هو السيف حدت للقاء مضاربه

و بعد خراب البصرة خرج ومعه أبناؤه الثلاثة : أبو الفضل عبد الرحمن وأبو العباس أحمد وأبو المناقب مبارك وكان ذلك فى يوم الأحد الرابع من صفر سنة ٦٥٦ / ١٢٥٨ وكان معه ثلاثة آلاف من السادات والأئمة والقضاة

والأكابر وأعيان المدينة . ثم قابل هولاكوخان ، فلم يبد الملك غضبا قط ، وكلمه بالحسنى ثم قال له بعد ذلك :

« مر حتى يضع سكان المدينة أسلحتهم ، ويخرجوا لكى نحصيهم » .

فأرسل الخليفة من ينادى فى المدينة ليضع الناس أسلحتهم ، ويخرجوا . فألقى الناس أسلحتهم زمرا زمرا ، وصاروا يخرجون ، فكان المغول يقتلونهم . ثم أمر بأن تقام الخيام للخليفة وأبنائه وأتباعه ببوابة كلواذى فى معسكر كيتوبوقا نويان ، ونزلوا فيها ، وعهدوا بحراستهم إلى عدد من المغول ، وكان الخليفة ينظر بعين الحقيقة إلى هلاكه ، ويأسف على تركه الحزم ، وإبائه قبول النصح .

شعر :

قال فى نفسه : لقد فاز عدوى إذ رآنى ،

قد وقعت فى الشرك كالطائر الحذر .

وكان بدء القتل العام والنهب فى يوم الأربعاء السابع من صفر ، فاندفع الجند مرة واحدة إلى بغداد ، وأخذوا يحرقون الأخضر واليابس ماعدا قليلا من منازل الرعاة ، وبعض الغرباء .

وفى يوم الجمعة التاسع من صفر دخل هولاكوخان المدينة لمشاهدة قصر الخليفة ، وجلس فى الميمنية ، واحتفل بالأمراء . ثم أشار بإحضار الخليفة ، وقال له :

« إنك مضيف ونحن الضيوف ! . . . فهيا أحْضِر مايليق بنا » . فظن الخليفة أن هـذا الـكلام على سبيل الحقيقة ، وكان يرتعد من الخوف ؛ وبلغ من دهشته أنه لم يعد يعرف مكان مفاتيح الخزائن . فأمر بكسر عدة أقفال ، وأحضر لهولاكو ألفي ثوب وعشرة آلاف دينـار ونفائس ومرصعات وعددا من الجواهر ، فلم يلتفت هولاكوخان إليها ومنحها كلها للأمراء والحاضرين ثم قال للخليفة :

« إن الأموال التي تملـكها على وجه الأرض ظاهرة ، وهي ملك عبيدنا . لـكن اذكر ماتملـكه من الدفائن . ماهي وأين توجد » . فاعترف الخليفة بوجود حوض مملوء بالذهب في ساحة القصر ، فحفروا الأرض حتى وجدوه . كان مليئا بالذهب الأحمر ، وكان كله سبائك تزن الواحدة مائة مثقال .

بعد ذلك صدر الأمر بإحصاء نساء الخليفة ، فعدوا سبعمائة زوجة وسرية وألف خادمة . فلما اطلع الخليفة على تعداد نسائه ، تضرع وقال : « مُنَّ على بأهل حرمي اللائي لم تطلع عليهن الشمس والقمر » . فقال له هولاكو : « اختر مائة من هـذه النساء السبعمائة ، واترك الباقي » . فأخرج الخليفة معه مائة امرأة من أقاربه ، والمحببات إليه . ثم رجع هولاكوخان إلى المعسكر ليلا . وفي الصباح أمر بأن يسير سونجاق إلى المدينة ، وأن يجرد أموال الخليفة ، ويخرجها . وقصارى القول أن كل ما كان الخلفاء قد جمعوه خلال خمسة قرون ، وضعه المغول بعضه على بعض فكان كجبل على جبل . وقد احترق أكثر

الأماكن المقدسة فى المدينة مثل جامع الخليفة ومشهد موسى الجواد عليه الرحمة وقبور الخلفاء .

وأخيرا أوفد سكان المدينه « شرف الدين المراغى » و « شهاب الدين الزنجانى » و « الملك دل راست » إلى هولاكو وطلبوا الأمان ؛ فصدر الأمر بالتوقف من بعد ذلك عن القتل والنهب ، لأن بغداد أصبحت ملكا لنا . فليستقر الأهالى ، ولينصرف كل شخص إلى عمله . وبهذا وجد الأمان أولئك الذين نجوا من السيف .

وفى يوم الأربعاء الرابع عشر من صفر ، رحل هولاكوخان عن بغداد بسبب عفونة الهواء ، ونزل بقريتى « وقف وجلابية » ، وأرسل الأمير عبد الرحمن لفتح ولاية خوزستان ، ثم استدعى الخليفة ، فأدرك هذا أن أمارات النحس تبدو على مصيره ، وخاف خوفا شديدا ، وقال للوزير : « ماحيلتنا » . فأجاب الوزير : « لحيتنا طويلة » . وكان مراده من ذلك أنه عندما فكر أول الأمر فى أن ترسل أحمال وفيرة لدفع هذا البلاء ، قال الدواتدار : « لحية الوزير طويلة » ؛ وحال دون الأخذ بهذا الرأى ، واستمع الخليفة لكلامه ، وأهمل تدبير الوزير .

ويئس الخليفة من إنقاذ حياته ، واستأذن فى أن يذهب إلى الحمام ليجدد اغتساله . فأمر هولاكوخان بأن يذهب مع خمسة من المغول . ولكن الخليفة

قال : « أنا لا أريد أن أذهب بصحبة خمسة من الزبانية » ، وكان ينشد بيتين أو ثلاثة من قصيدة هذا مطلعها :

وأصبحنا لنا دار كجنات وفردوس   وأمسينا بلا دار كأن لم نغن بالأمس

وفى مساء الأربعاء الرابع عشر من صفر سنة ٦٥٦ قضوا على الخليفة وعلى ابنه الأكبر ، وخمسة من الخدم كانوا فى خدمته فى قرية « وقف » . وفى اليوم التالى قتلوا الذين كانوا قد نزلوا معه فى بوابة كلواذى . كذلك قضوا على كل شخص وجدوه حيا من العباسيين اللهم إلا أفرادا قلائل لم يأبهوا بهم . وقد سلم مباركشاه الابن الأصغر للخليفة إلى « اولجاى خاتون » ، فأرسلته إلى مراغة ليكون مع الخواجه نصير الدين ، ثم زوجوه من امرأة مغولية ، فأنجب منها ولدين .

وفى يوم الجمعة السادس عشر من صفر ألحقوا الابن الثانى للخليفة ، بوالده وأخيه . وبذلك قضى على دولة خلفاء آل العباس الذين حكموا بعد بنى أمية . وكانت مدة خلافتهم خمسا وعشرين وخمسمائة سنة ، وعددهم سبعة وثلاثون خليفة حسب ما يأتى بالتفصيل .

السفاح ، المنصور ، المهدى ، الهادى ، الرشيد ، الأمين ، المأمون ، المعتصم ، الواثق ، المتوكل ، المنتصر ، المستعين ، المعتز ، المهتدى ، المعتمد ، المعتضد ، المكتفى ، المقتدر ، القاهر ، الراضى ، المتقى ، المستكفى ، المطيع الطائع ، القادر ، القائم ، المقتدى ، المستظهر ، المسترشد ،

الراشد ، المقتـفى ، المستنجـد ، المستضىء ، الناصر ، الظاهر ، المستنصر ، المستعصم الذى كان خليفة لفترة سبع عشرة سنة .

وفى نفس اليوم الذى قتلوا فيه الخليفة ، أرسلوا إلى المدينة مؤيد الدين بن العلقمى ليقوم بالوزارة ، وفخر الدين الدامغانى ليـكون صاحب الديوان ، وجعلوا على بهادر شحنة لها ، وعينوا المحتسبين لمراقبة المقاييس والأوزان ، ونصبوا عماد الدين عمر القزوينى نائبا للأمير « قراتاى » ، وهو الذى عمر مسجد الخليفة ومشهد موسى الجواد . كذلك نُصِّب نجم الدين أبو جعفر أحمـد بن عمران الملقب براست دل (المخلص) واليا على أعمال شرقى بغداد ، مثـل طريق خراسان وخالص و بندنجين ، وأمر هولاكو بأن يـكون نظام الدين عبـد المؤمن البندنجينى قاضيا للقضاة ، واختار ايلـكا نويان وقرابوقا ومعهما ثلاثة آلاف من فرسان المغول ، و بعث بهم إلى بغداد ليقوموا بالعمارة فى الحال ، وليعملوا على استتباب الأمن .

ثم بادر كل شخص بدفن قتلاه ، وطهرت الطرق من جثث الحيوانات النافقة ، وعَمُرت الأسواق . وفى يوم الخميس التاسع والعشرين من صفر حضر إلى الدركاه شرف الدين ابن الوزير وصاحب الديوان ، لتلقى التعليمات ثم عادا . وفى يوم الجمعة الثالث والعشرين رحل هولاكوخان ، ونزل بقبة شيخ المكارم ، ومن هناك كان يسير مرحلة بعد مرحلة إلى أن بلغ معسكراته فى خانقين .

وأثناء حصار بغداد كان قد قدم إليه بعض العلويين والفقهاء من الحلة ،

والتمسوا إليه أن يعين لهم شحنة ، فأرسل إليهم هولاكوخان بوكله والأمير بجلى النخجوانى ، وأوفد فى أثرهما بوقاتيمور أخا اولجاى خاتون لجس نبض أهالى الحلة والكوفة وواسط ، والوقوف على مدى إخلاصهم ، فاستقبل أهل الحلة الجند ، وأقاموا جسرا على الفرات ، وأقاموا الأفراح ابتهاجا بقدومهم . ولما شاهد بوقاتيمور إخلاصهم وثباتهم ، رحل فى العاشر من صفر ، وتوجه إلى واسط فبلغها فى السابع عشر . ولكن أهلها لم يدخلوا فى الطاعة ، فأقام هناك ، واستولى على المدينة ، وشرع فى القتل والنهب ، فقُتِل مايقرب من أربعين ألف شخص . ثم سار من هناك إلى خوزستان ، واصطحب معه شرف الدين بن الجوزى حتى مدينة ششتر . وقد فر بعض جنود الخليفة والأتراك من أتباعه ، وقتل بعضهم . ودخلت البصرة وما حولها فى الطاعة ، والتمس الأمير سيف الدين البيتكچى إلى الحضرة أن يرسل مائة مغولى إلى النجف ليحافظوا على مشهد أمير المؤمنين على رضى الله عنه ، وعلى أهل تلك البلدة . وفى الثانى عشر من ربيع الأول وصل بوقاتيمور إلى المعسكر .

وفى التاسع عشر من ربيع الأول أعاد هولاكوخان رسل حلب الذين كانوا قد قدموا إلى بغداد ، وحملهم رسالة كتبها بالعربية الخواجه نصير الدين الطوسى بأمر هولاكو ، وهذا نصها :

« أما بعد فقد نزلنا بغداد سنة ست وخمسين وستمائة فساء صباح المنذرين ، فدعونا مالكها فأبى فحق عليه القول فأخذناه أخذا وبيلا . وقد دعوناك إلى

طاعتنا فإن أتيت فروح وريحان ، وإن أبيت فخزى وخسران . فلا تكن كالباحث عن حتفه بظلفه ، والجادع مارن أنفه بكفه فتكون من الأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا . فما ذلك على الله بعزيز والسلام على من اتبع الهدى » .

وفى يوم الأربعاء الحادى عشر من شهر ربيع الآخر ، وصل هولاكو إلى « اغروق » من ضواحى همدان وسياه كوه . ثم توقف عن الرحيل ؛ إذ انحرفت صحته مدة أسبوع ، استعاد بعدها صحته . وفى السادس عشر من ربيع الآخر توفى كوكه بيتكچى ، وفى يوم الأربعاء العشرين من هذا الشهر حضر إلى الدرگاه ايلكا نويان و بعض الأمراء ، وفى يوم الخميس الثانى من جمادى الآخرة توفى مؤيد الدين وزير بغداد ، وعين ابنه شرف الدين فى مكانه .

سقوط مدينة إربل على يد أرقيو نويان
ومحاصرته قلعتها

فى الوقت الذى عزم هولاكوخان على فتح بغداد ، عهد إلى أرقيو نويان بفتح قلعة « إربل » . وتلك قلعة حصينة شيدت على مرتفع ، وليس لها نظير فى الربع المسكون . وعند ما شرع أرقيونويان فى محاصرتها ، بادر شجعان القلعة بالحرب . وقد قدم الصاحب تاج الدين بن صلاية الأربلى فروض الطاعة ، وقام بخدمات جليلة ، ولكن أرقيونويان قال له : « إن الدليل على صحة الطاعة هو تسليم القلعة » . فذهب تاج الدين إلى باب القلعة ، فلم يسمح له حشود الأكراد بالدخول ، وعاد مضطرا بعد كثير من الضغط والإلحاح . ثم قدم إلى أرقيو ، فأرسله بدوره إلى حضرة هولاكوخان. وعند محاكمته ثبت جرمه ، واستشهد . وقد ظل أرقيو يحاصر القلعة مدة ، ولكن لم يخضع أهلها على هـــذا النحو المطلوب ، فطلب المدد من السلطان بدر الدين ، فأرسل عددا من الجنود . وذات ليلة نزل أهل القلعة ، وشنوا غارة ليلية على المغول ، وقتلوا كل من وجدوه ، وأشعلوا النار فى المجانيق وأحرقوها ثم عادوا إلى القلعة .

فلما عجز أرقيوا استدعى بدر الدين لؤلؤ وتشاور معه . فقال له بدر الدين لؤلؤ : « التدبير هو أن تدع هـــذا العمل حتى الصيف ؛ لأن الأكراد

يفرون من الحر ، ويلجأون إلى الجبال . أما الآن فالجو معتدل ، وعندهم ذخائر وافرة ، والقلعة غاية فى الإحكام فلا يتيسر فتحها إلا بالحيلة والتدبير » . وأخيرا سلمها أرقيو إلى السلطان بدر الدين فهدم أسوارها . وبهذه الطريقة سقطت القلعة أيضا ، وسار أرقيو إلى الشام والسلام » .

« نقل أموال بغداد وقلاع الملاحدة إلى ناحية آذربيجان ، وخزنها
في قلعة جبل على ساحل بحيرة سلماس ، وقدوم بدرالدين لؤلؤ
وعز الدين سلطان الروم لتقديم الطاعة »

أرسل هولاكوخان الخزائن والأموال الوافرة التي أُتي بها من بغداد إلى أذربيجان،على يد الملك ناصر الدين بن علاء الدين صاحب الري، وكذلك كل ماغنمه من قلاع الملاحدة والروم والكرج والأرمن واللور والأكراد. وقد كلف الملك مجد الدين التبريزي ببناء عمارة عالية شديدة الإحكام، على جبل يقع على ساحل بحيرة أورمى وسلماس . ثم صهر الكنوز جميعاً ، وجعلها سبائك ووضعها هناك ، وأرسل بعضاً من تلك التحف والأموال إلى حضرة القاآن مع بشارات الفتح والظفر ، وأخبره بما كان من تسخير بلاد إيران ، وعزيمته على التوجه إلى ديار مصر والشام . وكان الأمير هولاجو قد ذهب لإبلاغ تلك الرسالة ، فسر القاآن بهذه البشرى سروراً شديداً .

وفي تلك السنة توجه بدر الدين لؤلؤ إلى الحضرة بناء على أمر هولاكوخان ، فجاء على عجل ، ووصل إلى الدركاه في ضواحي مراغه في التاسع والعشرين من شهر رجب سنة ٦٥٦ / ١٢٥٨ ، وكان قد جاوز التسعين ،

فشمله هولاگوخان بالإعزاز والتكريم الوافرين ، ثم أعاده فى السادس من شعبان من تلك السنة . كذلك جاء إلى الحضرة الأتابك سعد بن أبى بكر أتابك فارس فى السابع من شعبان المذكور للتهنئة بفتح بغداد ، فحظى بالعناية الخاصة ، وحضر أيضاً السلطان عز الدين صاحب الروم فى الرابع من ذلك الشهر فى مونيق من ضواحى تبريز ، ثم جاء فى إثره السلطان ركن الدين فى يوم الأربعاء الثامن من ذلك الشهر . وكان هولاگوخان ممتعضاً من السلطان عز الدين بسبب عدم اعتنائه ببايجو نويان وقتاله إياه . فلما فتحت بغداد ، خاف السلطان عز الدين خوفا شديداً ، وأراد أن يبحث له عن مخرج من ورطة هذا الذنب معتمداً على دقائق الحيل لكى ينقذ نفسه ، فأمر بصنع حذاء ملكى فى غاية الجودة ، ونقشت صورته على نعل ذلك الحذاء ، ثم قدمه للملك أثناء معاتبته إياه . وعندما وقع نظر هولاگو على تلك الصورة ، قبل عز الدين الأرض وقال : « إن أملى هو أن يُشَرِّفَ الملك رأس هذا العبد بوضع قدمه المباركة عليها » . فَرَقَّ له هولاگوخان ، ورفعت دوقوز خاتون من قدره ، وتشفعت له ، فعفا عنه .

وفى تلك الأثناء ذكر الخواجه نصير الدين الطوسى أن السلطان جلال الدين خوارزمشاه، وصل إلى تبريز على أثر هزيمته من المغول وظفرهم به، وكان جنوده يعتدون على الرعايا . فلما عرضوا عليه ذلك الأمر قال : « إننا فى هذا الوقت

غزاة فاتحون للبلاد ولسنا مدبرين لشئونها ، ولا يشترط عند الغزو مراعاة شئون الرعيــة ؛ فإذا ماصرنا حــكاما فإننا سوف نغيث الملهوفين » . . . . أما هولاكوخان فقد قال : « إننا بحمدالله فاتحون للبلاد ومدبرون لشئونها . نغزو الطغاة ، ونرعى شئون المطيعين ، ولسنا مثــل جلال الدين ــ مبتلين بالعجز والضعف » .

قصة مولانا السعيد سلطان الحكماء الخواجه
نصير الملة والدين ، و بناء المرصد فى مدينة
مراغة بأمر هولاكو خان

وفى التاريخ المذكور صدر الأمر بأن ينشىء مولانا الأعظم السعيد أستاذ البشر ، سلطان الحكماء ، الخواجه نصير الدين الطوسى ـ تغمده الله بغفرانه ـ مرصدا للكواكب فى الموضع الذى يراه مناسبا ، فاختار مدينة مراغة لهذا الغرض ، وشيد مرصدا مرتفعا . وكان السبب فى إقامة هذا المرصد ، هو أن منكوقا آن كان من بين ملوك المغول يمتاز بكمال العقل والكياسة ، وذكاء الذهن والفراسة بحيث كان يستطيع أن يحل بعض أشكال إقليدس ، فاقتضى رأيه السديد وهمته العالية أن يشيد مرصد فى عهده المبارك ، وأمر بأن يقوم بهذه المهمة جمال الدين محمد بن طاهر بن محمد الزيدى البخارى . ولكن اشتبهت عليه بعض الأعمال المتعلقة بهذا المرصد ، وكان صيت الفضائل الخواجه نصير الدين ذائعا فى كل مكان كأنه الريح الدائرة فى العالم .

فلما أن كان منكو يودع أخاه ، كلفه بأن يرسل إليه الخواجه نصير الدين بعد أن يستولى على قلاع الملاحدة . ولكن لما كان منكوقا آن مشتغلا فى ذلك الوقت بفتح ممالك « منزى » ، و بعيدا عن حاضرة ملكه ، فقد أمر

هولاكوخان بأن يشيد المرصد أيضا فى هذا المكان (أى إيران) ؛ ذلك لأنه كان قد اطلع على حسن سيدة نصير الدين ، وصدق سريرته ، فكان يريد أن يظل ملازما له . وقد أنشىء المرصد الإيلخانى بعد مضى سبع سنوات من جلوس هولاكوخان على العرش الخانى ، وكان ذلك بمشاركة الحكماء الأربعة مؤيد الدين العرضى وفخر الدين المراغى وفخر الدين الأخلاطى ونجم الدين دبران القزوينى والسلام .

توجه هولاكوخان إلى ديار الشام والاستيلاء على حلب ومدن الشام الأخرى

كان سلطان حلب قد أرسل وزيره الصاحب زين الدين الحافظى بتحف وهدايا ملكية إلى حضرة القاآن ، فعرف فى الدركاه واشتهر ؛ وصدر له فرمان وپايزه . ولما حل هولاكوخان ببلاد ايران ، كان سلطان حلب أحيانا — يظهر الطاعة والميل إليه فى الخفاء ؛ فاتهم لهذا السبب عند سلاطين الشام ، وقصدوه فهرب ، والتجأ إلى حضرة هولاكوخان ، فقوى ذلك من عزمه على فتح حلب .
فأرسل فى بادئ الأمر الرسل إلى بدر الدين لؤلؤ وقال له : « إن سنك قد جاوزت التسعين ولذلك أعفيناك من السير معنا . ولكن عليك أن تبعث بابنك الملك صالح مع الرايات الغازية لفتح ديار الشام ومصر » . فسير بدر الدين ابنه حسب الأوامر الصادرة إليه . ولما وصل الملك صالح إلى حضرة هولاكوخان ، منحه ابنة السلطان جلال الدين خوارزمشاه ليتزوج منها .

ثم أوفد كيتوبوقا نويان فى المقدمة مع جيش كامل ، وجعل سكنقور وباجو على الميمنة ، والأمراء الآخرين على الميسرة . وتوجه بنفسه فى القلب إلى ديار الشام ، فى يوم الجمعة الثانى والعشرين من رمضان سنة ٦٥٧ / ١٢٥٩

بطالع نجم العقرب . فلما وصل إلى « آلاتاغ » أعجبته مراعيها ، وسماها « لبنا ساغوت » . ثم دخل خلاط وجبال هكار (حكار) التى كانت مقرا ومفرًّا للأكراد الضالين ، فقتل المغول كل شخص وجدوه منهم .

وعندما بلغ ديار بكر ، فتح أولا « الجزيرة » ، وعين ابنه يشموت بصحبة سونتاى نويان لمحاصرة حصن ميافارقين ، وأرسل الملك الصالح بجيش لفتح آمد ، وتوجه بنفسه إلى « روحه » واستولى عليها ، ومنها سار إلى دُنَيْسر ونصيبين وحران ، وفتحها عنوة . ولقد قتل المغول ونهبوا ، وعبروا الفرات ، وفجأة حاصروا حلب . ولكن أهلها أبوا الخضوع والتسليم معتمدين على متانة قلعتهم ، وأقدموا على القتال .

وكان أرقيو نويان على بوابة اليهود ، وكيتوبوقا نويان على باب الروم ، وسونجاق على باب دمشق ، ونزل هولاكوخان على باب الأنطاكية . ثم شيدوا الأسوار حول المدينة ، وأقاموا المجانيق ، واشتبك الطرفان فى قتال عنيف مدة أسبوع . وأخيرا فتحت المدينة من ناحية باب العراق فى ذى الحجة سنة ٦٥٧ / ١٢٥٩ . وأباح المغول القتل والسلب سبعة أيام ، وقتل خلق كثير . ولكنهم استمروا يحاربون أهل القلعة مدة أربعين يوما ، فكانت المجانيق والسهام تتقاطر من الجانبين ، وجرح الأمير قورجيان واوجو سوكورجى وصادق قورجى الذين كانوا من قواد الجيش — فى عدة مواضع من أجسامهم وخاصة وجوههم فكان الملك يعطف عليهم و يشجعهم قائلا : « كما أن اللون

الأحمر يكون زينة النساء ، فكذلك للرجال تكون الدماء الحمراء على وجوههم ولحاهم زينة لهم » .

وقد سقطت القلعة آخر الأمر ، وأسر المغول كثيرا من أرباب الحرف ، واستولوا على غنائم لا حصر لها . ثم شغلوا مدة بمحاصرة قلعة حارم ، وأخيرا طلب أهلها الأمان لكنهم اشترطوا أن يقسم لهم فخر الدين المعروف بالساقى على الأمان لكى ينزلوا ، ثم سلموا بناء على عهده وأيمانه ، فكان أن غضب عليهم هولاكوخان غضبا شديدا ، وأمر بأن يقتلوا دفعة واحدة مع نسائهم وأطفالهم . ولم ينج منهم إلا صائغ أرمنى . ولما استولى المغول على قلعة حلب، سلمها هولاكوخان إلى فخر الدين الساقى ، وأسند شحنتها إلى توكال بخشى . و بعد أن غادر حلب ، قدم أهلها إليه الشكاوى من فخر الدين ، فصدر الأمر بقتله ، وعهد بحكومة حلب إلى زين الحافظى .

ولما أحس أهالى دمشق بالأهوال التى ارتكبها جيش المغول ، وعرفوا أن جميع أطراف الشام ونواحيها قد دخلت فى حوزة هولاكوخان ، قصد جمع من أكابرها وأعيانها إلى حضرة هولاكو ، ومعهم أنواع التحف والهدايا ومفاتيح بوابات المدينة ، وأظهروا الطاعة والخضوع ، وسلموا المدينة . فأمر هولاكوخان بأن يذهب كيتوبوقا إلى دمشق لاختبار أهلها ، فاستقبله أهل المدينة وطلبوا الأمان . ثم أرسل كيتوبوقا أشرافهم وأعيانهم إلى حضرة هولاكوخان ؛ فرق لهم ، وأشفق عليهم ، وأجاب ملتمساتهم . وهكذا دخل

المغول المدينة بلا حصار ولا قتال . وولى هولاكوخان عليها جماعة من المغول مع ثلاثة من المعاونين العرب هم علاء الدين الجاشى وجمال الدين القرقاى القزوينى والقاضى شمس الدين القومى فكانوا يصرفون الأمور فى مملكة دمشق .

وقصارى القول أنه خلال مدة وجيزة تم الاستيلاء على بغداد وديار بكر وديار ربيعة والشام بأسرها ، ودخلت فى حوزة نواب هولاكو ، وفتحت ممالك الروم .

وفى ذلك الوقت قدم الرسل من ناحية المشرق ، وكان فى طليعتهم « سنكتور نويان » الذى كان قد أقبل على عجل ، وأبلغ نعى منككوقاآن ، فامتعض هولاكوخان وتألم كثيرا ، ولكنه لم يظهر ذلك ، وترك كيتوبوقا نويان للمحافظة على الشام وغادر حلب . وفى يوم الأحد الرابع والعشرين من جمادى الآخرة سنة ٦٥٨ / ١٢٦٠ بلغ أخلاط .

ولما كان الملك ناصر الدين سلطان حلب والشام قد فر إبان وصول هولاكوخان إلى حلب ، ولجأ إلى قلعة كرك ، فقد أراد كيتوبوقا أن يحاصره ، فطلب الأمان وسلم نفسه ، فأرسله كيتوبوقا إلى الحضرة ، فوعده الملك قائلا : « عند ما أستولى على مصر ، سأفوض إليك حكومة الشام » .

وفى سنة پیچین (القرد) الموافقة سنة ٦٥٨ / ١٢٦٠ قضى جماعة من كبار الأمراء نحبهم كان من بينهم قورجى كوركان ، بوقاتيمور ، قوماى نويان ، أركاى نويان ، پیاچیتای نویان ، برونك بای نويان ، سالجنداى نويان . وكان هولاكو خان منغص العيش بسبب وفاة منكوقاآن وبسبب المتاعب التى أثارها أريق بوكا .

توجه كيتوبوقا نويان إلى مصر ومحاربته جيشها ثم قتله

فى الوقت الذى انصرف فيه هولاكو من الشام، أرسل رسولا مغوليا وبصحبته أربعون من الأتباع إلى سلطان مصر يقول :

« إن الله تعالى قد رفع شأن چنگيز خان وأسرته، ومنحنا ممالك الأرض برمتها، وكل من يتمرد علينا، ويعصى أمرنا، يقضى عليه مع نسائه وأبنائه وأقاربه والمتصلين به، وبلاده ورعاياه، كما بلغ ذلك أسماع الجميع. أما صيت جيشنا الذى لا حصر له؛ فقد بلغ الشهرة كقصة رستم واسفنديار. فإذا كنت مطيعا كخدم حضرتنا فأرسل إلينا الجزية، وأقدم بنفسك، واطلب الشحنة، وإلا فكن مستعدا للقتال » .

وفى ذلك الوقت لم يكن قد بقى من سلالة آل كامل (الأيوبيين) أحد جدير بالملك. وكان الحاكم رجلا من التركمان. فلما توفى ترك بعده طفلا صغيراً اسمه محمد، فأجلسوه على العرش فى مكان أبيه. وكان قطز أتابكا له. وفجأة توفى محمد، وصار قطز سلطانا لمصر؛ فاجتذب قلوب الناس بالعدل والإحسان.

وكان أكثر جيوش الشام ومصر من بقايا التركمان والمنهزمين من جيش

السلطان جلال الدين خوارزمشاه ممن هزموا على باب أخلاط فساروا نحو الشام . وكان فى مقدمة أمرائهم بركت خان والملك اختيار الدين خان ابن مِكرِل والملك سيف الدين صادق خان بن نيكوبوقا والسلطان ناصر الدين كشلو خان بن ايل ارسلان وأطلس خان وناصر الدين قيمرى . وحينما عزم هولاكو خان على المسير إلى الشام تواروا فى شتى الأطراف ، ولكنهم عادوا فتجمعوا بعد عودته ، واتجهوا إلى الحضرة فى مصر والقاهرة ، وشرحوا لقطز قصة غصتهم ، فطيب خاطرهم ، وعطف عليهم ، ومنحهم أموالا طائلة ، فاتفق جماتهم على أحقيته فى التملك والسيطرة .

ولما وصل رسل هولاكو خان ، أحضر قطز هؤلاء الأمراء ، واستشارهم فى الأمر وقال :

« لقد توجه هولاكو خان من توران إلى إيران بجيش جرار ، ولم يكن لأى مخلوق من الخلفاء والسلاطين والملوك طاقة على مقاومته ، واستولى على جميع البلاد ، ثم جاء إلى دمشق . ولو لم يبلغه نعى أخيه ، لألحق مصر بالبلاد الأخرى ، ومع هذا فقد ترك فى هذه النواحى كيتوبوقا نويان الذى هو كالأسد المصور ، والتنين القوى فى الكمين . وإذا قصد مصر ، فلن يكون لأحد قدرة على مقاومته . فيجب تدبر الأمر قبل فوات الفرصة » .

فقال ناصر الدين قيمرى :

« إن هولاكو خان فضلا عن أنه حفيد چنگيزخان وابن تولوى وأخو

منكوقا آن ، فإن شهرته وهيبته فى غنى عن الشرح والبيان ، وإن البلاد المتدة من تخوم الصين إلى باب مصر كلها فى قبضته الآن . وقد اختص بالتأييد السماوى . فلو ذهبنا إليه لطلب الأمان فليس فى ذلك عيب وعار . ولكن تناول السم بخداع النفس واستقبال الموت أمران بعيدان عن حكم العقل . إنه ليس بالإنسان الذى يطمأن إليه ، فهو لا يتورع عن احتزاز الرؤوس ؛ وهو لا يفى بعهده وميثاقه ، فإنه قتل فجأة خورشاه والخليفة وحسام الدين عكه ، وصاحب إربل بعد أن أعطاهم العهد والميثاق . فإذا ماسرنا إليه فسيكون مصيرنا هذا السبيل » .

فقال قطز : « والحالة هذه ، فإن كافة بلاد ديار بكر وربيعة والشام ممتلئة بالمناحات والفجائع ، وأضحت البلاد من بغداد حتى الروم خرابا يبابا ، وقضى على جميع مافيها من حرث ونسل خلت من الأزواج والأبقار والبذور . فلو أننا تقدمنا لقتالهم ، وقمنا بمقاومتهم ، فسوف تخرب مصر خراباً تاماً كغيرها من البلاد . وينبغى أن نختار مع هذه الجماعة التى تريد بلادنا واحداً من ثلاثة : الصلح أو القتال أو الجلاء عن الوطن . أما الجلاء عن الوطن فأمر متعذر ، ذلك لأنه لايمكن أن نجد لنا مفرا إلا المغرب ، وبيننا وبينه مسافات بعيدة » . فأجاب ناصر الدين قيمرى : « وليس هناك مصلحة أيضاً فى مصالحتهم إذ أنه لايوثق بعهودهم » . وقال أيضاً بقية الأمراء : « ليس لنا طاقة ولاقدرة على مقاومتهم فمر بما يقتضيه رأيك . عندئذ قال قطز :

« إن الرأى عندى هو أن نتوجه جميعاً إلى القتال . فإذا ظفرنا فهو المراد ، وإلا فلن نكون ملومين أمام الخلق » .

فاتفق الأمراء بعد ذلك ثم اختلى قطز بالبندقدار الذى كان أميرا للأمراء وشاوره فى الأمر ، فقال البندقدار :

« إنى أرى أن نقتل الرسل ، ونقصد كيتو بوقا متضامنين . فإن انتصرنا أو هزمنا فسوف نكون فى كلتا الحالتين معذورين » .

فاستصوب قطز هذا الكلام ، وأمر بصلب رسل المغول بالليل . وفى الصباح وطدوا العزم على الحرب بحكم الضرورة ، وتأهبوا للقتال ، ثم مضوا فى طريقهم .

فأرسل الأمير بايدر الذى كان فى طايعة جيش المغول بغزة إلى كيتو بوقا بالقرب من بعلبك ، يخبره بتحرك جيش مصر . فرد عليه كيتو بوقا قائلا : « قف مكانك وانتظر » . ولكن قطز داهم بايدر قبل وصول كيتو بوقا وطارده حتى نهر العاصى .

فصار كيتو بوقا كأنه بحر من اللهب بسبب الغيرة والغضب ، وأقبل معتمداً — إلى أقصى حد — على قوته وسطوته . وكان قطز قد عبأ الجيش فى كمين ، وأعده خير إعداد . ثم ركب هو بنفسه ، وثبت مع نفر قليل من الجند ، وقابل كيتو بوقا مع عدة آلاف من الفرسان كلهم من أهل الحرب والمراس — فى « عين جالوت » ، فقذف المغول سهامهم وحملوا على المصريين ، فتراجع قطز ، ولحقت بجنوده الهزيمة .

وهنا تشجع المغول وتعقبوه ، وقتلوا كثيراً من المصريين ، ولكن عند ما بلغوا الكمين ، انشق عليهم من ثلاث جهات ، وأغار المصريون على جنود المغول ، وقاتلوهم قتالا مستميتاً من الفجر حتى منتصف النهار ، ثم تعذرت المقاومة على جيش المغول ، ولحقت به الهزيمة آخر الأمر .

وكان كيتو بوقا يضرب يميناً وشمالا غيرة وحمية ، وكان يكر على أعدائه ، فرغبه جماعة من أتباعه فى الهرب ، ولكنه لم يستمع لهم وقال :

« لامفر من الموت هنا ، فالموت مع العزة والشرف خير من الهرب مع الذل والهوان . وسيصل رجل واحد ، صغيراً أو كبيراً ، من أفراد هذا الجيش إلى حضرة الملك و يعرض عليه كلامى قائلا : إن كيتو بوقا لم يشأ أن يتراجع وقد كلله الخجل فضحى بحياته الغالية فى سبيل واجبه . ينبغى ألا يشق على الخاطر المبارك نبأ فناء جيش المغول ، وليتصور الملك أن نساء جنوده لم يحملن عاماً واحداً ، وأن جياد قطعانه لم تلد المهور . فليدم إقبال الملك. ومادامت نفسه الشريفة آمنة وسالمة ، فإنها تكون عوضاً لكل مفقود ، إذ أن وجودنا وعدمنا نحن العبيد والأتباع أمر سهل يسير » .

ورغم أن جنوده تركوه وحده . فقد ظل يكافح ألف رجل إلى أن كبابه جواده فى نهاية الأمر فأسر . وكانت هناك مزرعة للقصب بالقرب من ساحة القتال ، فاختفى فيها فوج من فرسان المغول ، فأمر قطز جنوده بأن يضربوا فيها النار ، وأحرقوهم جميعاً .

بعد ذلك حمل كيتو بوقا مكبلا إلى قطز فقال له :

« أيها الرجل الناكث العهد . . هاأنت ـ بعد أن سفكت كثيرا من الدماء البريئة ، وقضيت على الأبطال والعظماء بالوعود الكاذبة ، وهدمت البيوتات العريقة ـ بالأقوال الزائفة المزورة ـ قد وقعت أخيرا فى الشرك » .

شــــعر :

« ـ وعندما سمع كلامه وهو مكبل اليدين ،
انتفض كأنه الفيــل الهـائج الثمــــل .
فأجاب قائلا : « أيها الفخور المغـــــتر ،
لا تتباهَ ـ كثيرا بيوم النصر هـــذا .

« فأنا إذا قتلت على يدك فإنى أعلم أن ذلك من الله لا منك . فلا تخدع بهذه المصادفة العاجلة ، ولا بهذا الغرور العابر ، فإنه حين يبلغ حضرة هولاكوخان نبأ وفاتى ؛ سوف يغلى بحر غضبه وستطأ سنابك خيل المغول البلاد من آذربيجان حتى ديار مصر ، وستحمل رمال مصر فى مخالى خيولهم إلى هناك . إن لهولاكوخان ثلاثمائة ألف فارس مثل كيتو بوقا . فافرض أنه نقص واحد منهم » .

فقال له قطز :

« لا تفخر إلى هــذا الحد بفرسان توران ؛ فإنهم يزاولون أعمالهم بالمكر والخداع لا بالرجولة والشهامة مثل رستم بن داستان » .

فرد عليه كيتو بوقا .

« إننى كنت عبدا للملك ماحييت ، ولست مثلك ماكرا وغادرا وقاتلا لمولاه :

شـــعر :

ـ « فلا كان رأس ، ولا كان جسد للشرير ،
الذى يقتــــل مليكه . . . . . » .

« بادر بالقضاء على بأسرع مايمكن حتى لا أسمع تأنيبك » .

فأمر قطز بقتله ففصلوا رأسه عن جسده ، وطارد المصريون المغول فى جميع أنحاء الشام حتى شاطىء النهر (الفرات) ، ثم نهبوا معسكر كيتو بوقا ، وأسروا النساء والأطفال والأتباع ، وقتلوا العمال وحكام الولايات ماعدا عمال دمشق الذين كانوا قد لاذوا بالفرار عندما علموا بالخبر فى تلك الليلة .

ولما بلغ هولاكوخان نبأ نعى كيتو بوقا ، وعلم بحديثه فى ذلك الموقف ، أسف أسفا شديدا على وفاته ، واشتعلت نيران غضبه وقال :

« أين أجد خادما آخر مثله يبدى مثل هذه النوايا الطيبة ، ومثل هذه العبودية ساعة هلاكه . . . » وقد شمل بعطفه من بقى من عقبه ، وأعزهم وأكرمهم .

وقبل ذلك بيوم واحد كان هولاكو قد أحاط الملك الناصر برعايته ، وفوض إليه حكومة دمشق ، وسيره فى ثلاثمائة فارس شامى . ولـكن بعد

أن وصله نبأ وفاة كيتو بوقا ، قال له رجل شامى : « إن الملك ناصر الدين ليس مخلصا لك . وقد أراد أن يفر إلى الشام لإمداد قطز الذى هزم كيتو بوقا بتدبيره» . فسيَّر هولاكوخان ثلثمائة فارس مغولى فى إثره ليتعقبوه . فلحقت به طلائعهم ، وأنزلوه من جواده قائلين : « إن لدينا أمرا يقضى بأن نحتفل بك كى تحظى بالعناية التامة » . ثم جعلوه ثملا ذاهلا جريا على عادة المغول . وفجأة وصل بقية الفرسان الثلثمائة ، وأهلكوا الملك الناصر مع ثلثمائة رجل شامى . و باستثناء مجد الدين المغربى الذى نجا بحجة اشتغاله بالتنجيم ــ لم يتركوا أى مخلوق آخر حيا . ولما سمع ايلكانو يان بوصولهم ، اتجه إلى بلاد الروم مع المغول الذين كانوا قد بقوا فى بلاد الشام . وفى دمشق ضربت السكة وقرئت الخطبة باسم البندقدار .

وقد أراد هولاكوخان أن يرسل الجنود مرة ثانية إلى الشام ومصر ؛ لينتقم لمقتل كيتو بوقا، ولكن لم تكن الظروف فى ذلك الوقت تسمح بذلك ؛ بسبب وفاة منكوقاآن ، و بسبب الخلاف الذى ظهر بينه وبين أقاربه . ولهذا عدل عن هذه الفكرة .

وفى ذلك التاريخ أيضا ، مات فجأة الأمير بلغا بن شيبان بن جوجى أثناء الاحتفال . ثم اتهم توتار اوغول بتهمة السحر وتغير النية ؛ فأرسله هولاكو بعد ثبوت جرمه فى صحبة سونجاق ــ إلى خدمة بركاى ، وعرض عليه جرمه ؛

فأعاده بركاى إلى هولاكو عملا بأحكام قانون چنگيزخان ، ثم قضى عليه فى السابع عشر من صفر سنة ٦٥٨ / ١٢٦٠ ، كما قتل صدر الدين الساوجى بحجة أنه كان قد كتب تعويذة من أجل توتار . ثم مات قولى أيضا . وبعد أن هلك الأمراء المذكورون هرب أتباعهم ، وساروا إلى ولاية القبچاق عن طريق دربند وبحر جيلان .

توجه الأمراء يشموت وايلكا نويان وسونتاى
إلى ديار بكر ، وفتح ميافارقين ،وقتل الملك الكامل

كان الأمراء يشموت وايلكا نويان وسونتاى قد ساروا بأمر هولاكوخان ، فلما بلغوا حدود ميافارقين أرسلوا رسولا إلى الملك الكامل ، ودعوه إلى الطاعة والخضوع . فأجاب الملك الكامل :

« ينبغى ألا يضرب الأمير فى حديد بارد ، ولا يتوقع الشىء المستحيل ، إذ لا يوثق بوعدكم . وإننى لن أنخدع بكلامكم المعسول ، ولن أخشى جيش المغول ، وسأضرب بالسيف مادمت حيا . إذ كيف أثق بابن رجل نكث العهد والميثاق مع خورشاه والخليفه وحسام الدين عكه وتاج الدين أربل . وقد جاء الملك الناصر الدين خصيصا بأمانكم فرأى فى نهاية الأمر مارأى . وسوف أرى أنا أيضا ماسبق أن رأوه » .

فلما بلغ الرسل الرسالة ، اتفق الأمراء على القتال. وقد طيب الملك الكامل قلوب سكان المدينة وقال :

« سوف لا أبخل عليكم بالذهب والفضة والغلال الموجودة فى المخازن ، وسأوثر بها كلها المحتاجين . فإنى بحمد الله لست كالمستعصم ــ عبداً للدينار

والدرهم ، الذى طوح برأسه و بملك بغداد بسبب بخله وشحه » . فاتحد معه سكان المدينة كلهم .

وفى اليوم التالى خرج الملك الكامل مع كوكبة من الفرسان ، وكر وفر على العدو ، فقتل عدد من الجانبين . وكان مع الملك الكامل فارسان مغواران : أحدهما سيف الدين لو كبلى والآخر عنبر الحبشى ، فقتلا عدة أشخاص . ثم ذهبوا بعد مدة إلى المدينة ، و بدأوا القتال من الأبراج . وفى اليوم التالى خرج هذان الفارسان ، وقتلا مايقرب من عشرة فرسان شجعان ، وكذلك فعلا هذا فى اليوم الثالث .

وفى اليوم الرابع تصدى لهما من جانب المغول « ناورى الكرجى » الذى كان يهزم جيشا بمفرده فحار بهما برهة ثم قتل . ولقتله :

« هاج فرسان الأتراك ،
وكانوا يضربون كفا على كف بدافع الانتقام »

ثم دخل الفارسان المدينة مرة أخرى ، وكان هناك منجنيق فى غاية الإحكام ودقة الرمى فأقاماه ، فكان يهلك بحجارته أناسا كثيرين . وهكذا عجز الأمراء عن إخضاعهما .

وكان لبدر الدين لؤلؤ منجنيقى ماهر جدا فأحضره ، وأقام منجنيقا مرتفعا فى مواجهة منجنيق المدينة . وأخذ كلاهما يطلق الحجارة من كفته فى وقت واحد ، فكان الحجران يصطدمان ببعضهما فى الهواء فيتفتتان . وقد

أعجب خلق كثير من الجانبين لمهارة المنجنيقين . وفى النهاية أحرق المنجنيق الخارجى ، وكان سكان المدينة يقاتلون بعنف .

فلما اطلع هولاكو خان على تلك الحالة ، أرسل أرقتو على رأس جيش لمساعدة ايلكانويان . وكانت رسالته تقضى بأن يثبتوا فى مكانهم حتى لايبقى فى المدينة عاف . وما كاد أرقتو يبلغ الرسالة ، حتى خرج الفارسان كلاهما أثناء الحديث ، وشتتا جنود المغول ، فتناول أرقتو الشراب حتى ثمل ، وتوجه إلى القتال ، والتحم الطرفان معا . وفجأة وصل الفارسان إلى إيلكا ، وألقياه عن صهوة جواده . فأقبل فرسان المغول من كل جانب ، وأركبوا إيلكا جواده . ومرة أخرى أهلك الفارسان خلقا كثيرا ثم عادا .

« فتعجب الأتراك من البطلين ،

وعض كل شجاع شفته حقدا وغيظا » .

بعد ذلك ظل الفارسان يخرجان كل يوم كالمعتاد ، ويقتلان عدة أشخاص ، ويجرحان آخرين حتى مضى عام بأكمله ، ولم يبق فى المدينة قوت ولا غذاء ، وهلكت الدواب كذلك ؛ فبدأ الناس يأكلون الميتة ، وأكلوا حتى الكلاب والقطط والفيران . ثم صاروا يأكلون الآدميين ، فكان كل منهم يأكل الآخر كالأسماك .

ولما لم يبق لدى الفارسين تبن وشعير قتلا جواديهما وأكلاهما ، وأرادا أن يخرجا مشاة ويقاتلا حتى يقتلا . ولكن الملك الكامل لم يسمح لهما بذلك .

وقد كتب الأفراد الباقون رسالة إلى الأمير يقولون فيها : «إنه لم يبق فى المدينة أحد له طاقة وقدرة ؛ ماعدا عدة أفراد هم أحياء بأرواحهم أموات بأجسادهم ، وصار الأب يأكل ابنه ، والأم تأكل ولدها . فلو أقبل الآن جيش فليس هناك مخلوق يستطيع مواجهته » .

ثم أرسل الأمير «يشموت أرقتو» . فلما دخل المدينة مع جنوده ، وجدوا جميع سكانها موتى ، وسقطت جثثهم بعضها فوق بعض ماعدا سبعين شخصاً نصف أحياء كانوا قد اختفوا فى المنازل ؛ فقبضوا على الملك الكامل وأخيه ، وجاءوا به إلى يشموت ، وشغل الجيش بالسلب والنهب . أما الفارسان المغواران ، فقد صعدا فوق سطح منزل ، وكانا يقتلان بسهامهما كل تركى يمر أمامهما ، فوصل أرقتو إلى هناك ، وكلف نفراً من الأتراك الشجعان بأن يقضوا عليهما . عندئذ نزل الفارسان من السطح، وتقنعا بالدروع ، وكانا يقاتلان بعنف ولكنهما قتلا فى نهاية الأمر .

ثم حمل الملك إلى الحضرة فى تل باشر على الضفة الأخرى من الفرات . وكان قد رحل قبل ذلك إلى حضرة القاآن ، ونال الرعاية ، وعاد بالفرمان والپايزه : وعند ما قصد هولاكوخان بغداد بعد ذلك ، ذهب الكامل إلى الشام لمقابلة الملك الناصر وقال له : « إن المصلحة تقضى بأن نذهب بجيش جرار لمدد الخليفة » . ولكن الناصر تغافل . فخاف الكامل بعد فتح بغداد ، وتمرد على هولاكوخان مدة عامين على النحو المذكور .

وعندما أسر واقتيد إلى الحضرة ، أخذ هولاكوخان يعد عليه جرائمه ،
وقال له : « ألم يعطف عليك أخى ، ويشملك برعايته ، ومنحك فرمانا أنت
وأهلك وأتباعك فهل يكون جزاؤه العصيان » ثم أمر بتقطيعه إربا
إربا ، كانوا يضعونها فى فمه حتى هلك فى سنة ٦٥٧/١٢٥٩ . وكان رجلا
زاهداً عابداً ، يعيش من أجر الحياكة .

توجه الأمير يشموت إلى ماردين
والاستيلاء على قلعتها

بعد أن فرغ الأمير يشموت والأمراء الآخرون من إنهاء الأمر فى ميافارقين ، أشار عليهم هولاكوخان بأن يسيروا متفقين لفتح ماردين حسب ما استقر عليه الرأى . وعند محاصرتها تعجبوا من ارتفاع قلعتها واستحكامها . فأرسل أرقتو نويان إلى الملك السعيد صاحب قلعة ماردين يقول له : « اهبط من القلعة ، وقدم الطاعة والولاء للملك العالم ، ليبقى لك رأسك ومالك ونساؤك وأبناؤك .

« مهما تكن قلعتك محكمة مرتفعة ،
فلا تغتر بأبراجها وارتفاعها »

ولو بلغتْ رأسُك السماء ، فإنها ستصير تراباً تحت أقدام جيش المغول ، فإن كان الإقبال والسعادة حليفين لك ؛ فعليك أن تستمع لنصحى وتعمل بموجبه . أما إذا لم تستمع وخالفت أوامرى ، فالله المتعال أعلم بما يحدث » .

فأرسل الملك السعيد يقول : « كنت قد عزمت على الطاعة والحضور إلى الملك ، ولكن حيث إنكم قد عاهدتم الآخرين ، ثم قتلتموهم بعد أن

اطمأنوا إلى عهدكم وأمانكم ، فإنى الآن لا أثق بكم . وإن القلعة ـ بحمد الله تعالى مشحونة بالذخائر والأسلحة ، ومليئة برجال الترك وشجعان الكرد » .

فأمر أرقتو بنصب المجانيق ، وواصلوا القتال بضرب الحجارة ورمى السهام ، واستمرت الحرب على أشدها بين الجانبين مدة ثمانية أشهر . وكان الملك السعيد مغروراً بمناعة القلعة . ولما عجز المغول عن الاستيلاء عليها ؛ أغاروا على مدن ماردين ودنيسر وأرزن القريبة منها .

وأخيراً ظهر الغلاء والقحط والوباء فى القلعة . فكان يموت فى كل يوم خلق كثير ، ومرض الملك السعيد ، وكان له ولدان : أكبرهما مظفر الدين ، وهو شاب عاقل كان يقول لوالده : « من المصلحة النزول من القلعة ، إذ ليس فى الإمكان مقاومة هذا الجيش » . فلم يصغ إليه والده ، فسقى الابن أباه دواء ساما أثناء الحديث فمات .

ثم أرسل الابن إلى أرقتو يقول : « لقد مات من كان يخالفكم . فلو صدر الأمر بتوقف الجيش عن القتال ، فإنى أنزل وأسلم القلعة . فأمر أرقتو بالكف عن القتال ، ونزل مظفر الدين مع أخيه وأتباعه . فطالبه الملك بدم أبيه قائلا : « هل يجيز أحد قط أن ابنا يقتل أباه ... » فأجاب : « إنما فعلت ذلك ، لأنى كلما تضرعت إليه ، وبكيت أمامه لكيلا يفرط فى القلعة وفى دماء الناس لم يستجب لى ، فأقدمت على هذا العمل الخاص من أجل المصلحة

العامة ، لأنى عرفت أن القلعة ستفتح بإقبال الملك ، وأنه سوف يُقتل عدة آلاف من الأبرياء . فالحقيقة أن التضحية بدم واحد خير من التضحية بمائة ألف ، خصوصاً وأنه كان ظالما معتديا . وقد قتل ابنه والناس غير راضين عنه ، وأنا العبد معترف بذنبى . فلو منحنى الملك مقام أبى ، فإن له مايشاء .

فعفا عنه هولاكوخان ، وسلمه مملكة ماردين ، فظل سلطانا عليها حتى سنة ٦٩٥/١٢٩٥-٩٦ ،ولم يسلك طريق البغى والعصيان أبداً ضد ملوك المغول. و بعد وفاته قام مقامه ابنه شمس الدين داوود ، ولما مات هذا حل محله نجله نجم الدين الملقب بالملك المنصور ، وهو ملك كامل عاقل وذو كياسة . كان مخلصاً لغازان خان إلى حد كبير فمنحه التاج والمظلة الملكية ، وجعله من خواص أقرانه ، وفوض إليه الملك فى كل ديار بكر وديار ربيعة .

وفاة السلطان بدر الدين لؤلؤ ، وحال ابنه الملك الصالح من حصوله على التكريم ، ثم تمرده وتخريب الموصل

حكم السلطان بدر الدين لؤلؤ مدة خمسين عاما ، ونال من الدنيا نصيبا موفورا . وقد توفى فى الموصل فى سنة ٦٥٩ / ١٢٦٠-٦١ على أثر عودته من حضرة هولاكو خان . وكانت سنه قد بلغت السادسة والتسعين ، ففوض هولاكو خان ملكه وسلطنته إلى نجله الملك الصالح . ولكنه ترك الموصل بعد مدة ، وسار إلى ديار الشام ومصر ؛ حتى سقط من أوج النجاح والتوفيق إلى حضيض الذل والهوان .

وقد عطف عليه ركن الدين بيبرس وأعاده مع ألف فارس ليأخذ الخزائن والدفائن القديمة والجديدة ، ويأتى بها . ولكن زوجته تركان خاتون بنت السلطان جلال الدين خوارزمشاه ، أرسلت رسالة إلى هولاكو خان تنبئه بسير زوجها إلى بلاد الشام ، فأوفد فى إثره الملك صدر الدين التبريزى مع عشرة آلاف من الجند العرب .

ولما وصل الصالح إلى مدينة الموصل ، سد المغول كل الطرق فى وجهه ، فنزل فى الجوسق ، وعمد إلى اللهو . وعندما ثمل بلغه قرع الطبول ونفخ

الأبواق الذهبية . وقد استولى الخوف والفزع على أهل الموصل بحيث إن الملك الصالح ذهب إلى المدينة ، وأغلق أبوابها . وكان فيها جيش كثيف من الأكراد والتركمان والشول ، فوزع عليهم الدراهم والدنانير ، وحرضهم على القتال وقال : « إن البندقدار سيمدنا بالجيش من مصر حينما يعلم بالأمر » .

ثم نزل جنود المغول حول المدينة ، وأقاموا المتاريس ونصبوا المجانيق على الجوانب . فبادر أهل المدينة بالقتال عملا بقول الصالح ، وأطلقوا حجارة المنجنيق من كل جانب ، وخرجت جماعة الأكراد للقتال . فدامت الحرب الحامية قرابة شهر . وذات يوم تساق الأسوار ثمانون من شجعان المغول ، فقضى أهل الموصل عليهم جميعا ، ورموا برؤوسهم إلى جيش المغول من أعلى الأبراج ، وتشجعوا بهذا الانتصار .

وفى أثناء القتال كان الملك صدر الدين قد خلع خوذته ، فمر سهم العجلة بمفرقه ، وأصابه بحيث سال الدم منه ، فقصد تبريز بإذن من سنداغو نويان . وفى « ألاتاغ » قدم إلى هولاكو خان ، وأبلغه صمود أهل الموصل ، فأرسل جيشا آخر لإمداد سنداغو نويان .

وعند ما علم البندقدار بموقف الملك الصالح ، أرسل « أغوش از برلو » على رأس جيش لإمداده . وعندما بلغ سنجار كتب « أغوش » رسالة إلى الملك الصالح بخبر وصوله ، وربطها فى جناح حمامة . ثم انطلقت الحمامة ولكن اتفق أن جاءت وحطت على منجنيق المغول ، فأمسكها المنجنيقى ، وحمل

الرسالة إلى سنداغو نويان . فلما قرأها عد ذلك من أمارات إقباله ، وسَيَّرَ على الفور عشرة آلاف جندى خص كل فرد منهم ثلاثة من الجياد . وبالقرب من سنجار انقسموا إلى ثلاث فرق ، وأعدوا كمينا ، وطاردوا الشاميين ، لكنهم ثبتوا وقاوموا المغول . وفجأة هبت ريح عاصف كانت تلقى الرمال والحصى فى عيون الشاميين فعجزوا عن مواصلة القتال ، فدهمهم المغول ، وقتلوا أكثرهم وفر الباقون . كما قتلوا كثيرا من أهل سنجار ، وأسروا النساء والأطفال . ومن ثم ارتدوا الملابس الشامية ، وأطلقوا شعورهم جريا على عادة الأكراد ، ثم توجهوا إلى الموصل ، وأخبروا سنداغو قائلين : « لقد انتصرنا فى الصباح ، وسنصل بالغنائم الكاملة ونحن على هذه الهيئة .

فلما اقترب المغول من الموصل فى اليوم التالى ، خرج سكان المدينة لاستقبالهم ظانين أنهم شاميون جاءوا لإمدادهم ، وأقاموا الأفراح بهذه المناسبة . فأحدق بهم جنود المغول من كل جانب ، ولم يتركوا واحدا منهم حيا . وبعد أن ظلوا يحاربون مدة ستة أشهر ، بلغت الشمس برج السرطان ، فأصبح الجو حارا جدا بحيث عجز الفريقان عن مواصلة الحرب . وعندما بلغت الشمس برج الأسد ، حدث بالمدينة قحط ووباء ، فتوجه الناس إلى الصحراء بسبب الجوع ، فصاروا طعمة لسيوف المغول . وأخيرا أرسل الملك الصالح إلى سنداغو نويان يقول : « إنى نادم على مافعلت ، وسأخرج إليك لأتلافى مافات ولكن بشرطين :

أحدهما : ألا تؤاخذنى بأخطائى السالفة .

وثانيهما : أن تبعث بى إلى هولاكو خان ، وتشفع لى عنده حتى لا يهدر دمى » .

فأمنه سنداغو على حياته ، وخرج يحمل الطيبات والهدايا . ثم تناول سنداغو هذه الطيبات ، ولم يسمح للصالح بالمثول أمامه ، وعهد إلى بعض المغول بحراسته .

وقد فتح المغول مدينة الموصل فى رمضان سنة ٦٦٠ / ١٢٦٢ ، وقتلوا بقية سكان المدينة بحد السيوف ، وأسروا بعضا من أرباب الحرف والصنائع بحيث لم يبق أحد فى الموصل . فلما رحل المغول عن المدينة ، خرج مايقرب من ألف شخص من بين الجبال والمغارات وتجمعوا .

ولما وصل سنداغو إلى الحضرة ، كان هولاكو خان غاضبا جدا على الصالح؛ فأمر بأن يدخلوا جسمه فى الدهن (اللِّيَّة) ، ويربطوا عليه باللبد والحبال بإحكام ، ويلقوا به فى شمس الصيف القائظ ، فاستحالت اللِّية بعد أسبوع إلى ديدان أخذت تلتهم جسم ذلك التعس؛ حتى فاضت روحه الغالية بعد شهر من ذلك البلاء . ثم بعثوا بابنه الذى كان فى الثالثة من عمره — إلى الموصل؛ ليقدوه نصفين على ساحل دجلة . وعلى سبيل الاعتبار علقوا جثته على الجانبين حتى تعفنت وتناثرت .

« لقد تعفن وتلاشى وسقط من هناك إلى أسفل ،

فيا أيها الفلك !... ألم تشبع من مثل هـذا العمل ...

ـ لقـد رَبَّيْتَ هـذا العزيز بلطف ودلال ،

ولكنك سلمته فى النهاية إلى أضراس الديدان » .

وقوع الخلاف بين هولاكوخان وبركاى ، وقدوم بوقاى لحرب هولاكو ، وهزيمته فى دربند

بعد أن استولى هولاكوخان على أكثر ممالك إيران ، وفرغ من أمر خصومه الذين كانوا قد بقوا فى بعض الأماكن ، انصرف إلى تنظيم الأمور وترتيب المملكة . لكنه استاء من تحكم بركاى .

ولما كان باتو قد بعث به فى صحبة منكوقاآن إلى قاعدة الملك فى قراقورم ليجلسوه على العرش بين كبار أسرته ، وظل ملازما للقاآن مدة ، فإنه قد اعتز بذلك ، وكان يرسل الرسل على التوالى إلى كل جانب . كما أخذ يتحكم فى كل أمر . فكان هولاكو يتحمل ذلك على اعتبار أنه أخوه الأكبر ، ولكن بعد موت اثنين من أقارب بركاى هما توتار و بلغا قبلى ، ظهر الحقد والشقاق بينهما وكان يتزايد يوما فيوما . وفى نهاية الأمر قال هولاكو « ولو أنه كبير الأسرة وسيدها إلا أنه لا يرعى الحياء والخجل ، ويخاطبنى بتهديد وعنف ، وإنى لن أحابيه بعد هذا » .

فلما علم بركاى بغضب هولاكو قال : « إنه قد دمر جميع مدن المسلمين ، وقضى على أسر ملوك الإسلام جميعهم ، ولم يميز بين الصديق والعدو ، وأعدم الخليفة دون مشورة كبار الأسرة . فلو أمدنى الله تعالى لطالبته بدماء الأبرياء » .

ثم أرسل فى الطليعة بوقا الذى كان قائدا لجيشه ، ومن أقارب توتار ليطلب دمه ، وكان مع بوقا ثلاثون ألف فارس ، فعبر دربند ، ونزل بظاهر شروان . وعند ما علم هولاكو بذلك أمر باستدعاء القوات من كل ممالك إيران . وفى شهر سكسنج الموافق اليوم الثانى من شوال سنة ٦٦٠ / ١٢٦٢ تحرك من ألاتاغ ، وسيَّر شيرامون نويان إلى منقلاى ومعه سماغو نويان ، فوصلا فى ذى الحجة إلى شماخى . وقد داهم جند بركاى شيرامون ، وأفرطوا فى القتل ، وأغرقوا سلطان جوق فى الماء . وفى يوم الأربعاء سلخ ذى الحجة سنة ٦٦٠ / ١٢٦٢ وصل اباتاى نويان ، وهاجم جنود بركاى على مسيرة فرسخ بالقرب من شمران ، فقُتل كثير منهم ، وهرب بوقاى .

وعند ما علم هولاكوخان بفرار هذا المتمرد ، تحرك فى يوم السبت السادس من المحرم سنة ٦٦١/١٢٦٢ من حدود شماخى قاصدا حرب بركاى . وفى ذلك الوقت شكا جمع من المقربين إلى هولاكو — سيف الدين البيتكچى — الذى كان الوزير الخاص — والخواجه عزيز من ولاة كرجستان ، ومجد الدين الكرمانى ، فقُبض عليهم وجىء بهم إلى المعسكر . وبعد محاكمتهم قتل ثلاثتهم . وفى ليلة الخميس الثامن من المحرم ، شكوا أيضا حسام الدين المنجم ، وقُتل بعد ثبوت جرمه . أما الملك صدر الدين التبريزى « وعلى ملك » حاكم العراق العجمى وبعض أجزاء من خراسان فقد نجا كل منهما بعد ضربهما مرات بالعصا .

وفى يوم الجمعة الثالث والعشرين من المحرم سنة ٦٦٠ صدر الأمر بأن

يحمل جميع الجنود السلاح، و يتحركوا ، فوصلوا عند طوع الشمس إلى موضع « در بند خزر » . وكانت جماعة العصاة على برج در بند ، فدفعوهم بالسهام من جانبهم . ولما خلا البرج من الطغاة ، فتحوا در بند ، وحاربوا من الناحية الأخرى منه ، فوقعت الهزيمة بالعصاة . ولـكن استمر القتال إلى آخر النهار . وفى غرة صفر انهزم بوقاى مع الجيش برمته ، وانتصر جنود هولاگوخان ، وكان آباقاخان قد أُرْسِلَ فى جيش كثيف لمددهم .

و بعد هزيمة بوقاى قال شيرامون وأباتاى لآباقاخان : « الأَوْلى بالأمير أن يعود لخدمة أبيه ، لأننا سنسارع إلى تعقب الطغاة » . ولـكنه لم يجبهم إلى طلبهم غيرة ورجولة . وقد صدر أمر من هولاگو بأن يسير ايلـكا نويان وتودان بهادر و باتو وسالجيداى وجغان وبلارغو ودوغور لتعقب المتمردين ، والاستيلاء على منازل جنود بركاى .

وتنفيذا لهذا الأمر عبروا نهر ترك ، وكانت جميع بيوت الأمراء والأعيان وجنود بركاى تلمع فى تلك الليلة كالنجوم ، وكانت صحراء القبچاق مليئة بخيامهم وسرادقاتهم . كذلك كانت تلك البقعة محتشدة بالخيول والبغال والإبل والأبقار والأغنام ، بينما لم يكن أحد من جنود جيشهم مقيما فى منزله ، فقد هربوا جميعا تاركين أطفالهم وعيالهم ؛ فنزلت جنودنا فى مساكنهم ، وقضوا ثلاثة أيام فى الدعة والراحة والأنس والمتعة ، وكانوا يسمرون مع ذوات الوجوه الوضاءة كالقمر ، والشعور المعطرة كالعنبر .

وعنـد ما اطلع بركاى وجنوده على أحوال منازلهم وعيالهم وحاشيتهم وأموالهم ومواشيهم احتشدوا كالنمل والجراد ، وظهروا فى تلك الصحراء الفسيحة ، وداهموا الأمراء والجنود . وفى غرة ربيع الأول من السنة المذكورة استمروا يحاربون على ضفة نهر ترك من طلوع الصبح إلى صلاة الظهر . ولما كانت الإمدادات تصل إلى الطغاة ، فقد تراجع جيشنا . . وكان الماء قد تجمد من شدة البرد ، فكانوا يمرون عليه . ولكن فجأة تحطم الجليد ، فغرق جنود كثيرون ، بينما وصل آباقاخان سالما إلى شبران ، ونزل هنالك . كذلك مر بركاى بجيشه من در بند ثم عاد بعد ذلك .

وفى الحادى عشر من جمادى الثانية ، وصل هولاكو خان إلى حدود تبريز ، وكان منكسر الخاطر موزع الضمير لعين السوء التى أصابته ، وشغل بتلافى مافات . فأمر بأن يعدوا الأسلحة فى كل الممالك ، وأن يجهزوا الجنود مرة ثانية بالأسلحة والأموال . وقد أعلن فى السنة التالية أن بوقا قد عزم على الخروج من در بند . فأرسل هولاكو خان إلى هناك الشيخ شريف التبريزى للتجسس عن طريق جبال لكزستان ، فلما بلغ مرابط بوقاى قبضوا عليه ، وحملوه إليه ؛ فسأله أسئلة مختلفة من كل نوع . ثم فاجأه خلال الحديث فألقى عليه هذا السؤال : « ماذا تعلم عن هولاكو خان . . . هل لازال يقتل أشرافنا وأعياننا وزهادنا وعُبّادنا وتجارنا غيظا وغضبا . . . » فأجاب الشيخ : « إن الملك كان غاضبا قبل هـذا ، فكان يحرق الأخضر واليابس بسبب خلاف الإخوة » . أما الآن :

« ـ فلا تحرقُ النـــار الحرير لعـــدله ،
والغزالة أيضاً ترضع اللـــــبن من اللبؤة .
ـ والناس فى راحة وطمأنينـــة لإنصافه وعدله ،
والظالمون أذلاء مرهقون من قدرته و بطشـــه » .

وفى تلك الآونة وصل الرسل من ناحية الخطـا معلنين أن قو بيلاى قاآن قد جلس على العرش ، وأن أريق بوكا دخل فى طاعتـه ، وأن آلغو قد مات ، وصدر فرمان فى حق هولاكو خان ، يقضى بإقراره ملـكا للبـلاد من ضفاف جيحون حتى ديار مصر والشام . وقد أُرْسِلَ إليه ثلاثون ألفا من شباب المغول النابهين لمدده ؛ فخاف بوقاى وانزعج لتلك الأخبار ، واصفرت وجنتاه . فلزم الصمت ولم ينبس ببنت شفـة . وأخيراً وصل الشيـخ شريف إلى حضرة هولاكو خان ، وعرض عليه حقيقة الأحوال ؛ فشملتْ الحضرة العلية الشيـخ بالعطف والرعاية ، وزينتْ وجه البسيطة بالعدل والإنصاف .

أحوال هولاگو خان فى آخر عهده من إيفاد آباقا إلى خراسان ، وتفويض الولايات إلى الأمراء والولاة ، وأحوال مرضه ووفاته

كان هولاگو خان محبا للعمارة للغاية . وقد بقى كثير من الأبنيـة التى أمر ببنـائها . فأقام قصرا فى ألاتاغ ، وبنى معابد للأصنـام فى مدينـة « خوى » . وكان يشغل نفسه فى تلك السنة بالأبنية والعمارة ، ويأمر بتدبير مصالح البلاد والجنود والرعية . ولما حل الخريف قصد مشتى « زرينه رود » ، الذى يطلق عليـه المغول « جغاتو نغاتو » ، ثم رحل إلى مراغه حيث اهتم بإنجاز المرصد .

كان هولاگو تواقا إلى الحـكمة ، يُرَغب الحكماء فى بحث علوم الأوائل . وقد عيّن لهم المهايا والمراسيم . وكان يزين بلاطه بالعلمـاء والحـكماء . كما كان يميل إلى تعلم الـكيمياء ، وكان رجال هذا العلم يحظون دائما برعايته . وقد أشعلوا نيرانا مدفوعين بتسويلاتهم وتخيلاتهم ، وأحرقوا أدوية لا حصر لها ، ونفخوا فى الصغير والـكبير بالمنافخ العديمـة المنافع ، وعملوا من طين الحـكمة قدورا ؛ غـير أن فائدة طبخهم لم تبلغ إلى أكثر من عشـائهم وفطورهم .

ولم تكن لهم خبرة بالتقليب . لكن كانت لهم اليد الطولى فى الخداع والتمويه ؛ فهم لم يستطيعوا نقش دينار ولا سبك درهم . وقد ألقوا بمدخرات المصانع لاقتدار الربوبية إلى هاوية التلف والفناء ، وصُرفت أموال كثيرة فى وجوه ما يحتاجون إليه تلبية لمطالبهم ، وللإنفاق على علف دوابهم مما لم يحصل على مثله قارون البائس طوال عمره وهو يشتغل بالأكسير .

وقد فوض الحكم فى ممالك العراق وخراسان وما زندران حتى فرضة جيحون ، إلى الأمير آباقا خان الذى كان نجله الأكبر والأفضل . كذلك أسند أران وآذربيجان حتى شاطئ الرس إلى يشموت ، وسلم الأمير « تودان » ديار بكر وديار ربيعة حتى شاطئ الفرات ، وأعطى معين الدين پروانه ممالك الروم ، كما ولى الملك صدر الدين عَلَى تبريز ، وتركان خاتون على كرمان ، والأمير انكيانو على فارس .

ولما كان هولاكو قد قتل الأمير سيف الدين البيتكچى ، فقد رفع الصاحب شمس الدين محمد الجوينى ، وفوض إليه منصب صاحب ديوان البلاد كلها ، وأطلق يده وقواها فى حل الأمور وعقدها ، وترتيبها وضبطها ، وفوض ملك بغداد إلى أخيه الصاحب علاء الدين عطا ملك .

وهكذا رتب هولاكو الأمور المذكورة ، وكان يبدى أسفه بسبب غبن أقاربه الحاسدين ، ويدبر الأسباب لتلافى كل مافات ، وينظم الجيوش . وقد رفع قدر جلال الدين ابن الدواتدار الصغير ، وأعلى شأنه ؛ لأنه كان قد

بدا للملك أنه لايوجد شخص أكثر منه شفقة عليه بين جميع رعاياه وأتباعه .
وذات يوم قال لهولاكو : « حيث أن النيـة معقودة على السـير إلى صحراء القبچـاق ، فإنه لايزال يوجد فى ولايات الخليفة عدة آلاف من أتراك هذه الجهة ممن لهم معرفة تامة بطرق أهل القبچاق ورسومهم . فإذا أذن الملك لى فسوف أسـير وأجمعهم حتى يـكونوا طلائع فى الحرب ضد بركاى » . فأعجب هولاكو خان بقوله ، وأمر له بالفرمان والپايزه ، و بمقتضاها يكون على حكام بغداد ، أن يعطوا جلال الدين كل ما يطلبـه من الأموال والأسلحة والآلات . وليس لأى مخلوق أن يتدخل فى عمله حتى يُعد المهمـة التى كلف بها .

وفى شهور سنة ٦٦٢/١٢٦٣-١٢٦٤ سار جلال الدين إلى بغداد تنفيذاً للأمر ، وجمع كل من رآه لائقـاً للجندية . وكان يقول لهم أحياناً على سبيل الـكناية والتعريض : « إن الملك يذهب بكم ليجعلـكم دروعا أمام الخصوم . فإما أن تموتوا هناك ، و إما أن تظفروا بالشرف وحسن السمعة . و إذا قتلتم فى الحرب فبِهَا، و إلا فسيكون لـكم ميدانُ آخر . وأنتم تعرفون كيفية حسبى ونسبى ، وماهى النسبة التى تربطنى بـكم ، ومهما كان لى من هولاكو من عطف بالغ ، فإنى لا أريد أن أجعلـكم طعمة للسيوف . و إنى أفـكر فى أن أرفض ولاء المغول و إقبـالهم ، وأخلصكم وأخلص نفسى من حكم المغول . فيجب عليـكم أن توافقونى على رأيى » . فخدع هؤلاء القوم بقوله .

و بعد أن جمع شتات الجنود ، سار بالطبول والأعلام ، وعبر جسر بغداد وهاجم عرب خفاجة ، ونهب قدراً من الجواميس والإبل ، وأخذ من خزانة بغداد أجور الجنود ونفقاتهم من الخيل والسلاح ، ثم سار مع الجنود والنساء والأطفال والأتباع والأشياع والأقمشة والأمتعة ضارباً طبـل الرحيل ، وجاوز جسر بغداد وقال : « إننا نصطحب معنـا الأهل والعيال كى يفوزوا بزيارة المشاهد ، إذ أن مقامنا بعد هذا سيكون فى در بند وشروان وشماخى ، ونسير مع الجنود والجيوش ونحصل على مئونة الطريق من عرب خفاجة المتمردين » و بعد أن عبر الفرات قال للجنود : « إننى عازم على السير إلى الشام ومصر ، فـكل من يأتى معى فَبِهَا ، و إلا فليبعد من هنالك » . فلم يستطيعوا أن يقولوا شيئاً اتقاء شره ، وذهبوا بجملتهم إلى الشام ومصر عن طريق عانه وحديثه .

فلما بلغ هذا الخبر مسامع الملك تميز غيظاً ، وكان خلال تلك المدة يفـكر بدقة فى شأن مقاومة الأعداء ، فزادت تلك القضية الطين بلة .

وعندما حلت سنة البقرة (گاو) الموافقة شهر ربيع الأول سنة ٦٦٣/ ١٢٦٤–١٢٦٥ شغل عدة أيام باللهو والصيد . و بعد الاستحمام عاوده المرض، وأخذ يشعر بثقل فى جسمه ، فلزم الفراش . وفى يوم الثلاثاء السابع من ربيع الآخر تناول مسهلا بمشورة الأطباء الخطائيين ، فاعترته غشية على أثره ، أدت إلى حالة السكتة .

ولـكن لما كانت درجات الحياة قد بلغت نقطة الزوال ، فقد عجز الأطباء

الحاذقون عن دفع هذه العلة، رغم مابذلوه من المساعى والجهود فى سبيل استفراغ مافى بطنه . وهكذا لم ينفع أى تدبير مع التقدير ، ولا أى دواء مع القضاء . وفى ذلك الوقت ظهر نجم « ذو الذؤابة » كالأسطوانة المخروطة ، وكان يظهر كل ليلة . فلما اختفى ذلك النجم ، وقعت الطامة الكبرى فى ليلة الأحد التاسع عشر من ربيع الآخر سنة ٦٦٣/ ١٢٦٥ . وكان عمره ثمان وأربعين سنة شمسية تامة ، إذ وصل من مرحلة الفناء إلى مستقر البقاء على ساحل جغاتو . وقد أقيم له ضريح كبير على جبل « شاهو » المواجه « لدهخوارگان » . وتمت مراسم العزاء فى معسكراته ، ودفن تابوته فى تلك المقبرة .

يقول سيد العالم نصير الدين الطوسى فى رثائه :

ـ عنـــــدما دخل هولاكو مراغة شتاء ،
جعـــــل تقدير الأزل آخر نوبة من عمره .
ـ وكانت السنة ٦٦٣ وفى ليلة الأحـــــد ،
التى كانت ليلة التاسعة عشرة من ربيع الآخر .

وفى غرة شهر « ايكندى » الموافق الثامن والعشرين من شهر ربيع الآخر ، توفيت ايسگان خاتون والدة الخان . وفى تلك الأيام مات كذلك الأمير الغو البيتكچى . وفى يوم الخميس الخامس من جمادى الآخرة والثانى من شهر « شون » من عام « هوكار » الموافق غرة رمضان سنة ٦٦٣/١٢٦٥

ماتت « دوقوز خاتون » التى كانت قد آلت إلى هولاكوخان من أبيه تولوى . وكانت وفاتها بعد مضى أربعة أشهر وخمسة عشر يوما على وفاة هولاكوخان ، وقبل جلوس آباقا بثلاثة أيام .

انتهى تاريخ هولاكوخان الذى نشره
كاترمير
وهو الجزء الأول من تاريخ الإيلخانيين

موضوعات الكتاب

صفحة

صفحة

كشاف

١ — أسماء الأشخاص

(ب)

(چ)

(ح)

(خ)

(ش)

(ق)

(ك)

(گ)

(ل)

(م)

كشاف

٢ ـ البلدان والأمكنة

كشاف

٣ ـ القبائل والأمم

(ن)

(ى)

الإيلخانيون

مغول إيران

---

١ ـ هولاكو خان بن تولوى بن جنكيز ٦٥١ـ٦٦٣(١٢٥٣ـ١٢٦٤)

(و يشغل الجزء الأول من المجلد الثانى)

* * *

٢ ـ آباقا خان بن هولاكو ٦٦٣ـ٦٨٠(١٢٦٤ـ١٢٨١)

٣ ـ أحمد تكودار بن هولاكو ٦٨٠ـ٦٨٣(١٢٨١ـ١٢٨٤)

٤ ـ أرغون خان بن آباقا ٦٨٣ـ٦٩٠(١٢٨٤ـ١٢٩١)

٥ ـ گيخاتوخان بن آباقا ٦٩٠ـ٦٩٤(١٢٩١ـ١٢٩٤)

٦ ـ بايدوخان بن طرغاى بن هولاكو (جمادى) ٦٩٤ـ٦٩٤(ذى القعدة) ١٢٩٤

(ويشغل تاريخهم الجزء الثانى من المجلد الثانى)

* * *

٧ ـ غازان خان بن أرغون ٦٩٤ـ٧٠٣(١٢٩٤ـ١٣٠٣)

(ويشغل الجزء الثالث من المجلد الثانى)

* * *

٨ ـ أولجايتو خدا بنده بن أرغون ٧٠٣ـ٧١٦(١٣٠٣ـ١٣١٦)

٩ ـ أبو سعيد بهادرخان بن أولجايتو ٧١٦-٧٣٦(١٣١٦-١٣٣٥)

١٠ ـ أرپا خان بن أرتو بوكا بن تولوى
١١ ـ موسى خان بن على بن بايدو
١٢ ـ محمدخان بن منكوتيمور بن هولاكو
٧٣٦ (١٣٣٥)
(تدخل الجلائريين)

١٣ ـ ساتى بيك بنت أولجايتو ٧٢٩-٧٤١(١٣٣٨-١٣٤٠)

١٤ ـ شاه جهان تيمور بن آلافرنگ بن گيخاتو ٧٣٩-٧٤٠(١٣٣٨-١٣٣٩)

١٥ ـ سليمان خان... بن يشموت بن هولاكو ٧٤١-٧٤٥(١٣٤٠-١٣٤٤)

١٦ ـ طغا تيمور خان ٧٣٦-٧٥٣(١٣٣٥-١٣٥٢)

١٧ ـ أنوشيروان العادل ٧٤٤-٧٥٦(١٣٤٣-١٣٥٥)

(ويشغل تاريخهم الملحق وهو ذيل جامع التواريخ لحافظ آبرو) .



تصويب[1]

الصفحة	السطر	خطأ	صواب
٥	٢	على	عالى
٦	٥،١٧	قازان	غازان
٧	٧	Anpré	André
٩	١٣	ناصر الدين	نصير الدين
١٠	٢	ناصر الدين	نصير الدين
١١	٢	النظيرة	النظير
١٢	١	خان آباقا	الخان آباقا
١٣	٦	عند	عن
١٤،١٣		كتلكشاه	قلتغشاه
١٦	١٦	بولوجان	بولغان
١٧	١	قازان	غازان
١٧	١٥	كتلكشاه	قتلغشاه
٢٧	١١	هركوداك	هرقداق
٣٣	١٣	يذبحهم	بذبحهم

(١) وقعت بعض أخطاء أثبتنا هنا تصويبها معتذرين للقارىء الكريم عما فاتنا .

الصفحة	السطر	خطأ	صواب
۳٤	۱٦	یوکل کل	یوکل
٤۳	۱۳	ظاهر الدین	ظهیر
٤۸	۲۲	بنموده	ننموده
٤۹	٤	آقاوانرا	آقاوانرا
٤۹	٥	گیزیده	گزیده
٤۹	۱۸	کندم	کشیدم
٤۹	۱۹	میرطوند	میرخوند
٤۹	۲۲	اختبار	اختیار
٥۰	۲٥	آغابان	آغایان
٥۱	۱۲	جوهر ساد	جوهر شاد
٥۱	۱٤	السعادتین	السعدین
٥۱	۱۷،۱۹	آقابان	آقایان
٥۱	۲۱	شاهزدگان	شاهزادگان
٦۳	۱٦	أتربیت	تربیت
٦۳	۱٦	سید	رسید
٦۳	۲۰	یبکی	بیکی
٦۳	۲۰	سیرد	سپرد
٦۳	۲٤	أحدا	أحد

الصفحة	السطر	خطأ	صواب
٦٤	٣	رعاية الدين	غياث الدين
٦٤	٦	مشكورت	مشورت
٦٤	٨	يا	با
٦٤	٩	كيخاتوا	گيخاتو
٦٤	١٥	رشيد	رسيد
٦٤	٢١	خيوا	خيوه
٦٤	٢٤	ليق	ليق نى
٦٥	١٠	باديشاه	پادشاه
٦٩	١٢	تيمور شاد	تيمور تاش
٧٠	١،٥	» »	» »
٧٠	١٠	يظهر	يظهر تقديره
٧١		عويس	أويس
٧٣	٨	كاپتشاك	قپچاق
٧٨	١٦	استوحذ	استحوذ
٧٩	٤	ألجانيو	ألجايتو
٨١	١٥	أبنى	بنى
٨٤	١٨	ومعارفعه	ومعارفه
٨٥	١١	محمد بن النسوى	محمد النسوى

الصفحة	السطر	خطأ	صواب
٨٦	٨	عطاء الملك	عطا ملك
٨٧	١٤،١	» »	» »
٩٠	١	بمهام	بالمهام
٩٥	١٥	له	لها
٩٦	٨	لأخبار	الأخبار
٩٨	١٥	الوازى	الرازى
٩٩	١٢	مكسوام	(يكسون)
١٠١	١٢	أبو الهادى	أبو الغازى
١٠٣	١٤	الأعيانت	الأعيان
١٠٦	٦	المغمول	المغول
١١٤	٢٠	خو بيلاخان	قو بيلاى خان
١١٥	٣	أقطاى	أوكتاى
١١٩	٤	قره مران	قره موران
١١٩	١٨	متجهتين	متجهتان
١٢٥	١١	بيضاوى	البيضاوى
١٢٦	١٨	خوند	خوندمير
١٢٧	١٨	ظافر نامه	ظفر نامه
١٢٨	٥	لمزعومة	المزعومة

الصفحة	السطر	خطأ	صواب
١٣١	٢	أولوسى	أولوس
١٣٢	٧.٦	أنج خان	أونك خان
١٣٦		كاپتشاك	قپچاق
١٣٧	٥	»	»
١٤٨	١٤	القعل	العقل
١٥٠	٧	بمدمة	بمقدمة
١٥٧	١٠	لصحيح	الصحيح
١٦٥	١٧	شاه‌ولايت	شاه أوليا
١٦٩	٢٣	قاپتشاق	قپچاق
١٦٩	٢٩	النلثى	الثلثى
١٧٤	١٥	بن عال	بن عالى
٢٠٥	١١	بينهما	بينما
٢٢٨	٢١	كاترمين	كاترمير
٢٥٤	١٠	الوزاء	الوزراء
٢٦١	١٥	(ص ٦٩)	(ص ٢٢٤)
٢٧٦	١	آبكسون	آبسكون
٣٠٣	٩	الفضائل	فضائل
٣٠٤	٢	سيدة	سيرة
٣١٦	٣	قائلا	قاتلا

